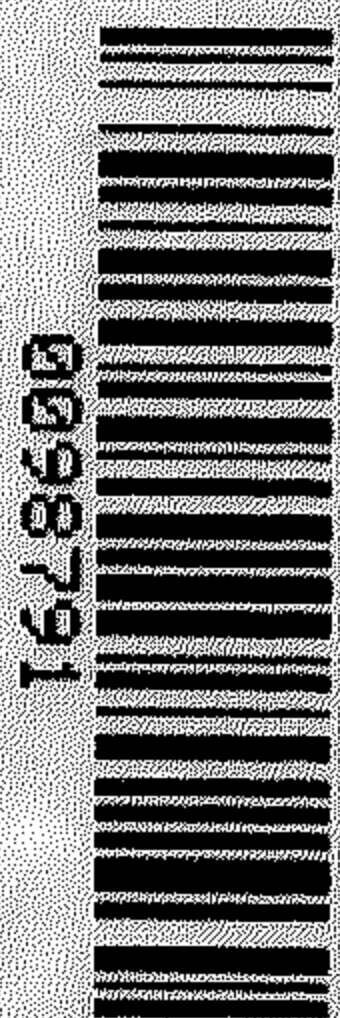
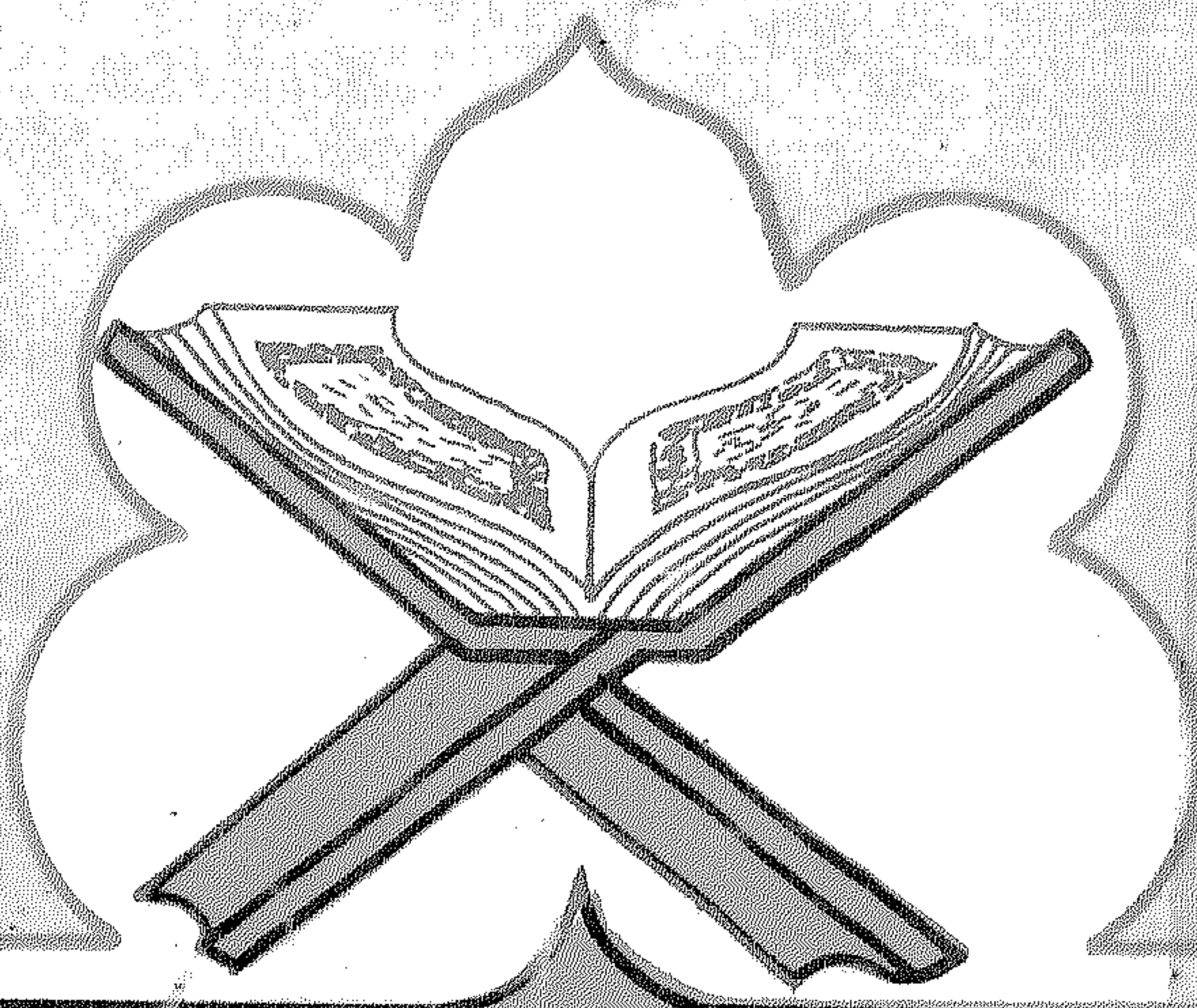


دراسات جديدة في إعجاز القرآن

مناهج تطبيقية في «توظيف اللغة»

دكتور

عبد العظيم محمد الطمعي



0098791



Bibliotheca Alexandrina

مكتبة وهبة
الشارع الجمهورية، مكتبة
القاهرة - ١١٥١٠٠٠

دكتور
عبد العظيم البرهان محمد الطبعي

دراسات جديدة في إعجاز القرآن

مناهج تطبيقية في «توظيف اللغة»

الناشر
مكتبة وهبة

٤ شارع الجمهورية، عابدين
القاهرة - تليفون ٣٩١٧٤٧٠

الطبعة الأولى

١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م

جميع الحقوق محفوظة

أميرة للطباعة عابدين - ت : ٣٩١٥٨١٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى
وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ ^(١)

(١) الأعراف : ٥٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خاتم النبيين ورضوان الله على صحابته الطيبين الطاهرين ، وعلى أتباعه فى الحق إلى يوم الدين .
وبعد . .

فهذه دراسة نحسبها جديدة فى إعجاز القرآن البلاغى اللغوى ، وإنما نحسبها جديدة ؛ لأن الدراسات المتعلقة بالإعجاز منذ بدأ البحث فى هذا المجال - وإلى الآن - يغلب عليها التعميم ، وتركيز إلى القليل من التمثيل والشواهد مثل قوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾ (١) ، وقوله تعالى : ﴿ وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ (٢) ، وقوله : ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ . . . ﴾ (٣) .

كما يغلب عليها وصف الإعجاز من الخارج ، وتحديد الوجوه التى كان بها القرآن معجزاً .

وبعض الدراسات المعاصرة انتهجت نهجاً موضوعياً فى مجال الإعجاز ، لكن ليس على هذا النمط الذى تقدمه فى هذه الدراسة ، لذلك ساع لنا أن نصفها بأنها دراسة جديدة بينها وبين غيرها فرق كبير ؛ لأن هذه الدراسة مقصورة على « مفردات القرآن » ، أى الكلمات التى استعملها القرآن فى بناء الجملة ، والنظر فى لغة القرآن بهذا الاعتبار هو الخطوة الأولى فى الكشف

(٣) هود : ٤٤

(٢) مريم : ٤

(١) البقرة : ١٧٩

عن أسرار الإعجاز البلاغى اللغوى ، وإلى هذا أشار كثير من أهل العلم الذين كتبوا فى الإعجاز قديماً :

كالجاحظ ، والإمام الخطابى ، وابن عطية ، أما حديثاً فقد تناولت الأستاذة الدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطىء) فى كتابها « الإعجاز البيانى » لوناً من هذه الدراسة ، ولكنها لم تذكر مناهج القرآن البلاغية فى المواد اللغوية التى شملتها الدراسة كما لم تهتم بالدواعى البلاغية لإيثار القرآن كلمة دون أخرى .

أما هذه الدراسة فنحسب أنها وفّت بهذا كله مع الإشارة إلى دقائق الإعجاز وخفاياه ، ومحاولة إقناع القراء بالمعانى المتوصل إليها .

والمنهج العام فيها يعتمد على محورين :

الأول : دراسة لفظية من خلال استعمال لغة القرآن لهما ، يُظَنُّ أن هذين اللفظين مترادفين يدلان على معنى واحد ، بيد أن استعمال القرآن لهما يبين - فى وضوح - أن لكلٍ منهما معنى ، حتى وإن كان اللفظان مترادفين فى الوضع اللغوى . وأحياناً نتجاوز النظر فى اللفظين إلى ثالث أو رابع أصلها الدلالى واحد فى اللغة - وضعاً واستعمالاً ، أما فى القرآن فتجد لها دلالات دقيقة تنفى عنها وصف الترادف ، وذلك مثل : أب - والد ، إلخ .

أما الثانى : فقد دار النظر فيه على مادة أو لفظ واحد باحثاً عن الفروق للصياغات المختلفة لتلك المادة من الفعلية والاسمية والمصدرية ، وفى الصور الفعلية قد تختلف دلالة صورة مع دلالة صورة أخرى ، فمثلاً مادة « ختم » وجدنا القرآن المعجز الحكيم يفرق بين دلالة الصور الفعلية فيخصها بمقام لا تتعداه إلى غيره ، ومن دلالة الصور الاسمية فيخصها بمقام آخر مغاير تماماً لمقام الصور الفعلية .

وقد سلكنا هذا المسلك فى جميع المواد التى درسناها مما ورد فى الاستعمال القرآنى .

وبعض الكلمات لم تأت في القرآن إلا مرة واحدة مثل فعل الأمر « أقبل » واسم الفعل « هاؤم » ، والفعل الماضي « أظفركم » وجمع المذكر السالم « قليلون » وقد هُدينا - والحمد لله - إلى معرفة السر البلاغي الإعجازي في مجيئ هذه الكلمات في القرآن مرة واحدة مما سيقف عليه القارئ الكريم مفصلاً مُقنِعاً ، وفي بعض الأحيان كانت الدراسة تدور حول إثارة القرآن استعمال كلمات بعينها في الدلالة على معان نجد لها خارج القرآن كلمات أخرى تحظى بقدر هائل من الشيوع والاستعمال على ألسنة الناس .

من ذلك إثارة القرآن كلمات :

الفوز - والسكينة - والناس يستعملون بدلاً منهما كلمتي « النجاح » ، و« الشجاعة » ، وكان منهج الدراسة في مثل هذه « الموازنات » لماذا يستعمل القرآن كلمة « الفوز » ، ولم يستعمل كلمة « النجاح » ؟ ولماذا يستعمل كلمة « السكينة » ، ولم يستعمل كلمة « الشجاعة » مع ما لهاتين الكلمتين في دنيا الناس من بريق وقوة سلطان ، وشيوع استعمال ؟

والموازنة بين الكلمات أو المفردات اللغوية التي كانت هي خطوط العرض والطول في هذه الدراسة تسفر عن روائع ودقائق من إعجاز القرآن البلاغي اللغوي ، وتدل دلالة قاطعة لا يرقى إليها شك في أن القرآن الحكيم يستعمل اللغة استعمالاً أمثل لا نظير له في كلام البشر مهما أوتوا من الفصاحة ، والبلاغة وسمو البيان .

والمواد المدروسة - هنا - تبلغ أربعين مادة - إجمالاً ، ولكنها في الواقع تناولت الكثير من « مفردات القرآن » - كما سيرى القارئ الكريم - وقد أبت أن القرآن يستعمل اللفظ أو الكلمة في مواضع لا يسد مسدها فيها غيرها من ألفاظ اللغة على اتساعها وتنوعها ، وهذا معنى عبارة ابن عطية صاحب « المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز » ، والتي خلاصتها :

« لو نزعنا حرفاً من القرآن ثم أدرت اللغة من ألفها إلى يائها لتجد ما يسد مسده ، فلن تجد » .

والإمام الخطابي يرتب على إبدال كلمة مكان أخرى من كلمات القرآن الحكيم نتيجتين خطيرتين :

أولاهما : فساد المعنى بالتبديل .

وثانيهما : سقوط البلاغة .

وفى ذلك يقول - رحمه الله - :

« ثم اعلم أن عمود هذه البلاغة - يعنى بلاغة القرآن - التى تجتمع لها هذه الصفات هو وضع كل نوع من الألفاظ التى تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأخص الأشكل به ، الذى إذا أُبدِلَ مكانه غيره جاء منه :

« إما تبدل المعنى الذى يكون منه فساد الكلام .

« وإما ذهاب الرونق الذى يكون منه سقوط البلاغة (١) .

وهذا الذى ذهب إليه هذان الإمامان هو الصواب الخالص ، ولا ينافى ما ذهبوا إليه أن القرآن معجز من حيث نظمه البديع ، على نحو ما بسط القول فيه كل من الإمامين القاضى الباقلانى فى كتابه « إعجاز القرآن » ، وعبد القاهر الجرجانى فى كتابه « دلائل الإعجاز » .

أجل : إن النظر فى مفردات القرآن على هذا النحو الذى ستقرأه فى هذه الدراسة ، لا يتعارض مع نظرية « النظم » لأن اختيار اللفظ هو اللبنة الأولى فى صرح النظم البديع المعجز ، وخطوة أصيلة فى فهم الإعجاز « النظمى »

(١) ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن : (بيان إعجاز القرآن) ، للإمام الخطابي (٢٩) ، تحقيق الدكتورين : محمد خلف أحمد ، ورغول سلام - ط دار المعارف (١٩٩١م) .

البلاغى الذى يكون فى دراسة التراكيب القرآنية ، وما تحفل به من سمات إعجازية تالية لا يُتوصَّل إليها إلا من خلال النظر فى التراكيب القرآنية المعجزة ، ومن خلال النظر فى التراكيب القرآنية ، وأوضاعها اللغوية من تقديم وتأخير ، وذكر وحذف ، وتعريف وتنكير ، وإظهار وإضمار ، يتجلى الإعجاز القرآنى البلاغى اللغوى فى أبهى صورته ، وأروع نماذجه ، وأياً كان الأمر ، فهذه تجربة جديدة تحاول استجلاء واقعية الإعجاز من الداخل - أعنى من داخل النظم القرآنى نفسه - وليست وصفاً له من الخارج تكتفى بسرد وحدة الإعجاز وضبطها دون التمثيل الدقيق والمستفيض عليها ، ومن فضل الله علينا أن ظفرنا بما يثلج صدورنا ، وبما يثبت - فى يقين راسخ - أن الإعجاز البلاغى اللغوى هو الإعجاز الذى وقع به التحدى ، وأن القرآن هو الإعجاز الذى وقع به التحدى ، وأن القرآن كله - كلمة كلمة ، وآية آية ، وسورة سورة - هو موطن ذلك الإعجاز ، وليس كلمات أو جملاً مخصوصة منه . إنه - أى القرآن - كتاب منزل بعلم الله ، كما قال عز وجل :

﴿ وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ، هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (١)

* * *

وسوف يرى القارئ أن المواد اللغوية التى سعدنا بدراستها هنا غير مرتبة ترتيباً منهجياً معيناً ، والسبب فى هذا أن دراستها تمت على الترتيب الذى هى عليه - الآن - من أول مادة إلى آخر مادة . ولما أردنا ترتيبها أبجدياً بعد الفراغ منها تبين لنا أن فى بعضها إحالات إلى مواد أخرى . وأن محاولة ترتيبها أبجدياً سوف يترتب عليه ورود إحالة لم يسبق لها بيان فآثرنا إبقاءها على ما هى عليه ، وبخاصة أن ذكر مواد الدراسة مرتبة حسب ورودها فى أوائل الكتاب نرجو أن يكون فيه غناء للقارئ الكريم عن التنسيق المنهجى .

(١) الأعراف : ٥٢

وفى ختام هذا التقديم أتقدم لمكتبة وهبة بجزيل الشكر على ما بذلت فى إخراج الدراسة من جهد مالى وذهنى إيماناً واحتساباً ، وقياماً برسالتها السامية فى مجال النشر الهادف الرزىن .

كما أتقدم بجزيل الشكر لإذاعة القرآن الكريم فقد كانت هى السبب فى الاهتمام إلى هذه الدراسة ، حىن كلفتنى بإعداد حلقات صوتية فى برامج لغة القرآن ، فسألت الله أن يهدينى لعرض سمات جديدة حول لغة القرآن ، وقد منَّ الله علينا بالمراد ، وبلغت الحلقات المذاعة ، حتى إعداد هذه المقدمة أكثر من عشرين ومائة حلقة مدة كل حقة عشر دقائق .

كما كان لسامعى برنامج « لغة القرآن » دور ملموس فى إعداد هذا الكتاب، فقد أقترح علينا كثير منهم كتابياً وتليفونياً - بأن تُجمع تلك الحلقات فى كتاب مستقل ، وكثير منهم لم تربطنى بهم سابق معرفة .

هذا وقد علمت من السادة العاملين فى إذاعة القرآن الكريم أن سامعى الإذاعة يطلبون منهم مرات إعادة ما سبق إذاعته من الحلقات . كل ذلك كان وراء إخراج هذا الكتاب الذى نرجو أن يكون مقبولا عند الله ورسوله وصالحى المؤمنين والحمد لله فى الأولى والآخرة .

مكة المكرمة فى ٢٤ صفر/ ١٤١٧ هـ . المؤلف عفا الله عنه

الموافق ١٠ يوليو/ ١٩٩٦ م

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مواد الدراسة

- | | |
|------------------------------------|---------------------------------|
| ١٦ - الْمَيِّت - الْمَيِّت . | ١ - الْأَبُ - الْوَالِدُ . |
| ١٧ - مَدَّ - أَمَدًا . | ٢ - أَقْبَلَ - تَعَالَ . |
| ١٨ - الْعَمَل - الْفِعْل . | ٣ - أَصْحَابُ - أَوْلُو . |
| ١٩ - الْجِهَادُ - الْقِتَالُ . | ٤ - الْكُرَّةُ - الْكُرَّةُ . |
| ٢٠ - الْمَخْطِئُ - الْخَاطِئُ . | ٥ - النَّصْر - الظَّفَر . |
| ٢١ - كَفَّرَ - غَفَرَ . | ٦ - قَلِيلٌ - كَثِيرٌ . |
| ٢٢ - مَرَضَ - مَرَضٌ . | ٧ - الرِّيح - الرِّيح . |
| ٢٣ - الْمَرْأَةُ - الْبَعْلُ . | ٨ - الرُّشْدُ - الْهُدَى . |
| ٢٤ - خَتَمَ - خَاتَم . | ٩ - فَرَّقَ - فَرَّقَ . |
| ٢٥ - طَبَعَ - يَطْبَعُ . | ١٠ - الْجَسَدُ - الْجِسْم . |
| ٢٦ - رَبَّطَ - يَرْبِطُ . | ١١ - عَرَفَ - عَلِمَ . |
| ٢٧ - سَخَّرَ - مُسَخَّرَات . | ١٢ - الْمَسُّ - اللَّمَسُ . |
| ٢٨ - سَخِرَ - يَسْخَرُ . | ١٣ - الْمَطَر - الْغَيْث . |
| ٢٩ - السَّكِينَةُ - الشَّجَاعَةُ . | ١٤ - النَّعِيمُ - النُّعْمَةُ . |
| ٣٠ - الْفَوْزُ - النَّجَاحُ . | ١٥ - الْجَمَالُ - الْحُسْنُ . |

٣٦ - الرَّبُّ - رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ .

٣٧ - النُّورُ - المُنِيرُ .

٣٨ - العَمَى - العَمَهُ .

٣٩ - الصَّوْمُ - الصِّيَامُ .

٤٠ - ذَاقَ - أَذَاقَ .

٣١ - اللِّسَانُ - اللُّغَةُ .

٣٢ - صَعَدَ - يَصْعَدُ .

٣٣ - رَفَعَ - يَرْفَعُ .

٣٤ - الدُّعَاءُ - النِّدَاءُ .

٣٥ - النِّدَاءُ - الدُّعَاءُ .

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الأبوة - الوالدية

الأب فى اللغة : هو الوالد ، والوالد هو الأب ، والام هى الوالدة ،
فقد جاء فى المصباح المنير فى مادة (و ل د) :
« الوالد الأب ، وجمعه بالواو والنون ، والوالدة الأم ، وجمعها بالألف
والتاء » (١) .

ومعنى هذا أن الأب والوالد مترادفان على معنى واحد ، فكلاهما يطلقان
على الأب الذكر (الرجل) ، ويُفَرَّقُ بينه وبين الأم (الأنثى) بالتاء ، فهو
والد ، وهى والدة .

وقد جاء استعمال العرب على هذا المعنى ، فأطلقوا على الأب كلمة والد ،
ومن ذلك قول حسان بن ثابت :

وإن سنام المجد من آل هاشم بنو بنت مخزوم ، ووالدك العبدُ (٢)
وقول عمر بن أبى ربيعة :

قالت وعيش أبى وحرمة والدى لأنبهنَّ الحى أن لم تخرُج (٣)
وقال الفرزدق :

رمانى بذنب كنت منه ووالدى بريئاً ، ومن أجل الطوى رمانى (٤)

(١) مادة ولد (ص ٦٧١) ، إعداد : أحمد بن محمد الفيومى (م ٧٧٠ هـ) -
طبعة دار المعارف ، القاهرة .

(٢) ديوان حسان . (٣) ديوان عمر بن أبى ربيعة .

(٤) الكشف (٦٩٣/٢) ، وفيه « برياً » بدل : بريئاً .

فهؤلاء الشعراء الثلاثة أطلقوا على الأب (الرجل) كلمة والد باعتبار أن الكلمتين مترادفتان كما تنص معاجم اللغة .

* *

● استعمال أب ووالد في لغة القرآن :

ذلك هو وَضَعُ أب ووالد في اللغة ، فهل هما في لغة القرآن مثلهما في اللغة بوجه عام ؟ أم أن الاستعمال القرآني يختلف عن تناول اللغوى لهما ؟ الواقع أن التأمل في استعمال القرآن لكلمتي : أب ، ووالد يجد فرقاً دقيقاً بين استعمال القرآن لهما ، وبين الاستعمال اللغوى في كلام البشر .

فالقرآن العظيم يخص كلمة « أب » بالرجل ، ويخص كلمة « والد » مع ثاء التأنيث بالأنثى . ولم يرد في لغة القرآن كلمة « والد » للدلالة على الأب الذكر ، ولا كلمة « أب » للدلالة على الأم الأنثى ما دام الحديث جارياً على الأب والأم الحقيقيين ، بل الذي في القرآن إطلاق كلمة « أَبَوَيْنِ » في حالة التثنية على كل من الأب والأم مجتمعين لا مفترقين ، وإطلاق كلمة « والدَيْنِ » مثني - كذلك على كل منهما مقترنين . فإذا جاء الحديث عن جنس الآباء والأمهات جَمْعاً غير مفرد ولا مثني ، أثر القرآن جمع الأب على جمع « الوالد » في كل موضع أريد فيه الجمع .

* *

● نماذج من الاستعمال القرآني لكلمتي أب ووالد :

- أب في صيغة الإفراد :

﴿ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبَا شَيْخًا كَبِيرًا ﴾ (١) .

﴿ يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ ﴾ (٢) .

(١) يوسف : ٧٨

(٢) مريم : ٢٨

﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ ﴾ (١) .

﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا ﴾ (٢) .

- أبٌ في صيغة التثنية :

﴿ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ ﴾ (٣) .

﴿ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ ﴾ (٤) .

﴿ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ ﴾ (٥) .

﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ (٦) .

فى هذه الآيات الأربع جاء أبٌ مثنى مراداً منه أبوين ذكرين وهما : إبراهيم وإسحاق فى الآية الثانية ، ومراداً منه الأب الذكر ، والأم الأنثى فى الآيات الثلاث الأولى والثالثة والرابعة كما هو ظاهر من السياق .

- أبٌ فى صيغة الجمع :

هذه هى الحالة الثالثة لاستعمال لغة القرآن لكلمة أب ، ومن أمثلتها :

﴿ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾ (٧) .

﴿ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ﴾ (٨) .

﴿ . . . أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ ﴾ (٩) .

﴿ . . . وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ (١٠) .

وفى هذه الآيات الأربع ورد أبٌ مجموعاً جمع تكسير مراداً به فى الآية

(٣) النساء : ١١

(٢) الكهف : ٨٢

(١) مريم : ٤٣

(٦) يوسف : ١٠٠

(٥) الاعراف : ٢٧

(٤) يوسف : ٦ .

(٩) النور : ٦١

(٨) النساء : ١١

(٧) البقرة : ١٧٠

(١٠) يوسف : ٣٨

الأولى : السلف رجالاً ونساءً ، ومراداً به فى الثانية آباء المخاطبين المباشرين لإنجابهم ، وكذلك الآية الثالثة على الأظهر ، أما الآية الرابعة فالمراد منها الأب المباشر للإنجاب : « يعقوب » ، ثم الجدّان الأول : « إسحاق » ، والثانى : « إبراهيم » عليهم السلام .

- والد ووالدة فى صيغة الإفراد :

ومن أمثلة هذا النوع قوله تعالى : ﴿ لَا تُضَارُّ وَالِدَهُ بِوَلَدِهَا ﴾ (١) ، وقوله : ﴿ وَبِرًّا بِوَالِدَتِي ﴾ (٢) .

وقوله : ﴿ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَارٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا ﴾ (٣) .

وقوله : ﴿ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴾ (٤) .

فى هذه الآيات الأربع جاءت كلمة « والد » مفردة مؤنثة فى موضعين ، ومفردة مذكرة ، ثلاث مرات :

مرتين فى آية لقمان ، وواحدة فى آية البلد ، ثم إن دلالة المرتين المؤنثتين دلالة محددة مراد منها الأم التى وضعت وأرضعت .

أما دلالة المرات الثلاث المذكورة فهى عامة غير مختصة بالأب الذكر ، ولا الأم الأنثى ، وهذا مما يلفت الأنظار إلى دقة التعبير القرآنى الحكيم .

- والد فى صيغة التثنية :

جاءت كلمة والد مثناة مع التذكير دون التأنيث فى مواضع عديدة فى لغة القرآن ، ومن ذلك قوله تعالى :

(٢) مريم : ٣٢

(٤) البلد : ٣

(١) البقرة : ٢٣٣

(٣) لقمان : ٣٣

- ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ (١) .
- ﴿ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ﴾ (٢) .
- ﴿ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ ﴾ (٣) .
- ﴿ أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلِوَالِدَيْكَ ﴾ (٤) .
- ﴿ وَالَّذِي قَالَ لِيَوْلَدَيْهِ أُفْ لَكُمَا ﴾ (٥) .
- ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ ﴾ (٦) .
- ﴿ وَبِرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا ﴾ (٧) .

وفى هذه الآيات السبع - ولها نظائر أخرى - أريد من « الوالدان » الأب الذكر ، والأم الأنثى ، كما أريد من « الأبوان » من قبل فى قوله تعالى : ﴿ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ ﴾ الأب والأم معاً ، وسنعود لتوضيح هذا بعد قليل .

- والدة مجموعة جمع مؤنث سالماً :

أما مجئ « والدة » مجموعة جمع مؤنث سالماً ففى قوله تعالى : ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ﴾ (٨) . والمراد منها هنا ، هنَّ الأمهات اللاتى وضعن حملهن .

- إحلال صيغتي التثنية إحداهما محل الأخرى وسببه البلاغى :

عرفنا مما تقدم أن النظم القرآنى يُحل إحدى صيغتي التثنية محل الأخرى ، فإراد - أحياناً من « أبواه أو أبويه » الأب والأم ، وإراد - أحياناً أخرى من « الوالدان أو الوالدين » الأب والأم كذلك ، فما الداعى البلاغى لهذا الإحلال ، وبِمَ يسميه البلاغيون ؟

(٣) النساء : ٧

(٢) البقرة : ١٨٠

(١) البقرة : ٨٣

(٦) نوح : ٢٨

(٥) الأحقاف : ١٧

(٤) لقمان : ١٤

(٨) البقرة : ٢٣٣ .

(٧) مريم : ١٤

❖ الإحلال هو التغليب :

هذا الإحلال يسميه البلاغيون بـ « التغليب » ، وهو عندهم : « إطلاق لفظ أحد المختلفين على الآخر إجراء لهما مجرى المتفقين » (١) .

وقد مثلوا له بـ « أبوان » للأب والأم ، و « العُمران » لأبى بكر وعمر ، و « القمران » للشمس والقمر . ولا بد فى كل تغليب من داعٍ بلاغى يقتضيه ، فما هو هذا الداعى البلاغى فى إطلاق الأبوين على الأب والأم ؟ وإطلاق الوالدين عليهما فى لغة القرآن الكريم ؟

❖ تغليب الأبوة على الأمومة :

لما تتبعنا المواضع التى غلب فيها القرآن الأبوة على الأمومة فسماهما معاً : أبوين أدركنا أن هذه المواضع جانب الأبوة فيها أقوى من جانب الأمومة . وبيان ذلك أن آية النساء « وورثه أبواه » مقام الحديث فيها هو الميراث ، والذكر فى موضوع الميراث أقوى من الأنثى غالباً ، فالله يقول : ﴿ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ ﴾ كما أن الذكر يكون عصبة المتوفى فيرث ما له كله إن لم يكن للميت وارث آخر ويأخذ نصيبه إن كان له وارث آخر ، ثم يأخذ الباقي بعد استيفاء أصحاب الفروض أنصبتهم .

وفى قوله تعالى : ﴿ وَرَفَعَ أَبْوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ الرفع هنا هو الظهور والظهور أصل فى الرجال فى كل عصر ومصر ، وليس للنساء حظ فيه يعادل حظ الرجال أو يدانيه .

وكذلك إذا كان الأب مجموعاً كما فى قوله تعالى حكاية عن المشركين : ﴿ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾ ، فإن المراد من الآباء هنا هو السلف الذين

(١) البرهان فى علوم القرآن (٣/٢٠٣) مع تصرف فى الصياغة ، وانظر المطول (١٥٨) .

ينتمى إليهم المشركون ، فهم قدوتهم فى رأى والريادة ، والرأى والريادة من خصائص الرجال دون النساء فهم القادة والزعماء .

ونظيره قول يوسف عليه السلام : ﴿ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ حيث لم يذكر معهم الأمهات .

والخلاصة : أن القرآن لا يغلب الأبوة على الأمومة اعتباراً بل للملح بلاغى دقيق ، وهكذا جميع الآيات التى غُلبَ فيها جانب الأبوة على الأمومة .

*** تغليب الأمومة على الأبوة :**

ومثلما سلك القرآن فى تغليب الأبوة على الأمومة ، سلك المنهج نفسه فى تغليب الأمومة على الأبوة ، فسمى الأب والأم والدين فى كل موضع كان جانب الأمومة فيه أرعى وأظهر من جانب الأبوة .

فمثلاً جميع الآيات التى تأمر أو توصى الأبناء بالإحسان بالأم والأب يُغلب القرآن الحكيم جانب الأمومة على الأبوة ، ففى آية الإسراء - مثلاً - وهى : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ (١) ، غلب القرآن جانب الأمومة على جانب الأبوة ، فسمى الأم والأب والدين لأن الأمهات أحوج إلى العطف والإحسان من الآباء وهنَّ كما يحتجن إلى عطف الأبناء يحتجن إلى عطف الأزواج ، وما أكثر ما أوصى صاحب الدعوة صلى الله عليه وسلم برعاية الأزواج لزوجاتهم كما جاء فى خطبة حجة الوداع وغيرها . هذا هو الداعى البلاغى لتغليب أحد الوصفين - الأبوة والأمومة - على الآخر . نسق حكيم ، واعتبارات دقيقة أسرة حفل بها البيان القرآنى المعجز ، الذى أنزل بعلم الله المحيط .

● صورة من التغليب :

هذا فى صيغ التثنية « أبوان - والدان » ، أما فى الجمع فنحن أمام صورة أخرى من صور التغليب ، فآية البقرة السابقة :

﴿ بَلْ تَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾ لم يقل أجدادنا قط لا فى هذه الآية ،

(١) الإسراء : ٢٣

ولا فى غيرها من آيات القرآن كله ، التى ورد فيها « الأب » مجموعاً جمع تكسير ، فقد غلب القرآن جانب الآباء الأدين المباشرين للإنجاب على الأجداد الأدين والأبعدين ، فما هو الداعى البلاغى يا ترى ؟

الذى هُدينا إليه هو أن الآباء المباشرين للإنجاب صلتهم بالأبناء الصق من صلة أجدادهم بهم ، فهم - أعنى الآباء المباشرين للإنجاب - أقوى جانباً - هنا - من الأجداد ، لذلك - والله أعلم - غلب القرآن وصفهم على وصف الأجداد ، هذه واحدة ، أما الثانية : فإن الجد - مهما بُعد - يصح أن يسمى أباً ، ومن ذلك تسمية القرآن إبراهيم - عليه السلام - أباً لنا مع الفارق الزمنى المديد بيننا وبينه ، ومع كثرة الأجداد بيننا وبينه ، وذلك فى قوله تعالى :

﴿ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ، هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ ﴾ (١) .

أما الأب فلا يصح - أبداً - أن يسمى جداً ، فتأمل معنى جيداً هذه اللغة البارة المعجزة ، لغة التنزيل المنزل بعلم الله الحكيم الحميد .

* *

● شبهات مردودة :

من حق القارئ الكريم أن يقول : إذا سلمنا لكم كل ما هديتم إليه من حقائق ، فماذا نفعل فى قوله تعالى فى آية لقمان السابقة :

﴿ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ ، وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَارٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا ﴾

وآية الأحقاف السابقة :

﴿ وَالَّذِي قَالَ لِيُوالِدَيْهِ أَفٌ لَّكُمَا . . ﴾

(١) الحج : ٧٨ .

ففى آية لقمان ورد « والد » مفرداً مرتين مراداً به « الأب » المذكر ، ومثلها آية البلد ﴿ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴾ .

وفى آية الأحقاف سُمى الأب والام « وَالِدَيْنِ » فى غير مقام الإحسان ؟ كما أن الإحسان متنفذ فى آتى لقمان والبلد ، وهذا ينافى ما ذكرتموه من قبل ؟

والجواب :

لا منافاة بين هذه الآيات وبين ما هُدينا إليه من قبل ، والبيان :

١ - إن آية لقمان وقد تكرر فيها : « والد » مرتين لم يُرد فيها الأب الذكر ، بل هو والام الوالدة ، فالآباء والأمهات جميعاً لا يجزون عن أبائهم شيئاً ، والأبناء لا يجزون عن آبائهم ولا عن أمهاتهم شيئاً يوم القيامة ، فإن لكل امرئ منهم يومئذ شأناً يغنيه . فالوالد فى هذه الآية مراد منه الآباء والأمهات معاً .

هذه واحدة ، أمّا الثانية فإن المقام فيها مقام إحسان فى الأصل ، فالمجازاة نوع من الإحسان ، ولكن أهوال القيامة شغلت الوالد عن ولده ، والمولود عن والده ، مهما كان نوع الوالد والولد ، ذكراً أو أنثى .

وهذا يقال فى آية الأحقاف ﴿ وَالَّذِي قَالَ لِيُؤَدِّيهِ أَفْ لَكُمْ ﴾ ، فالمقام مقام إحسان ، لكن هذا « الولد » عى والديه وتضجر منهما ، وإطلاق وصف الوالدين - هنا - على الأب والام بتغليب جانب الأمومة على الأبوة تعريض فى غاية البلاغة بهذا « الولد العاق » ، حيث شذ عن الإحسان لمن يجب عليه الإحسان إليهما ، وهما أمه وأبوه ، وبخاصة أنهما يدعوانه إلى الخير والفلاح .

أما آية البلد ﴿ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴾ فليس المراد منها - كذلك - الأب الذكر ،

بل إن كثيراً من المفسرين ذهب إلى أن دلالتها عامة تشمل كل حالات التوالد ،
وكون الوالد والولد هنا مُقسماً بهما كما أقسم الله بالبلد التى هى مكة المكرمة ،
فإن مقام القسم يقتضى فخامة المقسم به .

وهذا التفخيم يقتضى أن يكون المقسم به فى « ووالد وما ولد » ، هو بث
المخلوقات وتكاثرها باعتبار هذا آية عظمى من آيات الله . وهذا - بدوره -
يقتضى عموم الوالدية والمولودية ، ومن باب الكناية عن الكثرة التى نشاهدها
والانتشار المتزايد جيلاً بعد جيل (١) .

وبهذا تندفع تلك الشبهات ، وينجلي الحق لذى عينين .

* *

● منهج القرآن فى الأبوة والوالدية :

للأبوة والوالدية فى القرآن الحكيم منهج يباين ما عداه من كلام البشر ،
وما قدمناه يسفر عن الآتى :

أولاً : الأبوة فى القرآن فى صيغة الإفراد مقصورة على الأب الذكر
حقيقة ، ولم يأت لفظ « والد » مراداً منه الأب الذكر فى لغة القرآن ،
ولذلك لما أريد الحديث عن الأب الذكر لبيان حكم شرعى منوط بالولادة
عبر عنه القرآن باسم المفعول به فقال : ﴿ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ
وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ (٢) .

والأب مولود له حقيقة ، أما هو فليس « والد » .

ثانياً : الوالدية تطلق حقيقة فى لغة القرآن على الأم التى حملت

(١) انظر - مثلاً - : تفسير القرطبي (٦١/٢٠) .

(٢) البقرة : ٢٣٣

ووضعت وأرضعت ، كما فى قوله تعالى حكاية عن عيسى - عليه السلام- : ﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي ﴾ وقوله خطاباً لعيسى عليه السلام : ﴿ وَعَلَى وَالِدَتِكَ ﴾ (١) .

ثالثاً : يُحل القرآن كلا من إحدى صيغتي التثنية مثل الأخرى على سبيل التغليب لاعتبار مناسب .

رابعاً : أمّا الجمع المذكر لكلمة « أب » ، وصيغة المفرد المذكر لكلمة « والد » فلا يراد به الأب المذكر ، وإنما يراد به عموم « الوالدية » سواء كان الموصوف بها الذكور أو الإناث .

خامساً : وهذا المنهج الدقيق المحكم لا وجود له فى غير القرآن ، فهو سمة من سمات إعجازه اللغوى البيانى ، استعملت فيه اللغة استعمالاً أمثل ليس له نظير .

* * *

أَقْبِلْ - تَعَالَ

ورد فعل الأمر « أَقْبِلْ » فى لغة القرآن مرة واحدة ، فهو « فريدة » من فرائد القرآن صياغة ، وذكرًا :

ذكرًا : لأن مادة (ق ب ل) لم يأت منها فعل أمر إلا فى موضع واحد من القرآن كله ، فى قوله تعالى مخاطبًا رسوله موسى - عليه السلام - لما ولى مدبراً ولم يعقب حين رأى عصاه تهتز كأنها جان أو ثعبان :

﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ، فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ، إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ﴾ (١) .

وصياغة : لأن وزن « أَفْعِلْ » من هذه المادة (ق ب ل) لم يتكرر مرة أخرى فى غير آية القصص هذه .

وفِعْلُ الأمر « أَقْبِلْ » هذا له نظائر فى اللغة تُؤَدِّى معناه حسب العرف اللغوى العام ، مثل :

تعال - إئت - أقدم ، من الأفعال ، ومثل : هاؤم من أسماء الأفعال ، وهذا يضع أماناً سُؤْلاً ذا شقين :

الأول : لماذا اختير فعل الأمر « أَقْبِلْ » دون غيره من نظائره التى أشرنا إليها ؟

الثانى : لِمَ لَمْ يتكرر هذا الفعل فى لغة القرآن مع أن القرآن وردت فيه صياغات أخرى من المادة نفسها ؟

(١) القصص : ٣١

* الجواب على الشق الأول :

تقدم أن لفعل الأمر « أَقْبِلْ » نظائر في اللغة أوتر هو عليها وأن من تلك النظائر : تعال - إئت - أقدم - هاؤم ، أما أَقْدِمُ ، فلم ترد في القرآن فلا نقف أمامها ، وأما تعال وائت وهاؤم ، فقد وردت في القرآن ، ومع ذلك لم يستعملها القرآن في هذا الموضع . ﴿ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ﴾ ، واستعمال القرآن لـ « أَقْبِلْ » هنا دليل على أن غيرها من نظائرها لا تسد مسدها ، كما أن « أَقْبِلْ » نفسها لا تسد مُسَدَّ واحدة من نظائرها ، وإن بدا بين هذه النظائر الترادف في الدلالة على المعنى .

فالقرآن لم يستعمل تعال ولا إئت ، ولا هاؤم مكان « أَقْبِلْ » ولا أَقْبِلْ مكان واحدة من نظائرها ، ولا واحدة من نظائرها مكان أخرى .

والنظر في المقام الذي ورد فيه فعل الأمر ﴿ أَقْبِلْ ﴾ يفيد أن هذا الفعل ورد مُقْتَضِيً لِحَالٍ مخصوصة ، تلك الحال هي : التَّلَبُّسُ بالتولى والإدبار السريع ، وَمَنْ كَانَ هَذَا شَأْنَهُ ﴿ وَلَّى مُدْبِرًا ﴾ فإن مطابقة الكلام لمقتضى حاله أن يقال له : ﴿ أَقْبِلْ ﴾ لا تعال ولا إئت ولا هاؤم . هكذا تعلمنا البلاغة القرآنية .

ومن دقة المطابقة هنا بين الحال - ولَّى مدبراً ولم يعقب - وبين مقتضاه : ﴿ أَقْبِلْ ﴾ أن « أَقْبِلْ » فيها أمر بالإقبال وتغيير الاتجاه ، وهو المطلوب ، وفيها نهى عن الإدبار الواقع فعلاً في أثناء التكلم ، وصدور الأمر ، وعلى هذا فإن فعل الأمر « أَقْبِلْ » مقيد بهذه القيود ، فكان هو التطبيق البلاغي المتعين في هذا الموضع ، أما نظائره المذكورة من قبل ، فمع دلالتها على أصل المعنى : مطلق القدوم ، فإن هذه الخصائص الدقيقة التي أفادها : أَقْبِلْ ، لا تستفاد من أى من نظائره المذكورة قبلاً .

فـ « أَقْبِلْ » أمرٌ متعينٌ طلباً للإقبال ، ونهياً عن الإدبار التلبس به المخاطب ، وليس كذلك تعال وائت وهاؤم ، وسنعود لهذه النظائر من حيث استعمال القرآن لها بعد قليل .

✽ الجواب على الشق الثانى من السؤال :

نُذَكِّرُ القارئ أن الشق الثانى من السؤال كان :

لماذا لم يتكرر فعل الأمر « أَقْبِلْ » فى لغة القرآن ؟ ، والإجابة فى إيجاز :

لم يتكرر فعل الأمر « أَقْبِلْ » فى لغة القرآن لعدم تكرار المقام الذى يقتضى استعماله ، وذلك المقام - كما تقدم - هو طلب الإقبال والنهى عن الإدبار المتلبس به المخاطب ، فالحالة التى نُودِيَ فيها موسى - عليه السلام - وقيل له فيها : أَقْبِلْ ، لم تتكرر من موسى وإن تكررت حكايتها فى قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ، يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمُرْسَلُونَ ﴾ (١) .

والحكاية فى القرآن كثيراً ما تكرر باختلاف فى أساليب القص ، ومع تكرار الحكاية - هنا - لم يذكر فعل آخر مكان « أَقْبِلْ » وسياق الكلام فى « النمل » يقتضى ملاحظة ذلك الفعل معنى لا لفظاً .

✽ ✽

● منهج القرآن فى مادة : (ق ب ل) :

وردت مادة (ق ب ل) فى صياغات مختلفة للدلالة على أمرين :

أحدهما : قبول الأعمال أو رفضها بالإثبات فى القبول والنفى فى الرفض . ومن أمثلة القبول قوله تعالى :

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ .. ﴾ (٢) .

ومن أمثلة الرفض قوله تعالى :

﴿ ... وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ .. ﴾ (٣) .

(٣) البقرة : ١٢٣

(٢) التوبة : ١٠٤

(١) النمل : ١٠

الثانى : للدلالة على الحركة أو الانتقال والسير ، وهذا ما يهمنا هنا ،
أما الأول فنكتفى بمجرد الإشارة إليه .

ومنهج لغة القرآن فيما دل على الحركة أو السير، والانتقال هو الآتى :

أولاً : أتت فعلاً ماضياً مسنداً إلى « بعض » مضافة إلى ضمير الغائبين
الذكور « هم » مراداً بهم فريق من الناس فى أربعة مواضع هى :

﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ (١) .

﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ (٢) .

﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ (٣) .

﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ ﴾ (٤) .

وفى هذه الآيات الأربع استعملت المادة فى الدلالة على المواجهة بين
طائفتين من الناس يتبادلون الحديث فى أمر ما .

ثانياً : وأتت فعلاً ماضياً مسنداً إلى « نا » الفاعلين مرة فى قوله تعالى :

﴿ وَالْعِبرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا ﴾ (٥) .

وإلى « واو الجماعة » مرتين فى قوله تعالى :

﴿ قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقَدُونَ ﴾ (٦) .

ثم فى قوله : ﴿ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴾ (٧) .

وإلى اسم ظاهر مرة فى قوله تعالى :

﴿ فَأَقْبَلَتْ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ ﴾ (٨) .

(٣) الطور : ٢٥

(٦) يوسف : ٧١

(٢) الصافات : ٥٠

(٥) يوسف : ٨٢

(٨) الذاريات : ٢٩

(١) الصافات : ٢٧

(٤) القلم : ٣٠

(٧) الصافات : ٩٤

وفى هذه الآيات الأربع دلت المادة على الإقبال بعد الإدبار ، وهذا ظاهر فى الآيات الثلاث الأولى . أما فى الرابعة فإن الملائكة لما دخلوا على إبراهيم - عليه السلام - فأوجس منهم خيفة واشتد فزعه ، وهو الرجل ، فإن فزع امرأته يكون أشد ، وفى هذه الحال لا يبعد أن يكون قد حدث من امرأته انزواء وإدبار ، فلما طمأنت الملائكة إبراهيم أقبلت امرأته ، وبخاصة حين بشرت الملائكة إبراهيم بالغلام .

﴿ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ، قَالُوا لَا تَخَفْ ، وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ * فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صِرَةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا ، وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴾ (١) ، وعطف « أقبلت » بالفاء على ما قبلها دليل على ترتيب هذا الحدث وفوريته عقب توجس الخوف والبشارة .

وعلى هذا فإن دلالة المادة على الإقبال بعد الإدبار فى الآيات الأربع دلالة مطردة فى نسق واحد .

ثالثاً : وأنت اسم فاعل « متقابلين » للدلالة على هيئة من هيئات أصحاب الجنة ، وهى المواجهة فى مودة وصفاء طوية ، وذلك - كذلك - فى أربع آيات ، هى : قوله تعالى : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴾ (٢) .

وقوله : ﴿ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴾ (٣) .

وقوله : ﴿ عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ * مُتَكِنِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ﴾ (٤) .

وقوله : ﴿ يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ ﴾ (٥) .

رابعاً : وأنت اسم فاعل من المزيد « استقبل » مرة واحدة فى قوله تعالى :

(١) الذاريات : ٢٨ - ٢٩ (٢) الحجر : ٤٧ (٣) الصافات : ٤٣ ، ٤٤

(٤) الواقعة : ١٥ ، ١٦ (٥) الدخان : ٥٣

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ، بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ ، رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (١) .

* *

● بلاغيات اختلاف الصياغات :

تردد مجئ مادة : (ق ب ل) فى لغة القرآن فيما دل على الحركة أو السير والانتقال بين فعل الأمر « أَقْبِلْ » والفعل الماضى : « أَقْبَلَ » ، واسم الفاعل : « مُتَقَابِلِينَ » ، ثم « مُسْتَقْبِل » ، وكل من هذه « الصياغات » واقع موقعه من البلاغة وحسن البيان .

* وفى طلب حصول الحدث : الإقبال ، استعمل فعل الأمر خطاباً لموسى - عليه السلام - ؛ لأنه كان فى حالة إدبار سريعة .

* وفى الإخبار عن الحدث : الإقبال بعد الإدبار ، استعمل الفعل الماضى الدال على وقوع الحدث ، ثم انقطاعه قبل زمن الإخبار به ؛ لأن الأصل فى دلالة الفعل الماضى أن يدل على حدث وقع وانقطع قبل زمن التكلم ، وهذا منطبق تماماً على ما استعملت فيه المادة من آيات الإقبال بعد الإدبار ، سواء كان ذلك فى المواجهة بين طائفتين يتبادلون الحديث كما فى الحكاية عن أهل النار : ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ .

أو كان فى غير المواجهة كما فى الحكاية عن إخوة يوسف - عليه السلام - : ﴿ وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا ﴾ .

* أما فى الدلالة على إحدى هيئات أصحاب الجنة وهى المواجهة فى ود وصفاء طوية ، فقد استعمل فيها اسم الفاعل : ﴿ مُتَقَابِلِينَ ﴾ للدلالة على دوام تلك الهيئة وثباتها ، وهذا هو الفرق المنصوص عليه بلاغياً بين دالتي

(١) الأحقاف : ٢٤ .

الفعل والاسم . فأصحاب اللجنة دائماً متقابلون ينظر بعضهم إلى بعض ،
لا تدابر بينهم ؛ لأن التقابل علامة التحاب ، والتدابر علامة التباغض .

● الفرق بين « متقابلين » و « مستقبل أوديتهم » :

اسم الفاعل « متقابلين » دل على الدوام والثبات كما مرّ . أما « مستقبل أوديتهم » فمع أنه اسم ، ودلالة الاسم هي الدوام والثبات ، فإن سياق الحديث يدفع هذه الدلالة . لأن الحديث فيها عن ظاهرة كونية ﴿ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ، والظواهر الكونية تحدث ثم تزول ، وهكذا ، والريح التي أرسلها الله على « عاد » ، لم تحدث إلا مرة واحدة ، ثم انقطعت ، فلا دوام ولا ثبات لها ، ولذلك وصفها القرآن بأنها « عارضاً » ، وهذه هي بلاغة القرآن المعجز في لغته ، وفي معانيه .

● الفروق بين « أقبل » و « تعال » :

- ﴿ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ .. ﴾ (١)
- ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ .. ﴾ (٢)
- ﴿ .. وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا .. ﴾ (٣)
- ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ﴾ (٤)
- ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا .. ﴾ (٥)
- ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ .. ﴾ (٦)

(٣) آل عمران : ١٦٧

(٢) آل عمران : ٦٤

(١) آل عمران : ٦١

(٦) الأنعام : ١٥١

(٥) المائدة : ١٠٤

(٤) النساء : ٦١

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّارُهُمْ... ﴾ (١).
 ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾ (٢).

هذه المواضع كلها التي ورد فيها فعل الأمر الذي تقدم : تَعَالَوْا أو تَعَالَيْنَ ليس المقصود بها الإقبال الحركي الانتقالى الحقيقى ، بل المراد كما يقول جاز الله الزمخشري :

« تَعَالَوْا : هلموا ، والمراد المجئ بالرأى والعزم ، كما تقول : تعال نفكر فى هذه المسألة » (٣).

وما قاله الزمخشري صالح لتفسير الفعل « تعالوا - تعالين » مما ذكرناه من الآيات ، ومن نظائرها التي لم نذكرها ، بينما كان المراد من « يا موسى أَقْبِلْ » هو الإقبال الحسى الحقيقى المتناول لحركة الجسم الناقلة له من مكان إلى مكان .

فليس الفعل « تعال » صالحاً للإحلال محل « أَقْبِلْ » لما بين دالتي الفعلين من تباين .

« ف » « أَقْبِلْ » مراد منها الإقبال الحقيقى الحسى ، و« تَعَالَ » المراد منها الإقبال المعنوى المجازى .

« و » « أَقْبِلْ » تكون خطاباً لمن هو فى حالة إدبار حسى متلبس به بالفعل و« تعال » ليست كذلك .

ولهذا - والله أعلم - قيل لموسى - عليه السلام - : « أَقْبِلْ » ولم يُقَلْ له : « تعال » .

(١) المنافقون : ٥ (٢) الأحزاب : ٢٨ (٣) الكشاف : (١/١٣٣) .

وقد ذكر صاحب « مفردات القرآن » أن الأصل في الفعل : تعال هو دعوة المخاطب إلى ما فيه رفعة شأنه (١) .

وهذا الكلام مع وجاهته وصلاحيته للتطبيق على ما ورد منه في القرآن ، فإن قول الرسول لأزواجه : ﴿ فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾ يتجافى مع ما ذكره الراغب ؛ لأن تطلق زوجات النبي منه - صلى الله عليه وسلم - ليس فيه رفعة لسانهن ، بل فيه انحطاط لو كان قد تم . ويمكن درجه تحت ما قاله الراغب إذا حملنا « فَتَعَالَيْنَ » على التهكم منهن لو اخترن الحياة الدنيا وزينتها ورغبة في مفارقة خاتم النبيين ، ونظيره في القرآن - على هذا الوجه - قوله تعالى :

﴿ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (٢) .

لأن البشارة تكون في الخير لا في الشر ، وعذاب الآخرة هو شر الشرور .

* *

● الفروق بين « أَقْبِلْ » و « ائْتِ » :

ما أكثر ما تصرف القرآن في مادة « ا ت ي » وما أكثر المعاني التي تواردت عليها ، ومع هذا ، فليس في المواضع التي أتت فيها هذه المادة لازمة ومتعدية ، موضع واحد مثل الموضع الذي نُودِيَ فيه موسى - عليه السلام - بالإقبال بعد الإدبار الذي كان مُتَلَبِّسًا به ، ولو كان في مواضعها واحد من هذا القبيل لجاء « أَقْبِلْ » بدلاً من « ائْتِ » هذه واحدة ...

أما الثانية : فإن « ائْتِ » جاءت في لغة القرآن بمعنى « اذهب » وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٣) .

فإن معنى « ائْتِ » هنا : اذهب إليهم ، بدليل قوله تعالى في المقام نفسه : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا * فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَا هُمْ تَدْمِيرًا ﴾ (٤) . ولهذين الاعتبارين ، وهما :

(١) مفردات القرآن : ١١ : ٣٤٦

(٢) التوبة : ٣٤

(٣) الشعراء : ١٠

(٤) الفرقان : ٣٥ ، ٣٦

* خلو مواضع « إِنْتِ » من مماثلة موضع « أَقْبِلْ » .
 * ومجئ « إِنْتِ » أحياناً متضمنة معنى اذهب ؛ لهذين الاعتبارين - والله أعلم - لم تصلح « إِنْتِ » للدلالة على معنى « أَقْبِلْ » وإن تشابه معنيهما من حيث الظاهر .

ولهذه الآية نظائر أخرى آثرنا تركها خشية الإطالة ، وفيما ذكر وفاء بالمراد من الفروق بين كلمتي : أَقْبِلْ وإِنْتِ .

* *

• الفروق بين « أَقْبِلْ » و « هَاؤُم » :

سبقت الإشارة إلى أن « هَاؤُم » من نظائر « أَقْبِلْ » ، ففى كل منهما طلب للإقبال ، ولكن القرآن الحكيم لم يؤثر على « أَقْبِلْ » أياً من نظائرها ، وقد تقدم الحديث عن الفروق بين « أَقْبِلْ » وكل من « تَعَالَ وَائْتِ » ، وهنا نخص هَاؤُم بكلمة سريعة نتبين من خلالها الفروق بين « أَقْبِلْ » وبينها .

وهاؤُم هذه من فرائد القرآن ، حيث لم تذكر فيه إلا مرة واحدة ، فى قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيهِ ﴾ (٢) .

ذكر بعض اللغويين أن « هَاؤُم » موضوعة لإجابة الداعى فى حالة الفرح والنشاط (٣) .

وهذا المعنى ، وإن حُكِيَ بصيغة التمرىض يتسق تماماً مع المقام الوحيد الذى ذكر فيه القرآن هذه الكلمة ، فإن فرح من يؤتى كتابه بيمينه يوم القيامة لا يعادله فرح ، ونشاطه وخفة نفسه ، وبهجة مشاعره ، ليس لها نظير ، لأنها السعادة الأبدية والفوز العظيم .

وبهذا يتضح أن ما يناظر فعل الأمر « أَقْبِلْ » خطاباً لموسى - عليه السلام - إنما هى مناظرة فى الإطار الدلالى العام مع وجود فروق بين هذه النظائر وغيرها ، لذلك يؤثر القرآن ما يلائم المقام ملائمة لا نظير لها فى أى كلام آخر .

(٢) لسان العرب : (٤٥٩٩/٦) - ط دار المعارف .

(١) الحاقة : ١٩

أصحاب - أولو

من الكلمات التى كثر ورودها فى لغة القرآن كلمتا : أصحاب ، وأولو ، وهما فى اللغة بمعنى واحد ، تقول : هم أصحاب الفضل ، وتقول : هم أولو الفضل ، فكلتاها مضافة إلى الفضل ، والفضل وصف معنوى يقوم بالموصوف باعتبارات معروفة ، كالكرم والسخاء ، والشجاعة والإقدام ، والعلم والمعرفة ، والسيرة الحميدة . . وكثيراً ما نسمع : فلان صاحب فضل أو صاحب مروءة ونجدة .

بيد أن لغة القرآن تفرّق بين الكلمتين فى الاستعمال ، تفرقة لا نعرفها إلا فى البيان القرآنى المعجز .

ومن المعروف أن كلمة « صاحب » وجمعها أصحاب تأتى مضافة كما تقدم ، وتأتى غير مضافة فى حالتى التعريف والتكثير والإفراد والتثنية والجمع . أما كلمة « أولو » ، فهى ملازمة للإضافة مثل : عِنْدَ ، وَلَدَى إذا تقرر هذا نقول :

إن تفرقة القرآن بينهما لُحِظَتْ من حيث إضافة كلٍ منهما إلى ما أُضيفَتْ إليه . فصاحب ، وصاحبان ، وأصحاب تضاف إلى غير ما تضاف إليه « أولو » ، و« أولو » تضاف إلى غير ما تضاف إليه كلمات صاحب وصاحبان وأصحاب ، وهذا مطرد فى جميع الأمثلة الواردة فى كتاب الله العزيز .

* *

● ما يضاف إليه صاحب وصاحبان وأصحاب :

تتبعنا مواضع ورود هذه الكلمات فى حالة الإضافة فوجدنا المضاف إليه فيها أمراً منفصلاً - فى الأصل - عن المضاف ، فالمضاف شىء والمضاف إليه شىء آخر .

● الأمثلة (١) :

- ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ، وَلَا تُكِنُّ كَصَاحِبِ الْهَوْتِ ﴾ (٢) .
 ﴿ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ ﴾ (٣) .
 ﴿ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ﴾ (٤) .
 ﴿ يَا صَاحِبِي السَّجْنِ أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ (٥) .
 ﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ ﴾ (٦) .
 ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ ﴾ (٧) .
 ﴿ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴾ (٨) .
 ﴿ وَأَصْحَابُ الشُّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشُّمَالِ ﴾ (٩) .
 ﴿ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ ﴾ (١٠) .
 ﴿ قَتَلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴾ (١١) .

فى هذه الآيات العشر جاءت كلمة صاحب ومثناها وجمعها مضافة إلى الأسماء الظاهرة مثل : صاحب الحوت - صاحبي السجن - أصحاب النار - أصحاب الجنة - أصحاب السفينة - أصحاب اليمين - أصحاب الشمال - أصحاب السبت - أصحاب الأخدود .

ثم إلى الضمائر ، مثل : صاحبه - صاحبكم .

كما اختلف المضاف إليه فى المعنى بين ذات بشرية أو جمادية وبين المكان ، أو الجهة ، ثم الزمان .

(١) نظراً لكثرة الأمثلة سنكتفى بذكر بعض منها للتدليل على صحة ما نقول .

(٢) القلم : ٤٨	(٣) الكهف : ٣٧	(٤) التكويد : ٢٢
(٥) يوسف : ٣٩	(٦) الأعراف : ٥٠	(٧) العنكبوت : ١٥
(٨) الواقعة : ٢٧	(٩) الواقعة : ٤١	(١٠) النساء : ٤٧
(١١) البروج : ٤		

وفى كل هذه الآيات كان المضاف إليه مبايناً للمضاف وله وجود مستقل عن المضاف ، وكذلك المضاف له وجود مستقل عن المضاف إليه ، فأهل الجنة ليسوا هم الجنة ، والجنة ليست هى أصحابها ، وهكذا كل الأمثلة التى وردت فى القرآن فى حالة الإضافة ، تجد « صاحب وصاحبان » وأصحاب مضافة فيها إلى شىء آخر يصح فصل كل منهما عن الآخر ، وأن كلا منهما - أعنى المضاف والمضاف إليه - كان منفصلاً عن الآخر قبل الإضافة .

هذه الملاحظة مطردة فى جميع الأمثلة سواء ما ذكرناه منها وما لم نذكره ، لم يشذ منها مثال واحد .

● ما تضاف إليه « أولو » :

أشرنا من قبل أن ما تضاف إليه « أولو » فى القرآن يختلف اختلافاً بيناً عما تضاف إليه كلمات : « صاحب وصاحبان وأصحاب » ، وقد عرفنا من خلال الأمثلة الآتية الذكر ما تضاف إليه صاحب ومثناها وجمعها ، ونريد الآن أن نبين ما تضاف إليه « أولو » فى لغة القرآن الحكيم :

● الأمثلة :

- ﴿ ... وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ (١) .
- ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ .. ﴾ (٢) .
- ﴿ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ ﴾ (٣) .
- ﴿ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ .. ﴾ (٤) .
- ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى ﴾ (٥) .
- ﴿ .. أُولَىٰ بِأَسَى شَدِيدٍ ﴾ (٦) .

(١) البقرة : ٢٦٩ (٢) آل عمران : ١٨ (٣) النساء : ٨
(٤) الانفال : ٧٥ (٥) النور : ٢٢ (٦) الإسراء : ٥

﴿ .. وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجْلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ (١) .

﴿ وَإِنْ كُنَّ أُولَاتٍ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ (٢) .

هذه الآيات الحكيميات وردت فيها كلمة « أولو » مضافة إلى ما بعدها مباشرة ، وإذا دققنا النظر فيما أضيفت إليه « أولو » خرجنا بحقيقتين بارزتين :
أولاهما : أن ما أضيفت إليه « أولو » مختلف تمامًا عما سبق أن أضيفت إليه « أصحاب » ومفردها ومثنأها .

وثانيتها : أن القرآن لم يُضِفْ « أولو » إلا إلى ما هو من الخصائص الذاتية غير المفصولة عن المضاف أو بعبارة أخرى :

أن القرآن الحكيم لم يَضِفْ « أولو » إلا إلى ما هو جزء من المضاف أو كالجُزء مع استحالة فصل المضاف إليه عن المضاف في الواقع المحسوس ؛ لأنه ليس له وجود مستقل .

● توضيح :

تأمل - مثلاً - الآية الأولى مما استشهدنا به ، وهي قوله تعالى :
﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ ، فالمضاف هو ﴿ أولو ﴾ ، والمضاف إليه هو : ﴿ الْأَلْبَابِ ﴾ ، والألباب جمع لب ، واللب هو العقل الذكي (٣) ، والعقل لا يمكن فصله وعزله عن العاقل ، فهو ممتزج به امتزاج اللون بالبشرة .

وكذلك « العلم » الذي أضيفت إليه « أولو » في الآية الثانية ، هو خاصة ذاتية من خواص « العالم » ، وهيئة راسخة فيه .

وهذا ينطبق على كل ما أضيفت « أولو » في القرآن ، وإذا تأملنا بقية

(٢) الطلاق : ٦

(١) الطلاق : ٤

(٣) المفردات : (٤٤٦) ، والمصباح المنير (٥٤٦) .

الأمثلة المذكورة ، وغير المذكورة ، وجدناها كذلك ، أما ما هو كالجُزء من المضاف ، فقد وجدنا في القرآن آيتين شاهديتين عليه ، وهما :

قوله تعالى : ﴿ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجْلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ كُنَّ أُولَاتٍ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ ، لأن الجنين المستكن في الرحم في أثناء الحمل ، ليس له وجود مستقل خارج الرحم ، ونحن حين نرى « الحامل » لا نرى شخصين بل نرى شخصاً واحداً. فالجنين في هذه الحالة كالجُزء من أمه لذلك أضاف القرآن « أولات » إلى الحمل .

* *

● شبهة مدفوعة :

قد يقول قائل : إن في القرآن آية خولف فيها المنهج الذي ذكرناه ، وهي قوله تعالى :

﴿ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِيَ النَّعْمَةِ .. ﴾ (١) .

لأن « أولى » اُضيفت فيها إلى « النعمة » ، والنعمة يمكن فصلها عن صاحبها ، كان يُسرق كل ما يملك ، وهي - أى النعمة - لها وجود مستقل خارج صاحبها ، ومعنى هذا أن القاعدة المذكورة غير مطردة في إضافة « أولوا » إلى ما تضاف إليه في القرآن ؟

والجواب :

ليس هذا بقادح في صحة القاعدة ، واطرادها ، لأن اللغة تفرق بين : النعمة بفتح النون المشددة ، وبين : النعمة بكسر النون المشددة كذلك .

فالنعمة المكسورة النون هي ما أنعم الله به على مَنْ شاء من عباده من حطام

(١) الزمل : ١١

الدنيا كالنقود ، والدُّور ، وسائر الممتلكات المفصولة عن مالِكها ، وهذه ليست جزءاً من المضاف ولا كالجُزء ، وهى مفصولة فعلاً عن صاحبها حال تملكه إياها .

أما النَّعْمة المفتوحة النون ، فهى فى اللغة : التَّنْعَم والتلذذ بالنعمة (١) .

والتنعم والتلذذ صفتان ذاتيتان للمُنْعَم عليه ، وشعور نفسى بالسعادة ليس منفصلاً عن المضاف « أولوا » وليس له وجود مستقل خارج ذاته ، فهما : التَّنْعَم والتلذذ كاللون لا يمكن فَصْلُهُ عن « الملون » ، وليس له وجود مستقل عما قام به ذلك اللون .

ومجئ « أولى » فى هذه الآية مضافة إلى النعمة المفتوحة النون ، لا المكسورة لاطراد ما تضاف إليه « أولوا » دليل على أن « أولوا » لا تضاف إلا لما هو جزء من المضاف ، أو كالجُزء ، ودليل فى الوقت نفسه على حرص القرآن الشديد فى انتقاء ألفاظه وصحة معانيه ، ودليل على أن القرآن يستعمل اللغة استعمالاً أمثل لا نظير له خارجه ، ولا مضارع ، وهذا هو الإعجاز اللغوى البيانى فى أجلى صورته ، وأشمل مجالاته .

* *

● منهج القرآن فى إضافة « أصحاب » و« أولوا » :

فى الأسطر الآتية نوجز بيان المنهج القرآنى فى إضافة « أصحاب » ، و« أولوا » ، وإن مرَّ الحديث عنه مفرقاً فيما مضى :

أولاً : يفرق القرآن تفرقة دقيقة بين ما تضاف إليه « أصحاب » ومفردها ومثناها ، وبين ما تضاف إليه « أولوا » فى جميع حالات إعرابها رفعاً ، ونصباً ، وجراً .

(١) المفردات : (٤٩٩) ، تفسير النسفى : (٣٠٤/٤) .

ثانيًا : لم يُضِفَ القرآن « أصحاب وصاحبان وصاحب » ، إلا إلى ما يصح فصله عنها مما له وجود خارجي مستقل كالزمان والمكان ، وبعض الأجسام الحيوانية والجمادية كالسبت ، والجنة ، والنار ، والحوت ، والسفينة .

ثالثًا : أما « أولوا » فلا تضاف إلا إلى ما هو جزء من المضاف أو كالجزء ، بما ليس له وجود مستقل خارج المضاف .

رابعًا : إن طرء العلاقة بين « صاحب وصاحبان وأصحاب » وأصالة العلاقة بين « أولوا » ، وبين ما تضاف إليه كل منهما هما اللذان - أعني طرء العلاقة وأصالتها - خصصا كلاً منهما بما أضيفت إليه .

هذا هو القرآن الذي أنزل بعلم الله .

* * *

الكَرْهُ - الْكُرْهُ

الكَرْهُ بفتح الكاف ، والكَرْهُ بضم الكاف مصدران للفعل الثلاثي كَرِهَ وَكَرِهَ ، هكذا تقول المعاجم اللغوية ، وهل هما بمعنى واحد أم لكل منهما معنى ؟ اللغويون مختلفون فى هذا ، ولكننا إذا رجعنا إلى لغة القرآن ، وقد ورد فيها كَرِهَ وَكَرِهَ ظفرنا بحسم الخلاف حول معنى هاتين الكلمتين ، ولنذكر أولاً مواضع ورود كلٍ من : كَرِهَ وَكَرِهَ ، وهى :

● الأمثلة :

أولاً « كَرِهَ » بفتح الكاف :

- ﴿ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا .. ﴾ (١)
- ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا ﴾ (٢)
- ﴿ قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ﴾ (٣)
- ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾ (٤)
- ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ (٥)

● ثانياً : كُرِهَ بضم الكاف :

- ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ ﴾ (٦)
- ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا ، حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ﴾ (٧)

* *

(٣) التوبة : ٥٣

(٢) النساء : ١٩

(١) آل عمران : ٨٣

(٦) البقرة : ٢١٦

(٥) فصلت : ١١

(٤) الرعد : ١٥

(٧) الأحقاف : ١٥

• منهج القرآن فى استعمال كلمتى « كره وكُره » :

أولاً : أن « كره » المفتوحة الكاف التزم القرآن استعمالها فى القهر النفسى ، وفقد الإرادة عند مَنْ قام به الحدث ، بدليل قاطع من القرآن نفسه حيث قابل بين « الطوع » ، وهو عمل اختيارى ، وبين « الكره » وهو عمل قهرى يخضع له المَكْرَه وهو مجبور عليه .

وهذا ظاهر فى كل الأمثلة المتقدم ذكرها ، فالمرأة التى يرثها زوجها كَرَهَا مقهورة وغير راضية بهذا الظلم .

ثانياً : أما كُرْهُ المضمومة الكاف فإن القرآن يستعملها دائماً - كما ورد فى الصور الثلاث فى آتى البقرة والأحقاف - فى المشقة البالغة الجامعة بين المعاناة النفسية والجسمية ، فالمقاتل يبذل جَهْدًا شاقًا فى ميدان القتال ، وهذا الجهد يعكس على النفس هموماً وقلقاً .

وكذلك الحامل ، فإنها تمر بآلام جسمية قاسية فى أثناء الحمل ، وتضعف صحتها وتشعر بالإعياء الشاق .

ثم تتعرض للآلام الموجعة وقت الوضع ، وتحدث لها مضايقات نفسية لا تستطيع دفعها .

والفرق بين معنى كره وكُره كما يدل عليه الاستعمال القرآنى أن « كره » يستعمل فى مقام الدلالة على المعاناة النفسية أما « كُرْهُ » فللدلالة على المعاناة الجسمية والنفسية معاً .

ومضاعفة المعنى فى المضموم تناسب « الضم » وخفته فى المفتوح تناسب « الفتح » لأن الفتح أخف من الضم ، ولهذا - فى اللغة - نظائر كخبر وخبرٌ ، والفرق بينهما أن الخبر بضم الخاء حصول المعرفة عن ممارسة ومشاهدة والخبر حصول المعرفة سماعاً .

أو الخُبْر : العلم ببواطن الأمور (١) .

ومنه فَهْمٌ وَفَهْمٌ ، يقال : فَهَّمَ الرجل أى صار الفهم ملكة راسخة عنده ،
بخلاف فَهْمٍ الصادقة على حصول الفهم ، وإن كان يسيراً لا رسوخ فيه .

* *

● الإكراه :

أما الإكراه الوارد فى قوله تعالى : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ۚ ۞ ﴾ (٢) .

فهو مصدر الفعل الرباعى : « أكره » والفرق بين معناه وبين معنى كره وكُره
أن الإكراه فعل المُكْرِه ، والكره والكره فعلا المُكْرَه ، الأول اسم فاعل ،
والثانى اسم مفعول .

وصفوة القول : أن استعمال القرآن « الكره » فى المعاناة النفسية ،
و« الكُره » فى المعاناة الجسمية والنفسية معاً ، دليل على نفى التَّرادُف بين
الكلمتين ، فليس هما كالضَّعْف والضُّعْف كما قال بعض اللغويين (٣) .

* * *

(٣) المفردات : ١٤٣

(٢) البقرة : ٢٥٦

(١) المفردات : ١٤٤

النَّصْر - الظَّفَر

فى القرآن الحكيم كلمات فرائد ، لم ترد فيه إلا مرة واحدة ، ومن هذه الكلمات ما تنتمى إلى فصيلة لغوية تشترك - هى - معها فى المعنى المدلول عليه بصيغة من صيغ تلك الفصيلة : ويشيع استعمالها فيه بكثرة لافتة للنظر ، مع بقاء تلك « الفريدة » وحيدة فيه ، يستعملها القرآن مرة واحدة ، ثم يودعها إلى الأبد .

ومن هذه « الفرائد القرآنية » الفعل الماضى « أظفركم » من « الظفر » بمعنى « النَّصْر » أى : نصركم . لم ترد فى القرآن إلا مرة واحدة فى سورة «الفتح» مع أن ورود كلمة « النصر » ومشتقاتها شاع فى القرآن فى صيغه « الصرفية » شيوعاً مستفيضاً :

فعل ماض ، فعل مضارع ، فعل أمر ، اسم فاعل ، اسم مفعول ، صفة مشبهة باسم الفاعل ، مصدر ، مفعول مطلق .

أليس هذا مدعاة للتساؤل : لماذا ورد النصر بهذه الكثرة ؟ ولماذا لم يُذكر الظَّفَر إلا مرة واحدة ؟

ولو كان هذا ورد فى غير القرآن لما حرك لنا ساكنًا ، لكن وروده فى القرآن « المعجز » يجعلنا « مغرمين » بمعرفة السر البلاغى وراء هذه السمة الأسلوبية اللافتة للنظر ، المنيرة للفكر ؛ لأن استعمال القرآن للغة جارٍ على نسقٍ معجز فى انتقاء المفردات ، وصلتها « الحميمة » بدقائق معانيها .

وسيراً مع المنهج الذى انتهجناه فى هذه الدراسة نمثل أولاً ثم ننظر ثانياً ، عسى الله أن يَمُنَّ علينا بفهم دقائق كتابه الكريم .

● التمثيل :

- ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ ، فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (١) .
- ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ، وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ... ﴾ (٢) .
- ﴿ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ ، إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ ؛ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ... ﴾ (٣) .
- ﴿ وَنَصَرْنَاهُمْ ، فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴾ (٤) .
- ﴿ ... وَالَّذِينَ آوَا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ (٥) .
- ﴿ وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ، إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ (٦) .
- ﴿ إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ، وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ ، وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ (٧) .
- ﴿ يَنْصُرُ اللَّهُ ، يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ (٨) .
- ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ (٩) .

- ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ ﴾ (١٠) .
- ﴿ وَثَبَّتْ أَقْدَامَنَا وَانصَرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ (١١) .
- ﴿ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴾ (١٢) .
- ﴿ وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴾ (١٣) .

(١) آل عمران : ١٢٣	(٢) التوبة : ٢٥	(٣) التوبة : ٤٠
(٤) الصافات : ١١٦	(٥) الأنفال : ٧٢	(٦) الحج : ٤٠
(٧) آل عمران : ١٦٠	(٨) الروم : ٥	(٩) غافر : ٥١
(١٠) القمر : ١٠	(١١) البقرة : ٢٥٠	(١٢) المؤمنون : ٢٦
(١٣) الفتح : ٣		

- ﴿ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴾ (١) .
 ﴿ فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا ﴾ (٢) .
 ﴿ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾ (٣) .
 ﴿ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾ (٤) .
 ﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ ، مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ (٥) .

هذه مثلٌ مختارة بغير اختيار من الآيات التي ورد فيها « النصر » بصورة الصرفية المختلفة ، وبقيت آيات أخرى يضيق المقام عن ذكرها هنا . وقد أحصينا المرات التي ورد فيها في آي الكتاب العزيز فوجدناها أربعاً وأربعين ومائة مرة ، ما بين فعل ومصدر واسم وصفة .

هذه المرات يقابلها مرة واحدة « فريدة » ورد فيها « الظفر » في القرآن الحكيم في صورة الفعل الماضي المعدى بالهمزة : ﴿ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ فلماذا تلك الكثرة في « النصر » والنذرة في « الظفر » في لغة القرآن الحكيم .

محال أن يكون هذا صنْعاً « عشوائياً » ، أو « مجرد اتفاق » ، فالله حكيم في أفعاله ، حكيم في أقواله .

أليس هو الذي وصف كتابه ، فقال :

- ﴿ ... كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ (٦) .

عبر القرآن بـ « النصر » عن مواقف كثيرة ظهر فيها المؤمنون على عدوهم ،

(٣) آل عمران : ٢٢

(٢) الإسراء : ٣٣

(١) محمد : ١٣

(٦) هود : ١

(٥) الفتح : ٢٤

(٤) الأنفال : ٤٠

وعن تأييد الله للمؤمنين بالغلب والفوز ضد الخصوم ، وفى المعارك التى خاضها المسلمون فى عصر النبوة ، وفى غزوة بدر الكبرى قال سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ يُبَدِّرُ ﴾ .

وفى حنين وغيرها من الغزوات قال :

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ، وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ﴾ ، وفى ظهور الإسلام على كافة شبه الجزيرة عقب فتح مكة ، قال : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ ، إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ (١) .

فالنصر فى القرآن وصف عام لكل غلب يحققه أنصار الحق على أعداء الله وأعدائهم .

* *

● إلا فتح مكة المكرمة :

نعم ، إلا فتح مكة المكرمة ، فقد وصفه الله بـ « الإظفار » الذى هو مصدر ﴿ أَظْفَرَكُمُ عَلَيْهِمْ ﴾ فى آية الفتح (٢٤) مع أن فتح مكة من أكبر وقائع « النصر » الذى كلل الله به الجهاد الإسلامى النبوى قبيل وفاة الرسول ﷺ بقليل : هو نصر عظيم حقًا ، ومع هذا قال الله فيه : ﴿ أَظْفَرَكُمُ عَلَيْهِمْ ﴾ ، ولم يقل : نصركم ، ولو قيل لكان صوابًا .

لكن خاصية دقيقة فى « الظفر » يخلو منها « النصر » هى التى رشّحت « الظفر » ليكون أداة « التعبير » الوحيدة عما أيد الله به رسوله والمؤمنين يوم الفتح المبين : فتح مكة المكرمة ، ومن المعلوم أن فتح مكة ، ودخول النبى وصحبه ربوعها وتطهيرهم البيت الحرام وطوافهم به ، كل ذلك تم بلا إراقة

(١) سورة النصر .

دماء ، ولا شهر سلاح ، ولا أدنى مقاومة واجههم بها أهل مكة الذين كانوا عقبة كؤوداً فى طريق الدعوة من أول يوم أعلنت فيه ، كان فتح مكة - إذا - هى الغنيمة الباردة التى قذف الله بها فى أيدي المؤمنين . أنه غلب عظيم تم بدون قتال يذكر ، وفرح المؤمنون بنصر الله ، ينصر من يشاء ، وهو العزيز الرحيم .

فتح مكة كان : نصراً مع سهولة ويسر ، لا نتيجة ضرب وطعان ، فهو أكثر من « النصر » لما صاحبه من تيسيرات وحقق دماء .

وهذا النصر « الخاص » لا يصلح للتعبير عنه إلا الظفر ، لماذا ؟

لأن العرب كانوا يخصصون الظفر بالفوز والغلب الذى يتم بسهولة ويسر ، والقرآن بلغة العرب نزل ، وعلى طرائقهم فى البيان صاغ بيانه .

والظفر كما نص اللغويون وغيرهم مشتق من : نَشَبَ الأظفار . ونشب الأظافر أيسر وسيلة إذا حصل به المطلوب .

وسر تعدية « الظفر » بالهمزة ولم يقل : « من بعد أن ظفرتهم » لأن الله هو الذى مَنَّ عليهم بالغلب لا أنهم هم الذين حققوا ذلك الغلب .

إنهم صحَّ منهم العزم على القتال إذا اضطُرُّوا إليه ، فلما لم يقاتلوا لعدم احتياجهم إلى القتال بتيسير الله الغلب لهم كان هو الذى أظفرهم بكف أيدي الأعداء عنهم ، فكفوا أيديهم عن الأعداء لما رأوا الغلب قد تحقق بأمر الله ، إن معنى الغلب الذى حدث عام الفتح أدق من معنى النصر الذى - غالباً - يكون بالقتال .

لذلك - والله أعلم - توارت كلمة « نصركم » فى هذا المقام ، وبرزت كلمة « أظفركم » للوفاء بالمعنى حق الوفاء ، وهكذا القرآن كله : إحكام وإعجاز ، وكل لفظة فيه متمكنة فى موضعها لا يسد غيرها مسدّها ، ولو

أدرنا اللغة من ألفها إلى يائها كما قال العلامة ابن عطية - رحمه الله رحمة واسعة

* *

● منهج القرآن في « النصر » و« الظفر » :

لا أرانا بعد الذى تقدم عن « النصر » ، و« الظفر » أننا فى حاجة إلى بيان منهج القرآن فيها ، ولكن لكى يكون منهجنا فى هذه الدراسة مطرداً ؛ نعيد ما قلناه فى إيجاز :

أولاً : النصر ومشتقاته كثير الورد فى القرآن بصيغ صرفية متعددة ، أما « الظفر » ، فهو من « فرائد » القرآن حيث لم يرد فيه إلا مرة واحدة ، فى صورة الفعل الماضى المعدى بالهمزة « أظفركم » .

ثانياً : يأتى « النصر » فى القرآن وصفاً عاماً لكل غلب ، أو فور حققه المؤمنون فى ظل الرسالات السماوية ، أما « الظفر » ، فهو مقصور على « الغلب » الذى يحدث بدون قتال يذكر بين المؤمنين وعدوهم .

ثالثاً : إن بين « النصر » و« الظفر » فى استعمال لغة القرآن لهما عمومًا وخصوصًا ، فكل « ظفر » نصر . وليس كل نصر ظفراً .

رابعاً : إن معنى « الظفر » ملحوظ فيه المعنى اللغوى ، الذى هو : « نشب الأظافر » فى الفريسة ، وهو أيسر وسيلة فى الحصول على المطلوب .

* * *

قليل - كثير

وردت هاتان الكلمتان « قليل - كثير » في لغة القرآن وروداً مستفيضاً ، وتواردت عليهما جميع حالات الإعراب ، من الرفع والنصب والجر ، وهما ملازمان في لغة القرآن للأفراد والتكثير ، ويستثنى من الأفراد صورة واحدة جاءت فيها « قليل » مجموعة جمع مذكر سالماً ، أما التكثير فقد عم كل مواضعهما ، فلم تأت فيه أى من الكلمتين معرفة قط . أما قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ ﴾ فلا يقدح فيما ذهبنا إليه ؛ لأننا نتعرض هنا لـ « قليل » ، و « كثير » لا للقلة والكثرة .

وهدفنا - هنا - من دراسة هاتين الكلمتين : « قليل - كثير » في الاستعمال اللغوى القرآنى هو معرفة منهج القرآن فيهما ، ثم محاولة فهم السر فى نظام هذا المنهج ، ولنبدأ بذكر أمثلة لـ « قليل » أولاً .

● الأمثلة :

- ﴿ .. قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ .. ﴾ (١)
- ﴿ واذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ .. ﴾ (٢)
- ﴿ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴾ (٣)
- ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ (٤)
- ﴿ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ ، قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ (٥)
- ﴿ فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سَبِيلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ ﴾ (٦)

(٣) المؤمنون : ٤٠

(٢) الأنفال : ٢٦

(١) النساء : ٧٧

(٦) يوسف : ٤٧

(٥) الأعراف : ١٠

(٤) البقرة : ٤١

﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا ﴾ (١) .

﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴾ (٢) .

فى الآيات السابقة جاءت « قليل » ملازمة للتذكير والإفراد إلا فى آية الشعراء ، فقد جاءت مجموعة جمع مذكر سالماً ، « قليلون » كما جاءت فى جميع الأمثلة من كلام الله المباشر ، إلا فى آية الشعراء فكانت من كلام الله المحكى عن « فرعون » .

كما جاءت مجرة عن العقلاء فى مثل : ﴿ إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ ﴾ ، ومجرة على غير العقلاء كالمقادير فى قوله تعالى : ﴿ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴾ وهى محكية عن يوسف - عليه السلام - .

ومجرة على غير المقادير كالسلوكيات فى قوله تعالى :

﴿ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾

ومجرة على الزمن كما فى قوله تعالى : ﴿ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴾ .

وللزومها الإفراد والتذكير ملحظ بيانى دقيق سنعرض له فميا بعد ، كما سنعرض لمجيئها جمعاً فى آية الشعراء المحكية عن فرعون لعنه الله ، والذى نوصى به القارئ أن يكون على ذكر من مجيئها مفردة منكرة .

● أمثلة كثير :

مجئ « كثير » فى لغة القرآن ملازم للإفراد والتذكير ملازمة تامة ، ومواضع ورودها أكثر من مواضع ورود « قليل » ؛ لأن دواعى استعمالها فى القرآن أكثر من دواعى استعمال « قليل » ، وهذا من لطائف القرآن الحكيم ، لصدق القلة والكثرة على « قليل » و « كثير » الواردين فيه .

أما الأمثلة فهي :

- ﴿ يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا ۖ ۞ ﴾ (١) .
﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا ۞ ﴾ (٢) .
﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ ۖ ۞ ﴾ (٣) .
﴿ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۖ ۞ ﴾ (٤) .
﴿ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ۖ ۞ ﴾ (٥) .
﴿ وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادِهِمُ شُرَكَاءُهُمْ ۖ ۞ ﴾ (٦) .
﴿ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ۖ ۞ ﴾ (٧) .
﴿ كَىٰ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ۖ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ۖ ۞ ﴾ (٨) .

نكتفى بهذا القدر من التمثيل لورود كلمتي « قليل » ، و « كثير » في القرآن الحكيم ، فليس هدفنا استقصاء كل مواضعهما ، وإنما أردنا أن ندعم ما لحظناه على منهج لغة القرآن في استعمالهما ببعض الأمثلة ، والذي لحظناه - كما تقدم - هو لزوم الكلمتين للإفراد إلا في موضع واحد ، ثم للتنكير في جميع المواضع .

* *

● لماذا التزام التنكير ؟ :

بعض المواضع التي استعملت فيها « قليل » ، و « كثير » اقتضى المقام فيهما التنكير لمجيئتهما وصفًا لنكرة ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ ۞ ﴾

(١) البقرة : ٢٦	(٢) البقرة : ١٠٩	(٣) آل عمران : ١٤٦
(٤) المائدة : ٧١	(٥) الشورى : ٣٠	(٦) الأنعام : ١٣٧
(٧) الإسراء : ٧٠	(٨) طه : ٣٣ ، ٣٤	

وقوله تعالى : ﴿ قَاتِلْ مَعَهُ رَبِّيُونَ كَثِيرٌ ﴾ (١)
أو خبراً عن نكرة ، كقوله تعالى : ﴿ مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٢) .
فقد جاءت « قليل » ، وصفاً لنكرة ، ثم خبراً عن نكرة ، وجاءت « كثير »
وصفاً لنكرة كذلك ، وبعضها ، وهو الغالب ، جاء نكرة ابتداء مع جواز
التعريف فيه لغة ، وذلك كقوله تعالى :
﴿ يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا ، وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا ﴾
وكقوله تعالى : ﴿ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ﴾ (٣) .
وقوله : ﴿ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ (٤) .
والتنكير - هنا - أبلغ من التعريف وأفخم معنى ، فمثلاً قوله تعالى :
﴿ يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا ، وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا ﴾ ليس المراد بـ « كثيرًا » فيه قومًا
بأعيانهم ، بل المراد كثرة عامة تتناول طوائف من الناس لا يخلو منهم زمان
ولا مكان ، والتنكير هو الأبلغ في الدلالة على العموم .

* *

● ولماذا التزام الإفراد ؟ :

القلة والكثرة نوعان :

* قلة وكثرة منظور فيهما إلى حقيقة الأعداد في الواقع .
* وقلة وكثرة منظور فيهما إلى المعاني النسبية الإضافية ، فالواحد والاثنان
والثلاثة - مثلاً - قلة منظور فيها إلى كمية الأعداد في الواقع ، والنحاة
يحصرون هذه القلة فيما دون العشرة ، وهي قلة حقيقية .
والمئة والمئتان ، والألف والألفان كثرة حقيقية منظور فيها إلى كمية الأعداد
في الواقع .

(٢) النحل : ١١٧

(٤) الكهف : ٢٢

(١) آل عمران : ١٤٦

(٣) سورة ص : ٢٤

وليس هذا بمراد - والله أعلم - من « قليل » ، و « كثير » فى لغة القرآن الحكيم ، بل المراد المعانى النسبية الإضافية لكل من « قليل » ، و « كثير » والمعانى النسبية الإضافية - هنا - تتحقق بالمناظرة بين كميتين عدديتين قابلتين للوصف بالقلة والكثرة على سبيل التبادل لا اللزوم ، فالمائة - مثلاً - « قليل » إذا نوظرت بـ « الألف » ، و « الألف » - « كثير » - إذا نوظر بالمئة ، ثم إن « الألف » هذا « قليل » إذا نوظر بـ « المليون » ، و « المليون » كثير إذا نوظر بالألف ، وهكذا .

وهذا هو المراد من القلة والكثرة فى لغة القرآن ، فمثلاً قوله تعالى :
﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ (١) .

ليس معناه « القلة العددية » ، فما أكثر الشاكرين فى كل زمان ومكان ، تكتظ بهم دور العبادة ، وتضيق بهم الأماكن المقدسة فى الحج والعمرة ، فهم « كثير » من حيث العدد ، ولكنهم « قليل » إذا نوظروا بغير الشاكرين من الناس .

وهذه المعانى النسبية الإضافية الأبلغ فى التعبير عنها هو الأفراد لا الجمع ، فلو قيل مكان « قليل » قليلون ومكان « كثير » كثيرون لا نصرف الوصف فيهما إلى واقعية العدد ، وهم الأشخاص المعدودون ؛ لأن « قليلون » و « كثيرون » جمعان للعقلاء ، أما « قليل » ، و « كثير » وإن كان معنيهما ملحوظاً فيهما معنى الجمع . فإنهما مفردان أريد منهما القلة والكثرة النسبيتان الإضافيتان ، فما أبلغ هذا البيان المعجز للإنس والجن ، وكل من عدا الله .

❖ ❖

● ولماذا « قليلون » فى الشعراء ؟ :

مجئ « قليلون » هكذا مجموعة ، مرة واحدة من عشرات المرات ، دليل

(١) سبأ : ١٣

تلو دليل على العناية الفائقة في انتقاء كلمات القرآن حتى في « الهيئة اللفظية »
ودليل لا يدفع على أن مجئ « قليلون » في هذا الموضع له خاصة دلالية فريدة ،
ولمحة بيانية دقيقة لم يف بها سواه من الألفاظ المناظرة له ، حيث لم يقل :
« قليل » ، ولا « أقل » .

وقد أطلنا النظر فيها ، والتفكير حولها ، وما نحن نسجل ما هدينا إليه من
دواعي استعماله بلاغياً في هذا المقام :

أولاً : إنها وقعت وصفاً مباشراً لما فيه معنى الجمع ، وهو « شرذمة »
والشرذمة هي الجماعة المنقطعة (١) .

وهذا منطبق تماماً على بني إسرائيل حين كانوا بمصر : جماعة غريبة معزولة
عن أهل البلاد ، و« قليلون » فيه مطابقة بين الوصف والموصوف ،
ف« شرذمة » جمع في المعنى ، و« قليلون » جمع لفظاً ومعنى .

ثانياً : إن المراد من « قليلون » هنا القلة العددية وليس معنى نسبياً إضافياً
على سبيل التبادل ، فأهل البلاد كانوا أضعاف بني إسرائيل ، فهم كثرة
حقيقية ، وبني إسرائيل قلة حقيقية ، وهما - أعنى القلة والكثرة - هنا وصفان
لازمان لمن وصف بهما في ذلك الوقت .

ثالثاً : كما يفيد الجمع « قليلون » تهويل شأن تلك القلة بدليل ما حكاه
القرآن عن فرعون لعنه الله من وصف تلك القلة في قوله تعالى :
﴿ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ * وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ﴾ (٢) .

رابعاً : إن في « قليلون » هنا توافقاً لرؤوس الآي (الفواصل) ، فقبلها
كانت فواصل الآي :

﴿ قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ * إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا

(١) المفردات : (٢٥٩) .

(٢) الشعراء : ٥٥ ، ٥٦ .

أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ * وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَن أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُّتَّبِعُونَ *
فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿١﴾ .

وبعدها : ﴿ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴾ * وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ﴿

وتوافق رءوس الآى سمة من سمات إعجاز الإيقاع الصوتى فى لغة القرآن ،
وهذا ما أسفرت عنه بعض الدراسات القرآنية الحديثة (٢) .

من أجل هذه « الأبلغيات الثلاث » كانت « قليلون » هنا فى موضعها
الفريد فى القرآن كله .

* * *

● منهج القرآن فى « قليل » و « كثير » :

أولاً : التزم القرآن فيهما الأفراد إلا فى موضع واحد ثم التنكير فى جميع
المواضع .

ثانياً : لم تأت واحدة منهما مجموعة فى كلام الله المباشر (غير المحكى) ،
ولا مرة واحدة .

ثالثاً : المراد بالقلة والكثرة ، فيهما المعانى النسبية الإضافية .

وليس واقعية الأعداد فى أنفسها .

رابعاً : الموضع الذى جاءت فيه « قليلون » جَمْعًا أفاد ثلاث لمحات
بلاغية ، وهى : مطابقة الموصوف ، والتهويل ، ثم الانسجام الصوتى الذى
هو وجه من وجوه الإعجاز .

* * *

(١) الشعراء : ٥٠ - ٥٣

(٢) النبأ العظيم (٩٢) وما بعدها محمد عبد الله دراز .

الريّح - الريّاح

وردت الريح مفردة ومجموعة فى لغة القرآن العظيم ، ومنكرة ومعرفة ، والإفراد والجمع ، والتعريف والتكثير طرق من طرائق اللغة بوجه عام ، ومن طرائق البيان القرآنى المعجز بوجه خاص ، والكلمة القرآنية تخضع لاعتبارات دقيقة ، وتؤدى معانى محكمة هى البلاغة فى أعلى مستوياتها .

وكعادتنا نقدم أولاً الأمثلة ، ثم ننظر فيها للوقوف على المنهج القرآنى فى استعمالها الأمثل :

● أمثلة الإفراد :

- ﴿ مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرَاصَاتٌ حَرَّتْ قَوْمَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ .. ﴾ (١)
- ﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ .. ﴾ (٢)
- ﴿ أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ .. ﴾ (٣)
- ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ .. ﴾ (٤)
- ﴿ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ (٥)

(٣) الإسراء : ٦٩

(٢) يونس : ٢٢

(١) آل عمران : ١١٧

(٥) الحج : ٣١

(٤) الأنبياء : ٨١

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ، أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ، لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ . . . ﴾ (١) .
 ﴿ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ ، رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٢) .
 ﴿ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴾ (٣) .
 ﴿ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا ﴾ (٤) .
 ﴿ إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ ﴾ (٥) .

فى الآيات العشر السابقة وردت الريح فى حالة الإفراد والتعريف والتنكير إحدى عشرة مرة ، اثنتين فى آية يونس (٢٢) ، وتسعاً فى الآيات التالية لها .

وكان ورودها موزعاً على خمسة مقامات :

الأول : المدح ، كما فى قوله تعالى فى آية يونس (٢٢) :

﴿ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ ﴾ .

الثانى : الذم المقترن بالشر ، كما فى قوله تعالى فى آية الإسراء (٦٩) :

﴿ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ﴾ .

الثالث : ضرب الأمثال المنبئة عن الوعيد والتهديد كما فى آتى الحج (٣١) : ﴿ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ .

وإبراهيم (١٨) :

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ﴾

(٣) الروم : ٥١

(٢) الأحقاف : ٢٤

(١) إبراهيم : ١٨

(٥) الشورى : ٣٣

(٤) الأحزاب : ٩

الرابع : التذكير بما فعل الله بالأُمم التي أعرضت عن الإيمان كما فى آية الأحقاف (٢٤) :

﴿ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

الخامس : الامتنان على الرُّسل وأتباعهم كما فى آية الانبياء (٨١) :

﴿ وَلَسْلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرَى بِأَمْرِهِ ﴾ .

وآية الأحزاب (٩) : ﴿ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا ﴾ .

وصفوة القول : أن مجئ الرياح فى حالة الإفراد استعملها القرآن فى مجالى الخير والشر سواء كانت معرفة أو نكرة .

* *

● أمثلة الجمع :

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرَى فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (١) .

﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ... ﴾ (٢) .

﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴾ (٣) .

﴿ وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ ، وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾ (٤) .

(٢) الأعراف : ٥٧

(٤) الكهف : ٤٥

(١) البقرة : ١٦٤

(٣) الحجر : ٢٢

- ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾ (١) .
 ﴿ وَمَنْ يُرْسِلِ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾ (٢) .
 ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ ﴾ (٣) .
 ﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا ﴾ (٤) .
 ﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا ﴾ (٥) .
 ﴿ وَتَصْرِيفِ الرِّيحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (٦) .

ما ذكرناه من آيات جمع الرياح هو كل ما جاء فى القرآن من أمثلة جمعها.

والسؤال الآن :

لماذا أفردت « الريح » فى الآيات السابقة ؟

ولماذا جمعت فى هذه الآيات ؟

*والجواب الكاشف هو :

* أفردت « الريح » فى الآيات السابقة ؛ لأن مقامات ورودها فيها تقتضى إفرادها :

ففى إهلاك قوم هود ، وهم قبيلة عاد ، أفردت الريح فى الحديث عن إهلاكهم ؛ لأن الله أهلكهم بريح واحدة .

وفى الحديث عن الآيات التى أيد الله بها نبيه سليمان - عليه السلام - أفردت الريح معرفة بالألف واللام تعريف الجنس ، وجنس الريح واحد لا جمع .
 وفى الحديث عن تسير الفلك فى البحر أفردت الريح ؛ لأن الفلك تسير

(٣) الروم : ٤٦

(٢) النمل : ٦٣

(١) الفرقان : ٤٨

(٦) الجاثية : ٥

(٥) فاطر : ٩

(٤) الروم : ٤٨

سيراً منتظماً إذا دفعتها ريح واحدة لا رياح ، فإذا هبت عليها رياح من كل جهة فى وقت واحد اضطرب سيرها ، وقد تغرق ، والمقام مقام تذكير بنعمة الله مع قدرته على تبديلها نقمة : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ * إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ ﴾ (١) .

فالريح - هنا - ريح خير لا ريح شر . ولما جاءت مفردة فى مقام الشر وُصِفَتْ بما يؤهلها له : ﴿ أَمْ أَمْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى ، فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ﴾ .

فى آية الشورى كانت « الريح » ، وهنا فى الإسراء كانت « قاصفاً » ، ومثلها فى الحج : ﴿ أَوْ تَهْوَى بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ ، وفى الحاقة : ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾ (٢) .

وفى الروم : ﴿ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴾ (٣) .

وهى الريح الدبور المهلكة (٤) .

هذا هو سر أفراد « الريح » فى الآيات التى أفردت فيها ؛ لأن تصرف القدرة الإلهية فيها كان منصباً على « الريح » مفردة لا مجموعة ، فهى ريح لا رياح .

* *

● منهج القرآن فى « الريح » مفردة :

أولاً : المزاوجة فى معانيها بين الخير والشر ، وهى فى الشر أكثر منها فى الخير .

(١) الشورى : ٣٢ ، ٣٣

(٢) الحاقة : ٦

(٣) الروم : ٥١

(٤) تفسير النسفى : (٢٧٦/٣) .

ثانيًا : إذا استعملها في الخير لم يقرن بها أوصافًا ، بل يقف عند حد ذكرها إلا في موضعين :

أحدهما : في آية يونس ﴿ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ ﴾ ، وهي الريح اللينة الهادئة .

والثاني : في آية الأنبياء : ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ ﴾ .
وسر التباين بين الوصفين : « طيبة » ، و « عاصفًا » إكمال النعمة في كل موضع بما يناسبها .

فهى فى إجراء الفلك طيبة سهلة لانتظام حركة السير وسلامته من الكوارث ، وهى لسليمان - عليه السلام - « عاصفًا » لأنها جند من جنوده ، وكمال النعمة فى « الجندية » القوة المعبر عنها بالعصوف . ولو قيل فى الأولى « عاصفًا » ، وفى الثانية : « طيبة » لانقلبت النعمة بؤسًا ، والقوة ضعفًا .

ثالثًا : وإذا استعملها فى جانب الشر قرّن بها أوصافًا تنبئ عنه مثل : « صرصر عاتية » ، و « العقيم » ، و « مصفرًا » ، و « تذهب » (١) .

وهكذا جميع المواضع التى وردت فيها « الريح » فى جانب الشر .

رابعًا : وقد تستعمل فى الخير والشر فى آن واحد ، كما فى قوله تعالى فى آية الأحزاب المتقدمة :

﴿ إِذِ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا .. ﴾ ، فهى خير بالنسبة للمخاطبين ، وهم المسلمون ، وشر بالنسبة للجنود المغيرين .

* ولماذا جاءت الريح جمعًا ؟

(١) وذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ .. ﴾ (الأنفال : ٤٦) .

❖ والجواب :

فى أمثلة « جمع الرياح » جاءت « الرياح » معمولاً للفعل الماضى « أرسل » أو « أرسلنا » فى ثلاثة مواضع .

كما جاء معمولاً للفعل المضارع « يرسل » فى أربعة مواضع .

وجاءت معمولاً للمصدر « تصريف » فى موضعين .

وجاءت فاعلاً للفعل « تذروه » وهو مضارع فى موضع واحد ، وبهذا كملت مواضعها العشرة الواردة فيها فى لغة القرآن الحكيم ، والمقام الذى وردت فيه فى المرات العشر مقام واحد هو : لفت الأنظار إلى بعض الظواهر الكونية وتعلّق قدرة الله بها ، وحكمته البالغة فى إنشائها وتسخيرها لمنافع العباد .

وهذه الظواهر ثلاثة أقسام بالنسبة لكل جيل يقرأ كتاب الله العزيز :

القسم الأول : ظواهر وقعت قبل نزول القرآن فناسبها الفعل الماضى « أرسل » .

القسم الثانى : ظواهر كانت تقع فى عصر نزول القرآن ، فناسبها الفعل المضارع « يرسل » فى إحدى دلالاته ، التى يصور فيها الواقع المشاهد .

القسم الثالث : ظواهر وقعت بعد عصر نزول القرآن ، فناسبها الفعل المضارع - كذلك - فى دلالاته الثانية ؛ لأن الفعل المضارع صالح للدلالة على الحال وعلى الاستقبال إذا كان المقام لا ياباه ، وهذا التحليل يصدق على كل جيل .

فجيلنا الآن ما أكثر تلك الظواهر التى وقعت قبله ، وما أكثر ما يقع منها فى حياته ، وما سيقع بعد عصره ، وهكذا إلى أن تقوم الساعة .

وهذا صادق على غير « أرسلنا » ، و« يرسل » وغيرهما اثنان :

الأول : « تذروه الرياح » أى تذرو الهشيم .

والثانى : « وتصريف الرياح » فظاهرة تصريف الرياح شاملة للأزمنة الثلاثة: الماضى ، والحاضر ، والمستقبل ، وظاهرة تذرية الرياح للهشيم ، وقعت فى الماضى ، وتقع فى الحاضر ، وستقع فى المستقبل حتى قيام الساعة .

* *

● والخلاصة :

إن هذه الظواهر جميعاً من إرسال الرياح ، وإثارة السحاب ، وإنزال الماء منه ، وإحياء الأرض به ، وإسقاء الناس منه ، وتذرية الرياح للهشيم ، وتصريف الله الرياح والسحاب ، هذه الآيات والظواهر الكونية دائمة مستمرة ، لذلك وجب فى سنة الله أن تكون أسبابها جمعاً كاثراً « الرياح » لا « الريح » .

ولهذا جاءت « الرياح » مجموعة فى المجموعة الثانية من الآيات التى وردت فيها الرياح جمعاً لا ريحاً واحدة .

وتعدد الرياح ليس مقصوداً على التوزيع الزمنى الذى تقدم ، بل تعدد فى الزمن الواحد باختلاف الأمكنة التى تقع فيها فى اليوم الواحد بل فى الساعة الواحدة .

وهكذا تتجلى لنا بلاغة القرآن المعجزة ؛ لأنه بعلم الله نزل ، ومن أصدق من الله حديثاً ؟ .

وهكذا يتبين لنا بكل وضوح :

لماذا أُفردت الريح فى لغة القرآن فيما أُفردت فيه من آيات حكيمة .

ولماذا جُمِعَت فيما جُمِعَت فيه من آيات معجزات .

﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ (١) .

* * *

● منهج القرآن في « الرياح » جمعاً :

أولاً : التزام استعمالها في مجال الآيات ، والظواهر الكونية .

ثانياً : توظيف المقام الذي وردت فيه للعظة والاعتبار والتأمل في عجائب خلق الله ، تقوية للإيمان ، وتزكية للروح ، وإيقاظاً للقلوب من غفلاتها .

ثالثاً : التزام استعمالها في « الخير » دون « الشر » .

رابعاً : الامتنان على العباد بما سخر لهم من نعمه الظاهرة والباطنة .

* * *

(١) محمد : ٢٤

الرُّشْد - الْهُدَى

الرشد والهدى فى كلام الناس سيان ، وقد يفسر أحدهما بالآخر على سبيل التعاقب والتبادل ، أما فى لغة القرآن فلهما وضع خاص من حيث الدلالة ، ومن حيث الاستعمال ، ولن يتضح لنا منهج لغة القرآن فى كل منهما إلا إذا نظرنا فى الأمثلة ، التى تفى ببيان ذلك المنهج ، وغصنا وراء دقائقه وخفاياه .

● أمثلة « هدى » :

- ﴿ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ﴾ (١)
- ﴿ فَرِيقًا هَدَى ، وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ ﴾ (٢)
- ﴿ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ ﴾ (٣)
- ﴿ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ ﴾ (٤)
- ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا ﴾ (٥)
- ﴿ يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا ، وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا ﴾ (٦)
- ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ (٧)
- ﴿ وَيَتَّبِعْ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّרِيدٍ * كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾ (٨)

(٣) البقرة : ١٨٥

(٢) الأعراف : ٣٠

(١) البقرة : ١٤٣

(٦) البقرة : ٢٦

(٥) الأعراف : ٤٣

(٤) الأنعام : ٨٠

(٨) الحج : ٣ ، ٤

(٧) فاتحة الكتاب : ٥

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ
الرَّشَادِ ﴾^(١).

فى هذه الآيات التسع - وغيرها كثير - جاء الهدى فى صياغات مختلفة
فعل ماض - فعل مضارع - فعل أمر ، كما جاء فى آيات أخرى اسم فاعل ،
أما الفاعل ، فهو الله أو ضمير عائد عليه ، وفى غير هذه الآيات كان الفاعل
- أحياناً - : (ربُّ) مضافاً إلى ضمير المتكلم ، وفى موضعين لا ثالث لهما
كان الفاعل غير الله .

وهما : الشيطان فى آية الحج ﴿ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾ ، ثم
فرعون فى آية غافر : ﴿ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ ، وأما المفعول فقد
تردد بين ضمير المخاطبين الجماعة « هداكم » وضمير « الغائبين » فى آية التوبة :
﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ ﴾^(٢) ،
أو المثنى الغائب : ﴿ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾^(٣) .

ثم ضمير المتكلم إما جمعاً كما فى قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ
إِذْ هَدَيْتَنَا ﴾^(٤) .

أو ضمير المتكلم المفرد كما فى قول إبراهيم - عليه السلام - :
﴿ وَقَدْ هَدَانِ ﴾ .

* *

● منهج القرآن فى « هدى » :

أولاً : كثرة التصريفات التى وردت فى لغة القرآن فى مادة (ه د ي) .
ثانياً : يستعمل القرآن « هدى » فى الخير وفى الشر معاً ، بيد أن ورودها
فى الخير هو الأصل والأعم ، وورودها فى الشر لم يتعدَّ موضعين ، كان

(٢) التوبة : ١١٥

(٤) آل عمران : ٨

(١) غافر : ٢٩

(٣) الصافات : ١١٨

فاعل الهدى فى الأول هو الشيطان ، وفى الثانى فرعون ، وهُداهما ضلال مبين .

ثالثاً : إن المراد من الهدى فى القرآن مطلق البيان ، إلى حق كان أو إلى باطل ، إلى صواب أو إلى خطأ ، إلى خير أو إلى شر .

والذى يميز بين النوعين ثلاثة أمور :

الأول : إذا كان الفاعل هو الله أو فاعل آخر له شرف وطهارة كالقرآن ، أو نبي من الأنبياء كان الهدى حقاً وصواباً ، وخيراً^(١) .

الثانى : إذا كان الفاعل معروفاً بالكفر والعصيان كان الهدى الصادر عنه باطلاً وخطأً وشرّاً ، كالشيطان ، وفرعون ، ودعاة السوء .

الثالث : إذا اقترن « الهدى » بما يضاده من أوصاف ، كما فى قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى .. ﴾^(٢) .

* *

● أمثلة « الرشد » :

الذى فى القرآن منه : الرُّشْدُ ، والرَّشْدُ ، وهما مصدران فى الأصل ، ثم « الرشاد » ، وهو الاسم ، ولقلة وروده بالنسبة لـ « الهدى » سنذكر كل مواضعه التى ورد فيها فى القرآن ، بادئين بما كان فعلاً .

﴿ .. فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي ، وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾^(٣) .

﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَىِّ .. ﴾^(٤) .

(١) وتقوم الإضافة مقام الفاعل فى بعض الآيات : ﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى ﴾ (الأنعام : ٧١) .

(٤) البقرة : ٢٥٦

(٣) البقرة : ١٨٦

(٢) البقرة : ١٦

- ﴿ وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ﴾ (١) .
- ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ ﴾ (٢) .
- ﴿ فَإِنْ أَنْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ﴾ (٣) .
- ﴿ قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾ (٤) .
- ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴾ (٥) .
- ﴿ وَهَيَّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رُشْدًا ﴾ (٦) .
- ﴿ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رُشْدًا ﴾ (٧) .
- ﴿ وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرُّ أَرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رُشْدًا ﴾ (٨) .
- ﴿ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رُشْدًا ﴾ (٩) .
- ﴿ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رُشْدًا ﴾ (١٠) .
- ﴿ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ (١١) .
- ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴾ (١٢) .
- ﴿ أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴾ (١٣) .
- ﴿ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾ (١٤) .
- ﴿ وَمَا أَمْرٌ فَرَعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴾ (١٥) .

(١) الأعراف : ١٤٦	(٢) الجن : ١ ، ٢	(٣) النساء : ٦
(٤) الكهف : ٦٦	(٥) الأنبياء : ٥١	(٦) الكهف : ١٠
(٧) الكهف : ٢٤	(٨) الجن : ١٠	(٩) الجن : ١٤
(١٠) الجن : ٢١	(١١) غافر : ٢٩	(١٢) الحجرات : ٧
(١٣) هود : ٧٨	(١٤) هود : ٨٧	(١٥) هود : ٩٧

﴿ وَمَنْ يَضِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا ﴾ (١) .

* *

● منهج القرآن في « رشد » :

أولاً : لم يستعمل القرآن كلمة « رُشد » أو « رَشَد » إلا في الخير بخلاف ما مرَّ في « هدى » .

ثانياً : لم يأت منها في القرآن إلا فعل واحد مضارع « يرشدون » ثم جاءت اسماً فيما عداه :

إما مصدراً « رُشد - رَشَد » أو اسم فاعل « الراشدون » ، أو صفة مشبهة « رشيد » ، وكل هذه من الفعل الثلاثي « رشد » .

ثالثاً : لم يأت منها « مزيد » إلا اسم فاعل « مرشداً » من أرشد .

رابعاً : اختصَّ « الرُّشد » بما جاء في بناء الآيات قبل فواصلها إلا في موضع واحد ﴿ مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا ﴾

خامساً : اختصَّ « الرُّشد » بالفواصل إلا في موضع واحد : ﴿ وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ﴾ .

سادساً : كما اختصَّ « الرُّشد » بمقامات الدعاء إلا في موضع واحد هو ﴿ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشْدًا ﴾ .

سابعاً : « الرُّشد » في القرآن أخص من « الهدى » بدليل الجمع بينهما في : ﴿ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا ﴾ ، وجعل « الهدى » وسيلة لـ « الرشد » .

ثامناً : لم يأت الاسم الخالص منه (غير المصدر) إلا مرتين في قولي : ﴿ الَّذِي آمَنَ ﴾ ، و ﴿ فِرْعَوْنَ ﴾ : ﴿ سَبِيلَ الرِّشَادِ ﴾ .

(١) الكهف : ١٧

تَاسِعًا : وجاءت الصفة المشبهة منه « رشيد » فى موضعين فى مقام « النفى » :

﴿ أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴾ (١) ، و ﴿ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴾ ، كما جاء اسم الفاعل « الرباعى » فى مقام النفى ﴿ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرَشِدًا ﴾ .

عاشراً : اختص « الرشيد » بالخير دون الشر ؛ لأنه هداية إلى الحق ، وتوفيق للعمل به .

أما مطلق الهداية فلا يلزم منها « التوفيق » ، وهى « أى الهداية » من الله :
نصب الدلائل العلمية والعقلية الفارقة بين :

* الحق والباطل .

* الخير والشر .

* الصواب والخطأ .

* النافع نفعاً محموداً ، والضار ضرراً مذموماً (٢) .

الحادى عشر :

لما كان « الرشيد » هو الهداية مع التوفيق للعمل الصالح غلب على استعماله « الاسمية » لدلالة الاسم على الثبات والدوام ، أما مجرد الهداية ومعرفة الحق من الباطل ، فقد يتردد العباد فيها بين الاستقامة والزيغ ، وهذا يناسبه مجئ « الهدى » بين الاسمية والفعلية ، مصداق هذا قوله تعالى فى شأن ثمود : ﴿ أَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى ﴾ .

* * *

(١) « أليس منكم رجل رشيد » من حيث اللفظ إثبات ، ومن حيث المعنى نفى ، لأن المراد من الاستفهام فيه : التعجب من حالهم ونفى الرشيد عنهم .
(٢) النفع المحمود هو المأذون فيه شرعاً ، والضرر المذموم هو المنهى عنه شرعاً .

فَرَقَ - فَرَّقَ

فَرَّقَ وَفَرَّقَ فعلان ماضيان مادتهما واحدة ، هي : الفاء والراء والقاف ، والاختلاف بينهما في تخفيف الراء وتشديدها ، ومصدر الأول : الفَرَقُ ، ومصدر الثاني : التفريق ، ومن حيث المعنى فإن اللغة تُفَرِّقُ بينهما بأن الأول : فَرَّقَ يكون في الفصل بين الأمور المعنوية كالحق والباطل ، والثاني يكون في الفصل بين الأجسام المادية كالشاة إذا قُطِعَ لحمها .

هذا هو الأصل في اللغة . أما استعمال القرآن لهذين الفعلين ، فمع جريانه على الأصل اللغوي ، فإن فيه اعتبارات لطيفة ، جاء بها التنزيل الحكيم ، وهذا يتضح من ذكر النماذج والنظر فيها :

● أمثلة فرق المخفف :

- ﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ .. ﴾ (١)
- ﴿ فَأَفْرَقَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ (٢)
- ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ (٣)
- ﴿ وَقَرَأْنَا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ ﴾ (٤)

هذا كل ما في القرآن من « فرق » المخفف من الأفعال ، مما يدخل معنا في معنى الفصل بين الأشياء ، وهي أربعة أمثلة ، اثنان منها جاريان على الأصل اللغوي ، وهما : ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ ،

(٢) المائدة : ٢٥
(٥) الإسراء : ١٠٦

(١) البقرة : ٥٠
(٣) الدخان : ٤

﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ . . ﴾ أى نزلناه مفرقًا فى أزمنة مختلفة ، وذلك لأن الأمور والتزليل أشياء معنوية لا أجسام مادية ، أما الاثنان الآخران وهما :

﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ . . ﴾ .

ر ﴿ فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ .

فالبحر ، والقوم جسمان ماديان فكان الأصل فيهما أن يقال : فرقنا بكم البحر ، وفرق بيننا وبين القوم الفاسقين ، فهل هما خارجان عن الأصل اللغوى ، أم جاريان عليه باعتبار خاص ؟

والإجابة فى إيجاز :

الظاهر - والله أعلم - أن الأصل اللغوى يطرد فى الدلالة على الفصل بين الأجسام المادية القوية التماسك والاتصال الحسى ، وهذا مفقود فى البحر والقوم .

لأن الماء جسم انسيابى رخو ليس بينه من قوة التماسك ما بين لحم الشاة مثلاً .

ولأن القوم ، أو أى اجتماع بين أى جماعة من الناس يخلو - كذلك - من التلاحم العضوى ، بل هم فى الأصل مفصول بعضهم عن بعض ، وعلى هذا الاعتبار الخاص يكون هذان المثالان جاريين على الأصل اللغوى العام .

كما أن فى المثال الثانى : ﴿ فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ لمحة بلاغية لطيفة ، تلحظ من قول موسى - عليه السلام - « فافرق » مخففاً بدلاً من ففرق مشدداً ، تلك اللمحة البلاغية تشير إلى صنف العلاقة بين موسى وأخيه هارون ، وهما رسولان ، وبين القوم الفاسقين ، ولضعفها فإنها تزول بأخف عارض دون أى جهد يذكر .

أما ورودها غير فعل فله ثلاث صيغ :

اسم الفاعل ثم المصدر فى قوله تعالى : ﴿ فَأَلْفَارِقَاتٍ فَرَقًّا ﴾ (١) ، ثم اسم على وزن « فَعَلَ » فى قوله تعالى : ﴿ ... فَأَنْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴾ (٢) .
واسم الفاعل « الفارقات » جارٍ على الأصل اللغوى على ما ذكره المفسرون من أن طائفة من الملائكة فَرَقَتْ بين الحق والباطل ، وهما ليس بجسم مادي (٣) .
وكذلك المصدر « فرقا » لأنه مصدر المخفف « فَرَّقَ » أما « فِرْق » فالمراد به الجزء المتفرق من الماء .

* *

● منهج القرآن فى « فرق » المخفف :

أولاً : استُعْمِلَ « فرق » المخفف فى الفصل بين الأمور المعنوية كما هو الأصل فى اللغة .

ثانياً : يُلْحَق القرآن الفصل بين الأجسام المادية الرخوة كالماء بالفصل بين الأمور المعنوية ، تشبيهاً لضعف التماسك بين جزيئاتها بضعف العلاقة بين الأجسام الإنسيابية الرخوة .

كما ينزل العلاقة بين الطوائف المتباينة منزلة العدم ، فدلَّ على انفصالها بالفعل « فرق » أو « افرق » بدل : « افرق » ، أو « فرَّق » .

* *

● أمثلة « فرَّق » المشدد :

فى أمثلة « فرَّق » المشدد تكررت بعض الصيغ مرات ، لذلك سنكتفى ببعض المكرر توخيًّا للإيجاز ، والأمثلة هى :

(١) الرسائل : ٤ ، أما « فَارِقُوهن » فى الطلاق : ٢٢ ، فهى من فَارَقَ الرباعى فلا تدخل فيما نحن فيه .

(٢) الشعراء : ٦٣ (٣) تفسير النسفى : (٣٢٢/٤) .

- ﴿ إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ . . ﴾ (١) .
- ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾ (٢) .
- ﴿ لَا تَفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ﴾ (٣) .
- ﴿ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ ﴾ (٤) .
- ﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ﴾ (٥) .
- ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا . . ﴾ (٦) .
- ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ (٧) .
- ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا . . ﴾ (٨) .
- ﴿ وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كِلَا مَنْ سَعَتِهِ . . ﴾ (٩) .
- ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومِّدُ يَتَفَرَّقُونَ ﴾ (١٠) .

فى هذه الآيات العشر استعمل « فرَّق » المشدَّد إما فعلاً مضارعاً وهو الغالب ، وإما فعلاً ماضياً ، وقد جاء الفعل على الأصل اللغوى ، وهو الفصل بين الأجسام المادية فى ثمانية مواضع ، وهى :

التفريق بين بنى إسرائيل ، وبين الرسل ، وبين الزوجين ، وبين جماعة المؤمنين ، وبين المشركين وأصنامهم .

واستعمل فى الفصل بين أمر معنوى - وهو الدين ، فى موضع واحد وله نظائر لم نذكرها . أما التفريق بين الله ورسله ، فقد غلب فيه جانب الرسل ، أما الله - سبحانه - فليس كمثله شىء .

(١) طه : ٩٤	(٢) الأنعام : ١٥٩	(٣) البقرة : ٢٨٥
(٤) النساء : ١٥٠	(٥) البقرة : ١٠٢	(٦) آل عمران : ١٠٥
(٧) الأنعام : ١٥٣	(٨) آل عمران : ١٠٣	(٩) النساء : ١٣٠
(١٠) الروم : ١٤		

إذن لم يخرج عن الأصل اللغوي من هذه الآيات إلا التفرقة فى الدين ،
وكان الأصل فيه يقال : « فرَّقُوا دينهم » من « فرَّق » المخفف لا « فرَّق »
المشدد ؛ لأن الدين قيم وأصول معنوية ، وليس جسمًا ماديًا .

ومجيؤه من « فرَّق » المشدد إنما هو تنزيل له منزلة المادى المحسوس القوى
التماسك ، لخلو قيمه وأصوله من التجافى والتنافر وتنويه بسلامته من الخلل
والاضطراب .

وقد لاحظت لى خاطرة ، خلاصتها أن مدار الحديث - هنا - أعنى فى
« فرَّق » مخففًا ، و « فرَّق » مثقلًا ، منظور فيه إلى نوعين من العلاقات :
الأول : العلاقات المعنوية - سواء كانت بين أمور معنوية أو أجسام مادية .
الثانية : العلاقات المادية البحتة ، ولا تكون إلا فى الأجسام التى بين
عناصرها تركيبات عضوية .

وعلى هذا فإن قول هارون لموسى - عليهما السلام - : ﴿ إِنِّى خَشِيتُ أَنْ
تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ ﴾ يكون التفريق منصبًا على علاقة معنوية بين
أجسام مادية ، واستعمال « فرَّق » فيها دون « فرق » إشارة إلى قوة التماسك
المعنوى بينهم ، حتى لكانهم ببيان مرصوص .

وعلى هذا - مرة أخرى - تكون آيات « فرَّق » جميعها من هذا القبيل ،
وأن الأصل فيها « فرَّق » المخفف ، لا « فرَّق » المثقل ، وإنما استعمل القرآن
الحكيم فيها « فرَّق » إشارة إلى قوة الرباط بينها وإن كان معنويًا ، وهذا يصدق
على الآيات العشر . كعلاقة الرسل ، وعلاقة المؤمنين بعضهم ببعض ،
وعلاقة الزوجين ، وعلاقة عبدة الأصنام بأصنامهم وهكذا .

وتوجيه هذا بلاغيًا لا يخرج عن واحد من أمرين . ولنتخذ من علاقة
الرسل مثالاً للتوضيح ، والأمران هما :

الأول : أن يكون فى الكلام استعارة تصريحية أصلية بتشبيه العلاقة المعنوية

بين الرسل بعلاقة هيكل مادي شديد التماسك ، والجامع هو القوة ، والقرينة هو استعمال « فرَّق » بدل « فرَّق » والسر البلاغى إبراز المعقول فى صورة المحسوس اعتناء بشأنه .

الثانى : أن يكون فى الكلام استعارة بالكناية ، شبهت فيها الأجسام المادية المفصول بعضها عن بعض بالأجسام المركبة تركيباً عضوياً قوياً ، وحذف المشبه به ، ودل عليه بإجراء خاصة من خصائصه ، وهى التفريق المفهوم من « فرَّق » على المشبه ، والسر البلاغى هو التنويه بقوة الصلات بينها . وعلى هذا - مرة ثالثة - تكون آيات « فرَّق » العشر من هذا القبيل .

وأيا كان الأمر فإن منهج القرآن فى « فرَّق » المشدد هو :

أولاً : استعمال « فرَّق » فى الفصل بين الأجسام المركبة تركيباً عضوياً مادياً .

ثانياً : استعمال « فرَّق » فى الفصل بين الأطراف ذات العلاقات المعنوية القوية التماسك ، وإن كانت أطرافها أموراً معنوية ، وهذا ما نرجحه بعد التمهيد الذى قدمناه من قبل .

* * *

جَسَدٌ - جِسْمٌ

فى كتب اللغة مساواة بين كلمتى الجسد والجسم عند بعض اللغويين ، ومنهم من يفرق بينهما ويرى أن الجسد لا يطلق إلا على ذى روح من الناس والملائكة ، والجن ، ويرى أن إطلاق الجسد على غير العقلاء ، كعجل بنى إسرائيل جاء على خلاف الأصل .

بيد أن لغة القرآن تفرق بينهما تفرقة مبينة لما قاله بعض اللغويين ، كما تنبئ بكل وضوح بعدم تساويهما فى الدلالة خلافاً لما قاله بعض اللغويين كذلك (١) .

فلنذكر مواضعهما فى القرآن لتستبين لنا دلالتاهما فيه :

* *

● أمثلة « الجسد » :

- ﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ ﴾ (٢)
- ﴿ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ ... ﴾ (٣)
- ﴿ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴾ (٤)
- ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ... ﴾ (٥)

(١) انظر فى الفروق اللغوية بين الجسد والجسم ، مفردات الراغب : (٩٣) ، والمصباح المنير : مادتا : جسد ، وجسم .

(٣) طه : ٨٨

(٢) الأعراف : ١٤٨

(٥) سورة ص : ٣٤

(٤) الأنبياء : ٨

هذه هى المواضع الأربعة التى استعمل القرآن فيها كلمة « جسد » ، ومراده منها الهياكل التى لا روح فيها ، وهذا ظاهر فى عجل بنى إسرائيل ؛ لأنه هيكمل مصنوع من ذهب لا روح فيه ، أما الجسد الذى ألقى على كرسى سليمان ، فهو كذلك لا روح فيه ميتاً كان أو غير كامل الخلقة (١) .

أما آية الأنبياء : ﴿ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴾ . فهى رد على مشركى مكة لما أنكروا على النبى ﷺ مشيه فى الأسواق وأكله الطعام ، فبين الله لهم أنه ليس بدعاً من الرسل ، حيث لم نجعلهم مجرد أجساد لا روح فيها ، ولا تحتاج إلى الطعام والشراب ، بل كانوا بشراً يطعمون كما يطعم البشر ، وفى هذا يقول جارا الله الزمخشري :

« وما جعلنا الأنبياء - عليهم السلام - قبله ذوى جسد غير طاعمين » (٢) ، فقد ظهر لنا أن القرآن لا يطلق كلمة « جسد » إلا على ما لا روح فيه .

وهذه دلالة مطردة فى المواضع الأربعة التى ذكرناها ، وليس لها فى القرآن خامس .



● أمثلة « الجسم » :

﴿ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ .. ﴾ (٣) .
﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ﴾ (٤) .

لم ترد كلمة « الجسم » فى القرآن فى غير هذين الموضعين ، وقد جاءت فيهما فى سياق الحديث عن الإنسان :

(١) انظر « تفسير النسفى » : (٤٢/٤) . (٢) الكشاف : (٥٦٤/٢) .

(٤) المنافقون : ٤

(٣) البقرة : ٢٤٧

الأول : فى سياق الحديث عن « طالوت » ملك بنى إسرائيل .

والثانى : فى سياق الحديث عن « المنافقون » فى عصر النبوة ، وبذلك يفارق « الجسم » - « الجسد » لفظاً ومعنى ، فليسا هما - كما قال بعض علماء اللغة - بمعنى واحد ، وليسا هما على الفروق التى ذكروها ، بل الفرق الوحيد بينهما - فى لغة القرآن - أن « الجسد » يطلق على ما لا روح فيه ، وأن « الجسم » لا يطلق إلا على العقلاء حال الحياة ، بدليل أن الله أطلق على فرعون عقيب موته كلمة « البدن » لا الجسم ولا الجسد ، قال سبحانه :

﴿ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدْنِكَ لَتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً ۖ ۞ (١) ۖ

وإطلاق « الجسد » على ما لا روح فيه ولا حياة تعبير لغوى بالغ الدقة لأن « الجسد » يطلق لغة على الدم إذا يبس وجف (٢) .

واليوسة والجفاف من صفات ما لا روح فيه ، فسبحان الذى نزل أحسن الحديث .

* *

● منهج القرآن فى « الجسد » ، و« الجسم » :

أولاً : لكل منهما معنى يغاير معنى الآخر ، فليسا هما مترادفين .

ثانياً : يُطلق « الجسد » على كل هيكلا لا روح فيه ، ولا حياة تامة ، ويطلق « الجسم » على ذوى الحياة من العقلاء .

وهذا هو الاستعمال الأدق الأمثل للغة ، كما تعلمنا البيان القرآنى المعجز

* * *

(١) يونس : ٩٢

عَرَفَ - عَلِمَ

من الكلمات التي يفرق بينها القرآن تفرقة بالغة الدقة ؛ كلمتا عرف وعلم وما يُشتق منهما من أفعال ومصادر وصفات وأسماء ، أما في العُرف اللغوي العام والخاص فلا تكاد تحس بالفرق بينهما لتقارب المعنى المراد منهما من حيث الظاهر ، وتجهيداً لاستجلاء ما بينهما من فروق نستعين بذكر بعض الأمثلة لكل منهما . ثم نثبت ما تهدي إليه استعمالات القرآن لهما ، الفروق بينهما .

* * *

● أمثلة « عَلِمَ » :

- ﴿ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ ﴾ (١) .
- ﴿ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا .. ﴾ (٢) .
- ﴿ عَلِمَ كُلُّ نَأْسٍ مَنَ شَرِّهِمْ ﴾ (٣) .
- ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ﴾ (٤) .
- ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ (٥) .
- ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ (٦) .
- ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ مَا أُنْزِلَ بَعْلَمِ اللَّهِ ﴾ (٧) .
- ﴿ .. إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ (٨) .

(٣) البقرة : ٦٠

(٦) الروم : ٧

(٢) الأنفال : ٦٦

(٥) البقرة : ٢٥٥

(٨) المائدة : ١١٦

(١) البقرة : ١٨٧

(٤) التكوين : ١٤

(٧) هود : ١٤

﴿ .. اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ (١) .

﴿ .. عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ .. ﴾ (٢) .

﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ (٣) .

﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ ﴾ (٤) .

فى هذه الآيات الأتتى عشر وردت كلمة « علم » وما اشتق منها من فعل مضارع ، وأمر واسم فاعل ، واسم مفعول ، وصفة مشبهة باسم الفاعل ، وأفعل التفضيل ، وصيغة المبالغة ، وهى كثيرة الورد فى القرآن ، وأمثلتها لا تكاد تحصى .

والذى نريد أن نلفت إليه نظر القارئ الكريم أن « علم » ، وما اشتق منها نُسِبَتْ لله - سبحانه ، ظاهراً ، وضميراً فى جميع الصيغ المشار إليها إلا فعل الأمر .

كما نُسِبَتْ إلى غير الله من مخلوقاته ، كما فى ﴿ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ ﴾ ، و ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ﴾ إلا فى صيغتى الصفة المشبهة وصيغة المبالغة « عليم - علام » ، فلم تنسب هاتان الصيغتان لأحد من خلق الله فى القرآن الكريم ؛ لأنهما من صفات الله وحده (٥) .

(٢) الأنعام : ٧٣

(١) الأنعام : ١٢٤

(٤) البقرة : ١٩٧

(٣) البقرة : ٩٥

(٥) ولا يقدح فى هذه قول يوسف - عليه السلام - عن نفسه : ﴿ إِنِّي حَفِيزٌ عَلِيمٌ ﴾ (يوسف : ٥٥) ؛ لأنه وصف مقيد بأمر من أمور الدنيا . أما « عليم » إذا أريد منها العلم المطلق ، فلا يوصف بها غير الله سبحانه .

● منهج القرآن فى « علم » :

نستطيع أن نسجل - هنا - منهج القرآن فى استعمال كلمة « علم » ومشتقاتها الواردة فى القرآن الحكيم فى الآتى :

أولاً : إنها كثيرة الورد فى لغة القرآن ، كثرة مستفيضة ، شملت الصيغ اللغوية المعروفة من الأفعال والمصادر والصفات المشتقة .

ثانياً : إن كلمة « علم » ومشتقاتها تردد إسنادها بين الله - سبحانه - وبين بعض مخلوقاته إثباتاً ونفيًا .

ثالثاً : إن صيغة المبالغة « علام » لم تأتِ إلا وصفاً لله - سبحانه ، وكذلك الصفة المشبهة باسم الفاعل « عليم » ، إذا أريد بها العلم المطلق من القيود المخصصة .

وهذا يضع أمامنا سؤالاً مهماً مؤداه :

لِمَ لَمْ يَأْتِ « عرف » فعلاً مسنداً لله وبينها وبين « علم » نَسَبٌ وصله ؟
والإجابة تحتاج إلى تمهيد :

فى كتب العلم فروق متعددة خلاصتها :

١ - العلم يتناول كليات العلوم وجزئياته ، والمعرفة مقصورة على الجزئيات .

٢ - العلم لا يتوقف على سبق جهل بالمعلوم ، والمعرفة يسبقها الجهل .

٣ - العلم لا يكون عن تَفَكُّرٍ وتَدَبُّرٍ ، والمعرفة لا بد فيها من التفكير والتدبر .

هذه الفروق ، وإن كان بعضها قابلاً للمناقشة - فإن خلو القرآن من إسناد المعرفة لله دليل قاطع على أن « العلم كمال » وأن « المعرفة » يشوبها النقص ، فالعلم حقيقة « صفة » خالصة لله ، ووصف غير الله به جارٍ على تشبيه

المعرفة بالعلم تشريقاً لها ، أما العلم الخالص ، فهو لله سبحانه ، مصداق ذلك قوله تعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (٢) .

﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ (٣) .

أما الله - سبحانه - فهو : ﴿ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (٤) .

لذلك - والله أعلم - لم يات « عرف » ولا شيء من مشتقاتها فعلاً لله تنزيهاً له عن النقائص . فلا يقال :

عرف الله كذا ، ولا يقال : الله عارف ، وإنما يقال : علم الله كذا ، والله عالم بكذا .

* *

● أمثلة « عَرَفَ » :

﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ﴾ (٥) .

﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ ﴾ (٦) .

﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا ﴾ (٧) .

﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ ﴾ (٨) .

﴿ يُعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ ﴾ (٩) .

(١) النحل : ٧٤	(٢) الإسراء : ٨٥	(٣) الروم : ٧
(٤) العنكبوت : ٦٢	(٥) البقرة : ١٤٦	(٦) الحج : ٧٢
(٧) النحل : ٨٣	(٨) الاعراف : ٤٨	(٩) الرحمن : ٤١

- ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ، فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ (١) .
 ﴿ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴾ (٢) .
 ﴿ ... وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ... ﴾ (٣) .
 ﴿ ... وَلَكِنْ لَا تُؤَاخِذُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا ... ﴾ (٤) .
 ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ (٥) .

تمثل هذه الآيات العشر صور مجيء « عرف » ومشتقاتها في القرآن الحكيم ، وهي محصورة بين الفعل المضارع والماضي ، واسم المفعول والاسم . ولم يأت منها فعل أمر ولا مصدر ولا صفة مشبهة باسم الفاعل ولا صيغة مبالغة كما جاء في « علم » .

كما جاءت فعلاً لغير الله ، ولم يأت منها فعل لله قط ، فهي في الآية الأولى مسندة إلى أهل الكتاب باعتبار الضمير « الواو » ، المكنى به عنهم . وفي الآية الثانية جاءت مسندة إلى ضمير المخاطب من الناس « تعرف » ، وفي الآية الثالثة جاءت مسندة إلى ضمير الذين يجحدون نعمة الله ، كما جاءت في الآية الرابعة مسندة إلى ضمير أصحاب الأعراف .

* * *

● منهج القرآن في « عرف » :

- أولاً : هي فيه فعل لغير الله من خلقه ، وليست فعلاً ولا وصفاً لله قط .
 ثانياً : هي فيه أقل تصريحاً لغوياً بالنسبة لـ « علم » .
 ثالثاً : المقارنة بين « علم » ، و « عرف » ومشتقاتهما في الاستعمال القرآني تنبئ عن « أشرفية العلم » عن « المعرفة » .

* * *

(٣) البقرة : ٢٢٨

(٢) يوسف : ٥٨

(١) البقرة : ٨٩

(٥) الأعراف : ١٩٩

(٤) البقرة : ٢٣٥

اللمس - المس - المسح

هذه الكلمات الثلاث : اللمس - المس - المسح تشترك فى أصل الدلالة : ملاقة جسم لآخر ، وعلماء اللغة منهم من يَسَوِّى بين اللمس والمس ، فهما بمعنى واحد فى الوضع اللغوى ، ومنهم مَنْ يفرق بينهما تفرقة غير حصينة ^(١) ، أما « المسح » فلاشترাকে مع اللمس والمس فى أصل الدلالة ، الذى أشرنا إليه آنفاً أثرنا دراسته معهما من خلال الاستعمال القرآنى لهذه الكلمات الثلاث ، بغية الوقوف على منهج القرآن فيها جميعاً ، وما عسى أن يكون بينها من فروق ينبئ عنها البيان القرآنى المعجز .

* *

• أولاً : لمس :

لم يرد « لمس » فى القرآن إلا خمس مرات ، هى :

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ ^(٢) .

﴿ أَوَلَمْ تَسْتَمِئْهُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا ﴾ ^(٣) .

﴿ وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلْتَأَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهْبًا ﴾ ^(٤) .

﴿ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا ﴾ ^(٥) .

هذه الآيات الخمس منها ثلاث آيات استُعملَ فيها « اللمس » مراداً منه

(١) المفردات ، المصباح المنير (مادتا : لمس - مس) .

(٢) الأنعام : ٧

(٣) النساء : ٤٣ ، والمائدة : ٦

(٤) الجن : ٨

(٥) الحديد : ١٣

المعنى الوضعى اللغوى - أى ملاقة جسم لآخر - وهى آيات « الأنعام » و« النساء » و« المائدة » .

أما آيتا « الجن » و« الحديد » فاللمس فيهما بمعنى الطلب ، أى طلبنا أو قصدنا السماء ، هذا فى « الجن » ، واطلبوا نوراً ، وهذا فى « الحديد » ، وهما : إما كنايةتان ، أو استعارتان ، والأول أقرب ، والعلاقة بين الطلب واللمس أن طلب الشيء يُفْضِي إلى ملاقاته وأخذه ، لذلك ساغت الكناية عن الطلب باللمس ، كما ساغت استعارة اللمس للطلب على ما بين الكناية والاستعارة - هنا - من تفاوت .

أما فى آيات الأنعام والنساء والمائدة فمع إرادة الدلالة الرضعية من « اللمس » ، فيها فإن آية « الأنعام » اللمس فيها واقع من طرف واحد . « فلمسوه » ، وهم الذين كفروا ، والملموس هو الكتاب المفروض تنزيله ، وآيتا النساء والمائدة ، وإن قلنا إن الملامسة فيهما كناية من كنايات الجماع فإن المعنى الحقيقى ، وهو ملاقة أو ملاصقة جسم لآخر ، مقصود فى الآيتين ، لأن المراد ملامسة الأزواج بعضهم بعضاً أو ملامسة أى رجل لأى امرأة تشتهى عادة كالمصافحة إن قُصِدَ معها أو وُجِدَ ما ينتقض الوضوء ، كما ذهب بعض الفقهاء ، وعلى هذا فإن اللمس فى الآيتين مقصود منه مجرد ملاقة بين جسمى بالغين ، فلا كناية فيهما عن الجماع ، وهو مذهب من مذاهب الفقهاء .

والحاصل أن فى الملامسة فى آيتى النساء والمائدة مذهبين فقهيين :

الأول : كونها كناية عن مباشرة النساء ، وعلى هذا تكون الملامسة الحقيقية مقصودة ضمن معنى آخر .

والثانى : كونها الملامسة التى ينتقض بها الوضوء دون الطهارة الكبرى - الاغتسال - وعلى هذا يكون اللمس الحقيقى مقصوداً لذاته .

* *

● منهج القرآن فى « لمس » :

أولاً : جاء اللمس فى القرآن مقصوداً منه ملاقة جسم لآخر مع المبالغة فيه ، لأن الذين كفروا لو أنزل الله كتاباً مكتوباً من السماء - أى لا وحيًا يوحى - فإنهم يلمسون به بشدة بقصد الاختبار والتأكد ، وكذلك تكون ملامسة الرجال النساء إذا قصد منها الشهوة فى الغالب ، سواء كانت بين الأزواج أو غيرهم .

ثانياً : وجاء اللمس فيه كناية عن الطلب أو استعارة له مع قرينة مانعة أو غير مانعة من إرادة المعنى الحقيقى .

ثالثاً : ندرة ورود « اللمس » فى القرآن بالنسبة لِلْمَسِّ (مس) .



● ثانياً : المس :

ما أكثر ورود « مس » ومشتقاتها فى القرآن ، وما أكثر تصنيفاتها اللغوية فيه ، وعلى كثرتها فمن الممكن التعرف على منهج القرآن فيها ، وها نحن أولاء نذكر من أمثلتها ما يعيننا على استخلاص منهجها فى لغة القرآن الحكيم :

● الأمثلة :

- ﴿ وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ ﴾ (١) .
- ﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا .. ﴾ (٢) .
- ﴿ أَبَشِّرْهُمُونِى عَلَى أَنْ مَسَّنِىَ الْكِبَرُ .. ﴾ (٣) .
- ﴿ .. أَنِّى مَسَّنِىَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ .. ﴾ (٤) .

(٢) يونس : ١٢

(٤) سورة ص : ٤١

(١) الأعراف : ٩٥

(٣) الحجر : ٥٤

- ﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴾ (١) .
- ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ﴾ (٢)
- ﴿ وَلَا تَمْسُوها بِسُوءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٣) .
- ﴿ لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ ﴾ (٤) .
- ﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بَضْرًا فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ، وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٥) .
- ﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ﴾ (٦) .
- ﴿ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ * لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ (٧) .
- ﴿ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ﴾ (٨) .
- ﴿ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ﴾ (٩) .
- ﴿ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ ﴾ (١٠) .

هذه الآيات الأربع عشرة ورد فيها « المس » فى صيغ مختلفة بين الأفعال الماضية والمضارعة والاسم والمصدر ، وقد راعينا فى ذكرها أن تكون شاملة للملامح منهج القرآن فيها . وهذا يتضح من النظرات الآتية :

* تردد مجيؤها بين الحقيقة والكناية والمجاز على النحو الآتى :

١ - ثلاثة مواضع منها أريد بها المعنى الحقيقى الوضعى دون اقترانه بمعنى

آخر ، وهى :

(١) النور : ٣٥	(٢) آل عمران : ٢٤	(٣) الأعراف : ٧٣
(٤) البقرة : ٢٣٦	(٥) الأنعام : ١٧	(٦) آل عمران : ٤٧
(٧) الواقعة : ٧٨ ، ٧٩	(٨) المجادلة : ٣	
(٩) البقرة : ٢٧٥	(١٠) طه : ٩٧	

﴿ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴾ ، ﴿ لَا يَمْسُهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ ، ﴿ لَا مِسَّاسَ ﴾ .

٢ - وثلاثة مواضع أخرى جاءت كناية عن مباشرة النساء ^(١) ، وهى :

﴿ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ ﴾ ، ﴿ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ﴾ ، ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ﴾ .

٣ - أما المواضع الأخرى ، وهى تسعة ، فقد جاء « المس » فيها مجازاً عن « الإصابة » ، وهى :

﴿ مَسَّ آبَاءَنَا ﴾ ، ﴿ مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ ﴾ ، ﴿ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ ﴾ ،
﴿ مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ ﴾ ، ﴿ لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ ﴾ ، ﴿ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ ﴾ ،
﴿ وَإِنْ يَمَسَّكَ اللَّهُ بَضْرٌ ﴾ ، ﴿ وَإِنْ يَمَسَّكَ بِخَيْرٍ ﴾ ، ﴿ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ
الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ﴾ .

هذا من حيث المعنى المراد منها ، أما من حيث المقام الذى وردت فيه فإنها موزعة على مقامى الخير والشر ، واستعمالها فى الشرور أكثر من استعمالها فى « الخيور » يستوى فى ذلك ما ذكرناه وما لم نذكره من أمثلتها ، ومن ينظر فى جميع مواضع ورودها فى القرآن يتبين له صدق ما فهمناه ، والسر البلاغى فى الكنايات الثلاث تجنب ما يستقبح ذكره والإفصاح به .

أما فى الاستعارة عن الإصابة فالمغزى البلاغى هو إظهار المعنوى المعقول فى صورة المادى المحسوس ليتمكن فى الشعور أعظم تمكُّن مع شدة الإحساس .

ومن قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَمْسُوْهَا بِسُوءٍ ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ لَا يَمْسُهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ ، وقوله : ﴿ لَا مِسَّاسَ ﴾ ، يظهر أن المس يتحقق بأدنى ملاقة بين جسمين ؛ لأن القرآن الحكيم نهى فى الأولى والثانية عن إلحاق أدنى

(١) الكناية - كما هو معروف - يجوز فيها إرادة المعنى الحقيقى مع المعنى الكنائى ، ما لم يمنع منه مانع خارجى . ولا مانع هنا من إرادته .

أذى بالناقة ، وعن أدنى اقتراب من الكتاب المكنون وإن جاء على صورة النفى
الخبرى .

مصدق هذا قوله تعالى فى النهى عن عقوق الوالدين : ﴿ فَلَا تَقُلْ لَهُمَا
أُفٌ وَلَا تَنْهَرُهُمَا ﴾ (١) ، فهى عن أدنى صور الأذى بـ « أف » ، والنهى
عن الأدنى يلتزم النهى عن الأكبر .

وقوله تعالى فى شأن اعتزال الظالمين ﴿ وَلَا تَرْكُنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا
فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ ﴾ (٢) .

والركون هو الميل اليسير ، والنهى عنه يقتضى النهى عن المخالطة
والمعاشرة .

وكذلك « لا مساس » ، فهو نفى بمعنى النهى أى : لا يمسنى أحد ، وهو
يلتزم النهى عما هو أعظم من مجرد المساس كالمصافحة والمعانقة .

وعلى هذا فقد فهمنا بأن المس أخف من اللمس ، فاللمس ما كان مبالغاً
فيه ، والمس هو أدنى ملاقة جسم لآخر ، وهذا هو الفرق بين اللمس والمس ،
والذوق اللغوى يوحى بهذا الفرق الدقيق .

فالمس لمس خفيف . واللمس مس ثقيل ، ومن الشواهد على خفة المس
دون اللمس قول أهل الجنة الذى حكاه عنهم القرآن ، وهو :

﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ ، إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ *
الَّذِى أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا
لُغُوبٌ ﴾ (٣) .

فنفوا أدنى درجات التعب والإعياء .

* *

(٣) فاطر : ٣٤ ، ٣٥

(٢) هود : ١١٣

(١) الإسراء : ٢٣

● منهج القرآن في « مس » :

- أولاً : كثرة ورودها فيه ، وكثرة تصريحاتها اللغوية .
- ثانياً : تردها بين المعانى الحقيقية والكنائية والمجازية .
- ثالثاً : استعمالها في مقام الشرور أكثر من مقام الخيور .
- رابعاً : اشتراكها مع « لمس » في أصل الدلالة وتفردا بخفة الملاقاة بين الماس والمسوس .
- خامساً : تردد إسنادها بين الخالق والمخلوق ، بخلاف لمس ، فلم تسند إلى الله قط ، لا حقيقة ولا مجازاً .
- سادساً : المس المسند إلى « المخلوق » هو ملاقة جسم لآخر سواء كان المس حقيقة لغوية أو مجازاً لغوياً أو كناية .
- أما المس المسند إلى الله ، فهو بواسطة ابتلاءاته نعماً كانت أو نقماً ، وليس ملاقة جسم لآخر ، رعاية لتنزيه الله وتقديسه عن صفات الحوادث ، وهذا مما يلفت النظر إلى سمو لغة القرآن المعجزة ، وحسن وفائها لعقيدة التوحيد .
- ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ (١) .

* *

● ثالثاً : المسح :

لا ريب أن المسح ضرب من ضروب ملاقة جسم لآخر ، أحدهما ماسح ، والآخر ممسوح ، كاللامس والملموس ، والماس والمسوس ، بيد أن فرقاً واضحاً بين المسح وكل من اللمس والمس ينبئ عنه الاستعمال القرآنى لكلمة « المسح » ، كما أنبأ عن الفروق بين كل من اللمس والمس .

(١) النساء : ٨٢

● أمثلة « المسح » :

الذى يدخل معنا من أمثلة « المسح » أربع آيات ، هى :

﴿ فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ﴾ (١)

﴿ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ ﴾ (٢)

﴿ فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ ﴾ (٣)

﴿ رُدُّوْهَا عَلَى فُطْفِقٍ مَّسَحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴾ (٤)

هذه المواضع الأربعة واحد منها خاص بمسح الرأس بالماء فى الوضوء ،
واثنان وردا فى مسح الوجوه والأيدى بالتراب فى التيمم . والمسح فيها ثلاثتها
مستعمل فى المعنى اللغوى الحقيقى ، أى ملاقة جسم لآخر كاللمس والمس
مع فارق مهم سنذكره بعد قليل .

أما الموضع الرابع ﴿ مَسَحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴾ الوارد فى الحديث عن
نبي الله سليمان - عليه السلام - فهو مسح مجازى لا حقيقى ؛ لأن المراد منه
أن سليمان لما شغلته خيله عن الصلاة وتنبه أخذ سيفه مسرعاً فجز أعناقها
وقطع قوائمها تخلصاً من الفتنة . فالمسح هنا مستعار للذبح والتقطيع ، إشارة
إلى الإسراع فى إبادتها إسراع المسح ليسره وسهولته .

وأيا كان الأمر فإن المسح - كما يفهم من الاستعمال القرآنى هو ملاقة
جسم لآخر ، والفرق بينه وبين كل من اللمس والمس أنه يكون مع إمرار
الجسم الماسح على الجسم المسوح ، وهذا هو الذى يحدث فى مس الرأس
بالماء فى الوضوء ، وفى مسح الوجه واليدين بالتراب فى التيمم .

* *

(١) النساء : ٤٣

(٢) المائدة : ٦

(٣) المائدة : ٦

(٤) سورة ص : ٣٣

● منهج القرآن في « المسح » :

أولاً : وروده في مقامى التشريع والقصص .

ثانياً : ترده بين الحقيقة والمجاز .

ثالثاً : قلة وروده بالنسبة إلى « اللمس » .

* * *

● الفروق بينها :

ونعيد - فى إيجاز - الفروق بين هذه الكلمات الثلاث فيما يأتى :

أولاً : كل من الكلمات الثلاث المراد منها ملاقة جسم لآخر .

ثانياً : الفرق بين اللمس والمس هو شدة الملاصقة فى اللمس وخفتها فى المس .

ثالثاً : المسح كاللمس والمس إلا أنه يفترق عنهما بتحريك الجسم الماسح على الجسم الممسوح . أما اللمس والمس فيكونان مع سكون الجسم اللامس والجسم الماس . والله أعلم .

* * *

المطر - الغيث

المطر والغيث كلاهما اسمان لنزول الماء من السحاب ، فكان ينبغي أن يكونا مترادفين ، لفظهما مختلف ، ومعناهما واحد ، وهذا هو وضعهما في معاجم اللغة . المطر هو الغيث ، والغيث هو المطر (١) .

أما في لغة البيان القرآني فالأمر مختلف ، فمع أن المطر والغيث اسمان لنزول الماء من السماء ، فإن القرآن الكريم يفرق بينهما تفرقة واضحة ، ولناخذ أولاً في سوق الأمثلة :

● أمثلة « المطر » :

- ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَأَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ (٢) .
- ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِّنْ سَجِيلٍ مُّنْضُودٍ ﴾ (٣) .
- ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَابًا مِّنْ سَجِيلٍ ﴾ (٤) .
- ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذِرِينَ ﴾ (٥) .
- ﴿ . . فَأَمْطَرَ عَلَيْنَا حِجَابًا مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ اثْنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (٦) .
- ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرْنَا مَطَرًا سَوًّا ﴾ (٧) .
- ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّنْ مَّطَرٍ ﴾ (٨) .

(١) المفردات : (٣٦٧) ، و « المصباح المنير » : (٤٥٨) .

(٢) الأعراف : ٨٤ (٣) هود : ٨٢ (٤) الحجر : ٧٤

(٥) الشعراء : ١٧٣ (٦) الأنفال : ٣٢ (٧) الفرقان : ٤٠

(٨) النساء : ١٠٢

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ، بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (١) .

فى هذه الآيات الثمانى خمسة أفعال ماضية مبنية للفاعل « أمطرنَا » مسندة إلى ضمير اسم الجلالة .

وفعل ماض واحد مبنى للمفعول والفاعل محذوف هو « الله » - عزَّ وجلَّ - وأربعة أسماء مصدر « مَطَرٌ » ، وواحد اسم فاعل « ممطرنَا » من الفعل الرباعى : « أمطر » .

وجميع ما ذكر من « أمطرنَا » ، و « أُمْطِرَتْ » ، و « مَطَرٌ » ، و « ممطرنَا » مستعمل فى مقام الشر والعذاب والأذى . حتى فى المقام الذى ظاهره الخير والتفاؤل ، وهو قول « عاد » :

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ﴾ ، فإن « ممطرنَا » مستعمل فى مقام الشر والعذاب لفظاً وتفسيراً ، أما « لفظاً » ، فإن « مُّمْطِرُنَا » اسم فاعل من الفعل الرباعى « أمطر » وعلماء اللغة مجمعون على أن « أمطر » بالهمزة لا يرد إلا فى مقام العذاب والانتقام ، أما « مَطَرٌ » بدون همزة واسم الفاعل منه « ماطر » ، فهو عند اللغويين لا يستعمل فى « الشر » (٢) ، وحكاية القرآن عن « عاد » ، وهى قولهم : « مُّمْطِرُنَا » حكاية صادقة ، فقد قالوا بالسنتهم ما يستحقونه بما كسبت قلوبهم ، وهذه إحدى « لطائف » البيان القرآنى المعجز .

وأما « تفسيراً » ، فإن القرآن عقَّب على قولهم هذا وبين حقيقة العارض الذى انخدعوا فيه ، فقال :

﴿ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

(٢) انظر المصباح المنير : (٤٦٧) .

(١) الأحقاف : ٢٤

إذن فهذا اللفظ « مطر » ومشتقاته لم يرد في لغة القرآن إلا في مقام الشر والعقاب ، ولم يخرج موضع واحد من مواضع وروده عن هذا النسق .

* *

● منهج القرآن في « المطر » :

أولاً : لم يستعمله القرآن إلا في مقام العذاب والانتقام من المعرضين عن رسالات الله . وفي مقام الأذى والابتلاء إذا ورد في سياق الحديث عن المؤمنين كما في قوله تعالى : ﴿ أَوْ كَانَ بِكُمْ أذى مِنْ مَطَرٍ ﴾ .
ثانياً : فاعل المطر والإمطار هو « الله » لفظاً ومعنى .

أما لفظاً فقد أسندت الأفعال المبنية إلى « الفاعل » إلى « الله » باعتبار الضمير العائد عليه .

وأما معني ؛ فليس في مقدور غير الله أن يحدث هذه الظاهرة ، وهي المطر والإمطار .

* *

● أمثلة « الغيث » :

- ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ ﴾ (١) .
- ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا ﴾ (٢) .
- ﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ﴾ (٣) .

هذه هي الآيات الثلاث التي ذُكر فيها الغيث في لغة القرآن ، والغيث والغوث : النجدة والعون . ومعنى هذا أن القرآن لم يستعمل « الغيث » إلا في مقام الإنعام والخير ، ويشاركه في هذا المقام الماء ، كقوله تعالى ممتناً على عباده :

(٢) الشورى : ٢٨

(١) لقمان : ٣٤

(٣) الحديد : ٢٠ ، (والكفار هنا الزراع) .

﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ .. ﴾ (١) .

﴿ .. وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا * لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنْآسِيَّ كَثِيرًا ﴾ (٢) .

وما أكثر الآيات التي ذكر فيها الماء في مقام التمدح الإلهي والتفضل على العباد ، أما المطر فلم يذكر قط في القرآن في مقام الإنعام على العباد ، وبهذا تنتفى صفة « الترادف » بين المطر والغيث ، وكذلك الماء ، هكذا نجد لغة القرآن .

* *

● منهج القرآن في « الغيث » :

أولاً : أنه في القرآن نعمة وفضل من حيث لفظه ، ومن حيث معناه : غيث أو غوث ونجدة .

ثانياً : ليس له فاعل إلا الله ﴿ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ ﴾ لا سواه .

ثالثاً : قلة وروده في القرآن الكريم .

* * *

(٢) الفرقان : ٤٨ ، ٤٩

(١) البقرة : ٢٢

النَّعْمَةُ - النَّعِيمُ

من الكلمات الكثيرة الورد في القرآن كلمتا : النعمة والنعيم ، وأصولهما : النون ، والعين ، والميم ، والفرق اللفظي بينهما تاء التانيث في الأولى ، والياء في الثانية ، أما المعنى فلا يكاد يرى أحد اختلافًا فيه ، فالنعمة هي النعيم ، والنعيم هو النعمة .

ولكن البيان القرآني يخص كلا منهما بمعنى ، فالنعمة فيه مقام ودلالة ، وللنعيم فيه مقام ودلالة ، مع أنهما - معًا - تدلان على ما يمن الله به على عباده من فضل وخير ومتاع ، والأمثلة الآتية توضح ذلك .

● أمثلة « النعمة » :

- ﴿ وَمَنْ يُدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (١) .
- ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ (٢) .
- ﴿ ذَلِكَ بَأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ (٣) .
- ﴿ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ (٤) .
- ﴿ .. رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ .. ﴾ (٥) .
- ﴿ .. وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا .. ﴾ (٦) .
- ﴿ .. ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ ﴾ (٧) .

(٣) الأنفال : ٥٣

(٢) البقرة : ٢٣١

(١) البقرة : ٢١١

(٦) النحل : ١٨

(٥) الأحقاف : ١٥

(٤) النحل : ٥٣

(٧) الزمر : ٨

﴿ .. الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي .. ﴾ (١) .
 ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ .. ﴾ (٢) .

هذه ثمانى آيات ذكرناها تمثيلاً لا استقصاء ، وردت فيها كلمة « نعمة » - بكسر النون - مسندة إلى الله ، أو مضافة إلى اسم آخر من أسمائه « رب » أو مسندة إلى ضمير لفظ الجلالة ، أو منسوبة إليه بواسطة حرف جر « فمن الله » ، و « منه » ، وبالنظر فى هذه الأمثلة وفى غيرها مما لم نذكره نلاحظ أن القرآن لم يستعمل كلمة « نعمة » ، ولا « نِعْمَةٌ » ، ولا « نعماء » إلا فيما يمين الله به على الناس فى هذه الحياة الدنيا ، سواء كان نِعْماً مادية أو روحية ، وهذه الدلالة مطردة فى القرآن فى الحديث عن النعم الدنيوية العاجلة ، هذا ونرجئ الحديث عن منهج القرآن فى « النعمة » إلى ما بعد التمثيل لكلمة « النعيم » والنظر فى دلالتها .

● أمثلة « النعيم » :

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ (٣) .

﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ (٤) .

﴿ وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴾ (٥) .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ ﴾ (٦) .

﴿ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ (٧) .

﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ ﴾ (٨) .

(٣) المائدة : ٦٥

(٢) الضحى : ١١

(١) المائدة : ٣

(٦) لقمان : ٨

(٥) الشعراء : ٨٥

(٤) الحج : ٥٦

(٨) الواقعة : ٨٩

(٧) الواقعة : ١١ ، ١٢

- ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ (١) .
 ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴾ (٢) .
 ﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴾ (٣) .
 ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثُمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴾ (٤) .

وفى هذه الآيات العشر جاءت كلمة « النعيم » مضافة إليها « جنات » فى خمسة مواضع ، ومضافة إليها « جنة » فى موضعين ، ومضافة إليها « نضرة » فى موضع واحد ، وغير مضاف إليها فى موضعين ، ومواضعها التى لم نذكرها جارية على هذا النسق .

والجدير بالاعتبار أن القرآن لم يستعمل كلمة « النعيم » فى جميع أحوالها إلا فى مقام الحديث عن إنعام الله على صالحى عباده فى الدار الآخرة ، على نقيض دلالة « النعمة » التى وقفها البيان القرآنى على الحديث عن نعم الله على خلقه فى الحياة الدنيا .

● إلا آية « التكاثر » :

﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ :

هذه الآية وردت فى ختام سورة « التكاثر » ، وفيها كلمة « النعيم » لا « النعمة » ، والمقام الذى وردت فيه ، فيه احتمالان :

أحدهما : أن يكون المراد بـ « النعيم » فيها : نعم الدنيا .

والآخر : أن يكون « النعيم » الذى ورد فيها مراداً به نعيم الآخرة ، ولكل من الاحتمالين مُسَوِّغٌ :

أما الأول : فلأن السؤال سيكون يوم الحساب : يوم يسأل كل امرئ عن

(٢) الانفطار : ١٣

(٤) الإنسان : ٢٠

(١) القلم : ٣٤

(٣) المطففين : ٢٤

شبابه فيم أبلاه ؟ وعن عمره فيم أفناه ؟ وعن ماله ممّ جمعه ؟ ، وفيم أنفقه ؟
وعن علمه فيم عمل به ؟

وأما الثاني : فلأن القرآن خصّ النعيم بآلاء الحياة الآخرة ، وهذا يقتضى أن
تكون الدلالة مطردة في جميع مواضع ذكره . وعلى هذا يحمل السؤال على
النعيم الحق ما هو ؟

أهو ما شغل الناس في الدنيا ، وهو جمع المال « التكاثر » ؟
أم هو نعيم الآخرة الخالد الخالي من كل المنغصات والمكدرات ؟ ولا
نستطيع أن نجزم بواحد من الاحتمالين .

والسر في اختصاص إنعام الآخرة بـ « النعيم » - فيما نرجح - أن « نعيم »
جاء على صيغة الصفة المشبهة « فاعيل » ، وهى تفيد الثبوت والدوام :
﴿ أَكُلُّهَا دَائِمٌ وَظُلُّهَا ﴾ ^(١) ، وهذا أولى من قول صاحب المفردات : « النعيم :
الخير الكثير ^(٢) » لأن الكثرة قد يوصف بها خير الدنيا . وهو زائل عن
صاحبه ، وصاحبه زائل عنه ، كما أن « نعيم » زائد في مبناه بـ « الياء »
عن « نعمة » وزيادة المبنى تدل على زيادة المعنى - غالباً - كما يقول علماء
اللغة ، فنعيم الآخرة - مع كثرته - دائم بلا انقطاع ، ذلك فضل الله يؤتيه
من يشاء .

* *

● منهج القرآن في « النعمة » ، و« النعيم » :

أولاً : يخص إنعام الدنيا بـ « النعمة » ويخص إنعام الآخرة بـ « النعيم » .
ثانياً : يغلب على « النعمة » الإسناد إلى اسم من أسماء الله تعالى أو إلى

(١) الرعد : ٣٥

(٢) مفردات الراغب : مادة : (ن ع م) .

ضمير عائد عليه ، أو الإضافة إلى اسم من أسمائه أو إلى ضمير عائد عليه :
أو تنسب إليه بواسطة « حرف جر » وقل مجيؤها مقطوعة عن الإسناد
والإضافة.

ثالثاً : يخص إنعام الآخرة بـ « النعيم » مضافة إليه « جنة » أو « جنات »
أو « نضرة » ، أى : بهجة وإشراق ، وقل مجيؤه غير مضاف إليه .

رابعاً : « النعيم » فى القرآن موسوم بالكثرة والصفاء والدوام ، أما النعمة
فمآلها الزوال إما بنفسها ، أو بموت صاحبها .

خامساً : استعمال القرآن لـ « النعمة » ، و« النعيم » يوحى بانتفاء
الترادف بينهما ، فلكل منهما مقام ، ولكل منهما معنى خاص بها ، وبهذا
جاء التنزيل الحكيم المعجز .

* * *

الجمال - الحُسْن

الجمال والحسن من الكلمات التى يكثر فى كلام الناس الوصف بها لأشياء مختلفة ، دون التقيد بما يكون موصوفاً بالجمال أو موصوفاً بالحسن ، وإحلال إحدى الكلمتين محل الأخرى أمر لا حرج فيه ، فما يصفه واصف بأنه جميل ، يصفه آخر بأنه حَسَن ، أو يصفه الواصف نفسه مرة بأنه حسن ، وأخرى بأنه جميل .

بل إن أئمة اللغة يسوون بين الجمال والحسن ، فهذا سيبويه إمام اللغويين والنحاة يفسر الجمال بأنه : رقة الحسن .

وقالوا فى بيان : تَجَمَّلَ تَجْمُلاً « أن معناه تَزَيَّنَ وتحسَّن (١) ، وقال الراغب : الجمال الحسن الكثير » (٢) .

هذا هو وضع الجمال والحسن فى اللغة ، وفى استعمالات الناس ، عامتهم وخاصتهم ، فهل هما فى لغة القرآن سواء ؟ وهل ما يوصف بالحسن يوصف بالجمال ؟ وما يوصف بالجمال يوصف بالحسن ؟

وهل إحلال إحدى الكلمتين محل الأخرى سائغ ومقبول ؟

إن الاستعمال القرآنى لهاتين الكلمتين هو الذى يحدد الإجابات الواضحة على هذه التساؤلات ، ولنبدأ بكلمة « الجمال » ومشتقاتها لقله ورودها فى لغة القرآن بالنسبة لورود الحسن ومشتقاتها :

* *

(١) المصباح المنير : مادة (ج م ل) - (١١٠) . (٢) المفردات : (٩٧) .

● أمثلة « الجمال » :

ونذكر جميع مواضعها في القرآن لقلتها :

- ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴾ (١)
- ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ (٢)
- ﴿ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴾ (٣)
- ﴿ فَتَعَالَيْنِ أُمَتِّعْكُنَّ وَأَسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾ (٤)
- ﴿ فَمَتَّعُوهُنَّ وَسَرَّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾ (٥)
- ﴿ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴾ (٦)
- ﴿ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴾ (٧)

النظر في هذه الآيات التي استعمل القرآن فيها « الجمال » ، و « جميل »
يسفر عن الحقائق الآتية :

• استعمل القرآن كلمة « جميل » سبع مرات ، وكلمة « الجمال » مرة واحدة .

• كلمة « جميل » لم ترد إلا وصفاً . والموصوف بها في هذه المواضع أمر معنوي معقول ، لا مادي محسوس . فقد وصف بها « الصبر » مرتين . ووصف بها « الصفح » مرة واحدة ، ووصف بها « التسريح » ، وهو الطلاق ، مرتين ، ووصف بها « الهجر » ، وهو الاعتزال ، مرة واحدة .

(١) النحل : ٦	(٢) يوسف : ١٨ ، ٨٣	(٣) الحجر : ٨٥
(٤) الأحزاب : ٢٨	(٥) الأحزاب : ٤٩	(٦) المعارج : ٥
(٧) المزمل : ١٠		

وكل هذه الموصوفات أمور ذهنية معنوية .

* أما « الجمال » فى آفة « النحل » ، فهو السعادة النفسية والمجد (١) .

وهو أمر نفسى شعورى .

* *

● منهج القرآن فى « الجمال » :

أولاً : لم يرد منه فى القرآن إلا المصدر « الجمال » ، والصفة المشبهة « جميل » .

ثانياً : لم يستعمل القرآن « الجمال » ، و « جميل » إلا فى سياق الحديث عن « الأمور المعنوية » غير الحسية المادية .

ثالثاً : قلة ورود المادة فيه بالنسبة لمادة (ح س ن) .

● أمثلة « الحسن » :

هذه المادة (ح س ن) كثيرة الدوران فى الذكر الحكيم ، وجاءت فيه فى صيغ متعددة :

أفعالاً ومصادر وصفات ، ثلاثية ، ورباعية ، وسنقتصر على سوق بعض آيات ورودها ، بالقدر الذى يُجَلِّى لنا منهج القرآن فيها ، ويوضح الفروق بينها وبين مادة : (ج م ل) ، ومن الله وبه التوفيق :

﴿ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴾ (٢) .

﴿ نَعِمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ (٣) .

(١) انظر : (الكشاف) للزمخشري (٢/٤٠١) .

(٢) النساء : ٦٩

(٣) الكهف : ٣١

- ﴿ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ ﴾ (١) .
- ﴿ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾ (٢) .
- ﴿ وَصَوَّرَكُمُ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ ﴾ (٣) .
- ﴿ وَإِنْ تَحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ (٤) .
- ﴿ وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ (٥) .
- ﴿ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ ﴾ (٦) .
- ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا ﴾ (٧) .
- ﴿ لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ ، وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ . . . ﴾ (٨) .
- ﴿ أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ (٩) .
- ﴿ أَفَمَنْ زِينَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَاهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ ﴾ (١٠) .
- ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ ﴾ (١١) .
- ﴿ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى ﴾ (١٢) .
- ﴿ وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ (١٣) .
- ﴿ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (١٤) .
- إجالة النظر فى هذه الآيات ترينا أن القرآن الحكيم يطلق « الحسن » ،

(١) الأنعام : ١٥٤	(٢) الكهف : ٣٠	(٣) غافر : ٦٤
(٤) النساء : ١٢٨	(٥) الكهف : ١٠٤	(٦) آل عمران : ١٤
(٧) العنكبوت : ٨	(٨) الأحزاب : ٥٢	(٩) القصص : ٦١
(١٠) فاطر : ٨	(١١) الحديد : ١١	(١٢) النساء : ٩٥
(١٣) القصص : ٧٧	(١٤) البقرة : ١٩٥	

و«الحَسَنَ» على الأمور المعنوية المعقولة ، وعلى الأمور المادية المحسوسة سواء بسواء ، ففي شأن زوجات النبي ﷺ وتبنيته على مَنْ في عصمته ، ونهيه عن التزوج بغيرهن يقول : ﴿ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ ﴾ .

والْحُسْنُ في النساء مادی محسوس .

وفي سياق الحديث عن « الوعد » يقول : ﴿ وَعَدًا حَسَنًا ﴾ .

وْحُسْنُ الوعود معنوی معقول .

وفي سياق الحديث عن « القرض » يقول : ﴿ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ ، وْحُسْنُ القرض معنوی اعتباری ، وهو خلوه من المن ، وأن يراد به وجه الله .

والْحُسْنُ فيه كالجَمال ، وَالْحَسَنُ كالجميل في المصدرية والوصف ، ولكل منهما : (الْحُسْنُ وَالْحَسَنُ) مقام . فالْحُسْنُ مقامه أن لا يقع وصفًا مباشرًا لموصوف مذكور في الكلام ، ﴿ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ ﴾ .

أما « الْحَسَنُ » فوصف مباشر لموصوف مذكور قبله في الكلام ، مثل : ﴿ أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعَدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ ﴾ .

وبهذا يظهر الفرق جليًا بين « الجمال » ، و« الْحُسْنُ » في لغة القرآن .

* *

● منهج القرآن في « الْحُسْنُ » :

أولاً : هو أوسع دائرة ، وأكثر ورودًا وصيغًا لغوية من « الجمال » .

ثانيًا : يطلق القرآن « الْحُسْنُ » ومشتقاته على الأمور الحسية والأمور المعنوية، فكل جميل فيه حَسَنٌ ، وليس كل حَسَنٌ جميلًا ما لم يكن أمرًا اعتباريًا .

ثالثًا : الحُسْنُ فى القرآن كالجَمال كلاهما مصدران . والحَسَنُ فيه كالجَميل كلاهما وصفان .

رابعًا : يأتى « الحُسْنُ » فى القرآن « عمدة » لا « وصفًا » تابعًا لموصوف ، أما « الحَسَنُ » فيأتى فيه وصفًا مباشرًا لموصوف مذكور قبله فى الكلام .

ذلك هو منهج القرآن فى « الحُسْنِ » ، و« الحَسَنِ » ، والفرق بينهما وبين « الجمال » ، و« الجميل » نسق محكم لا خلط فيه ولا غموض .

﴿ وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (١)

* * *

المَيِّتُ - المَيِّتُ

المَيِّتُ والمَيِّتُ كلمتان أصولهما الثلاثية واحدة ، هي الميم والياء والتاء ، وهما من كلمات القرآن الحكيم ، والاستعمال القرآني يكشف عن فرق عظيم بينهما ، والوقوف على هذا الفرق بين : مَيِّتٌ بسكون الياء ، ومَيِّتٌ بتحريك الياء مشددة يحسم خلافاً نشأ قديماً وما يزال قائماً بين العلماء من مفسري كتاب الله الكريم وغيرهم من الباحثين . وسنعود لهذه المسألة بعد التمثيل لـ « مَيِّتٌ ومَيِّتٌ واستجلاء الفرق بينهما :

● أمثلة « مَيِّتٌ » :

- ﴿ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ ، وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ﴾ (١) .
- ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ﴾ (٢) .
- ﴿ ... حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ ... ﴾ (٣) .
- ﴿ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ... ﴾ (٤) .
- ﴿ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ﴾ (٥) .
- ﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ... ﴾ (٦) .
- ﴿ ... فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ... ﴾ (٧) .

(٣) الأعراف : ٥٧

(٢) الأنعام : ٩٥

(١) آل عمران : ٢٧

(٦) الروم : ١٩

(٥) إبراهيم : ١٧

(٤) يونس : ٣١

(٧) فاطر : ٩

﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾ (١) .

﴿ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴾ (٢) .

فى هذه الآيات التسع ذكر اسم الفاعل : مَيِّت ، وَمَيِّتُونَ ، وَمَيِّتِينَ أربع عشرة مرة ، وكان معناه فى كل هذه المرات : الحى الذى قُضِيَ عليه بالموت ، فهو سيموت بعد حياته تلك .

والدليل على هذا خطاب الله لرسوله حال حياته :

﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾ ، هذا دليل قاطع على أن القرآن أطلق كلمة « مَيِّت » ، و« مَيِّتُونَ » على الرسول ﷺ ، وعلى أصحابه - رضى الله عنهم - ، وهو حى ، وهم أحياء . و« مَيِّتُونَ » وصف شامل لكل حى بعد صحابة رسول الله من الناس جميعاً ؛ لأن الموت سنة من سنن الله فى الأحياء من خلقه .

وفى كتب اللغة :

« وَأَمَّا الْحَى فَمَيِّتٌ بِالتَّثْقِيلِ لَا غَيْرَ ، وعليه قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾ ، أى : سيموتون » (٣) .

● الموصوف نوعان :

فى الآيات التسع المذكورة نجد الموصوف بكلمة « مَيِّت » نوعين :

الأول : ما كان له روح نشأت عنها الحياة ، وهم الموصوفون فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾ .

والثانى : ما ليس له روح وهو الأرض كما فى قوله - عزَّ سلطانه - : ﴿ فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ .

(٢) الصافات : ٥٨

(١) الزمر : ٣٠

(٣) المصباح المنير : (مادة : م و ت ٥٨٤) .

● سؤال :

ويترتب على ما قلناه من أن القرآن يطلق كلمة « مَيّت » على الحى الذى سيموت ، سؤال وجيه حاصله أن القرآن وصف « البلد » مرتين بـ « مَيّت » ، كما أجرى على لسان بعض أهل الجنة أنه قال :
﴿ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ * إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى . . ﴾ .

و« البلد » التى وصفت بـ : « ميت » غير قابلة للموت لأنها لا زرع فيها ولا ماء ، وخلوها من الزرع والماء هو موتها الواقع بالفعل ، فكيف ستموت بعد موتها هذا ؟

وأهل الجنة أحياء أبداً لا يموت منهم أحد . فكيف يستقيم القول بأن القرآن يطلق « ميت » أيا كان نوع الموت حقيقياً أم مجازياً على الحى الذى سيموت ؟
● الجواب :

والجواب - فيما نرى - يتلخص فى الآتى :

* أما ما حكى عن بعض أهل الجنة فهو حكاية حال ماضية وسياق الكلام يقضى بهذا .

﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ * قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ * يَقُولُ إِنَّكَ لِمَنِ الْمُسَدَّقِينَ * إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ ﴾

﴿ قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُّطْلَعُونَ * فَأَطَّلَعَ فَرَأَاهُ فِي سَوَاءٍ الْجَحِيمِ * قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينَ * وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ * أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ * إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ (١) .

فقول بعض أهل الجنة - هذا - تذكير لقرين السوء بما قال فى الحياة الدنيا،

(١) الصفات : ٥٤ - ٥٩

بعد أن وقع ما كان يكفر به ، وأهل الجنة ليسوا بمعذبين ، وإنما قال هذا لقرينه تعريضاً وتبكيّاً ، وبهذا يندفع السؤال المعارض على اطراد القاعدة التي لاحظت لنا ، يندفع هذا السؤال في شقه المتعلق بهذه الآية : ﴿ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴾ .

* أما الشق الثانى المتعلق بوصف « البلد » بـ « مَيِّتٌ » فقد هدينا فى الإجابة عليه إلى الآتى :

والجواب من وجهين :

* كان الأصل أن يوصف « البلد » بـ « مَيِّتٌ » الساكن الوسط لا المحرك المشدد « مَيِّتٌ » تشبيهاً له بمن مات من الأحياء - كما سيأتى . ولكنه وصف بـ « مَيِّتٌ » المحرك المشدد الوسط تشبيهاً له بالحنى الذى سيموت . وهذا يجاب عنه من وجهين :

الأول : أن الآيتين اللتين وصف فيهما « البلد » بـ « مَيِّتٌ » اتفقتا فى أمرين :

أ - أن السحاب مسوق « سقناه » فى « الأعراف » ، و « فسقناه » فى الزمر .
ب - أن « السَّوْقُ » فيهما معدى بحرف جر « لبلد » فى الأعراف و « إلى بلد » فى الزمر .

وهذا معناه أن مسافة ممتدة بين منشأ السحاب ، وبين البلد الذى سيق إليه ، فلا يبعد أن يكون فى هذا « البلد » آثار من حياة ريثما يصل إليها السحاب فيجدد أسباب الحياة فيها ، فعومل - أى البلد - معاملة « الحى » الذى سيموت .

ذلك أن الفعل « سقناه » وحرف الجر المعدى به « إلى - لـ » لا بد أن تكون لهما دلالة فى بناء الجملة ، وهذه الدلالة هى التى نصصنا عليها قبلاً .

الوجه الثاني : أن يكون المراد من « البلد » أهله ، وهم قطعاً أحياء سيموتون . ونظير هذا فى القرآن من إطلاق المكان وإرادة أهله قوله تعالى : ﴿ وَكَمْ مِّنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴾ (١) .
وغير ذلك فى القرآن كثير .

وبهذا تطرد القاعدة التى يكشف عنها منهج القرآن فى كلمة « مَيِّت » .

* *

● منهج القرآن فى كلمة « مَيِّت » :

أولاً : يستعمل القرآن كلمة « مَيِّت » بتحريك الوسط وتشديده وصفاً للحى الذى سيموت ، وليس وصفاً لمن مات من الأحياء .

ثانياً : كما استعمل « مَيِّت » فى الدلالة اللغوية الوضعية وفى الدلالة على الموت المجارى لما لا روح فيه .

ثالثاً : جاءت ثلاثة مواضع خارجة عن الأصل الذى أشرنا إليه من حيث ظاهر اللفظ ، وقد طرحنا حولها وجهة نظر ، نرجو أن تكون صائبة ، تقضى بإطراد القاعدة القرآنية فى المواضع الأربعة عشر إن شاء الله .

* *

● أمثلة « مَيِّت » :

﴿ أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشَىٰ بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا .. ﴾ (٢) .
﴿ .. وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا * لِّنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيِّتًا .. ﴾ (٣) .

(٣) الفرقان : ٤٨ ، ٤٩

(٢) الأنعام : ١٢٢

(١) الأعراف : ٤

- ﴿ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيِّتًا ۖ ﴾ (١) .
- ﴿ أُيْحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ (٢) .
- ﴿ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيِّتًا ، كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴾ (٣) .
- ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِتِيرِ ﴾ (٤) .
- ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِتِيرِ ﴾ (٥) .
- ﴿ . . . وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ ﴾ (٦) .
- ﴿ . . . إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِتِيرٍ ﴾ (٧) .
- ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِتِيرِ ﴾ (٨) .
- ﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا ﴾ (٩) .

فى هذه الآيات الإحدى عشرة جاءت « ميت » وصفاً مجازياً خمس مرات ،
والموصوف هو « بلدة » فى ثلاثة مواضع ، والأرض فى موضع واحد ،
والجاهل أو الضال أو الكافر فى موضع واحد .

ووصف « بلدة » ، و« الأرض » بـ « ميت » تشبيهاً لهما بالميت الحقيقى
فى عدم النفع على سبيل الاستعارة التصريحية ، التى حذف فيها المشبه وذكر
المشبه به .

ووصفت الجاهل أو الضال أو الكافر بـ « ميت » فهو استعارة - كتلك -
والجامع بين الجاهل والضال والكافر ، وبين الميت موتاً حقيقياً هو عدم
الاعتداد بالحياة مع الجهل والضلال والكفر . هذا هو الجانب المجارى فى
استعمال « ميت » فى لغة القرآن الحكيم ، أما المواضع الستة الأخرى ، فقد

(١) الزخرف : ١١	(٢) الحجرات : ١٢	(٣) سورة ق : ١١
(٤) البقرة : ١٧٣	(٥) المائدة : ٣	(٦) الأنعام : ١٣٩
(٧) الأنعام : ١٤٥	(٨) النحل : ١١٥	(٩) يس : ٣٣

استعمل القرآن كلمة « مَيِّت » فيها فى معناها اللغوى الوضعى أو الحقيقى ، وهو مفارقة الروح البدن . وجاء ذلك على ضربين :

الأول : فى شأن الإنسان مرة واحدة فى قوله تعالى :

﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا ﴾ .

الثانى : فى شأن ما يؤكل لحمه من الأنعام والطيور والدواجن فى خمسة مواضع من الآيات المذكورة . وهذه الآيات الإحدى عشرة هى كل ما فى القرآن الذى استعمل فيه « مَيِّت » بسكون الياء .

※ ※

● منهج القرآن فى : « مَيِّت » :

أولاً : يستعمل القرآن كلمة « مَيِّت » الساكن الوسط فى الدلالة على الموت المعروف ، وهو مفارقة الروح البدن .

ثانياً : مجئ « مَيِّت » فى القرآن مجازاً فى خمسة مواضع وحقيقة فى ستة مواضع . وقد تقدم تفصيله .

※ ※

● تعقيب :

وقد يسأل سائل : لماذا اختصَّ « مَيِّت » المشدد الوسط بالحى الذى سيموت؟ .

ولماذا اختصَّ « مَيِّت » الساكن الوسط بمن كان حياً فمات فعلاً .

والجواب :

قد تكون هيئة اللفظ - والله أعلم - لها مدخل فى هذا الاختصاص فى الموضعين :

فالمشدَّد الوسط : « مَيِّت » ، فيه حركة صاخبة ، وشِدَّة ملحوظة عند النطق به ، وهذا يناسب الحياة بما فيها من قوة ونشاط . أما « مَيِّت » الساكن

الوسط ففيه رخاوة وضعفٌ يلحظان - كذلك - عند النطق بـ « مَيِّت » ، وهذا يناسب الموت بما فيه من انقطاع الحركة والنشاط . وليس هذا ببدعٍ فما أكثر الكلمات التى بينها هيئة ونطقاً ، وبين معناها تلازم وتلاحم .

* *

● يخرج الحى من الميت :

عرفنا بما تقدم أن القرآن يطلق على الحى الذى مصيره الموت كلمة « الميت » بتحريك الياء وتشديده ، ويُطلق على من كان حياً ثم مات فعلاً كلمة « الميت » بسكون « الياء » ، وهذا مطرد فى لغة القرآن ، لا يقبل جدلاً . وقد أشرنا من قبل أن هذا الفهم من شأنه أن يحسم خلافاً قديماً وما يزال قائماً بين مفسرى القرآن وغيرهم حول آيات وردت فى القرآن الحكيم تدور وتكرر حقيقة واحدة هى :

إخراج الله الميت من الحى ، وإخراجه الحى من الميت ، وتلك الآيات هى :

﴿ قُلْ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعْزِزُ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ ، بِيَدِكَ الْخَيْرُ ، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ * تُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ، وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ، وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿ (١) .

﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى ، يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ، ذَلِكَمُ اللَّهُ ، فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴾ (٢) .

﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْ مَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ،

(١) آل عمران : ٢٦ ، ٢٧

(٢) الأنعام : ٩٥

فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ، فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ * فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ ، فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقُّ إِلَّا الضَّلَالُ ، فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴿١﴾ .

﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ (٢) .

هذه هي الآيات الأربع التي تحدثت عن هذه الحقيقة الإلهية ذكرناها كاملة - وأحياناً - مع جارتها - كما في آية آل عمران - ؛ لأن المقام يقتضى ذلك لما لهذه الآيات - بطولها - من صلة بالمعنى الجديد الذى هُدينا إليه ، راجين الله أن نكون موفقين فيه ، وأن يكتب له القبول عند أهل العلم وصالحى المؤمنين .

* *

● مذاهب المفسرين فى الموضوع :

حاول المفسرون تفسير هذه الحقيقة الإلهية ، وذكروا فيها أقوالاً مختلفة ، وفيما يأتى نسوق بعضاً من أقوالهم فى آية آل عمران ؛ لأنها أول آية فى المصحف الشريف تحدثت عن هذه الحقيقة الإلهية العظيمة ، وبعد الفراغ من ذكر أقوالهم نذكر المعنى الجديد الذى هُدينا إليه .

يقول أبو السعود العمادى : ﴿ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ ﴾ ، أى : تنشئ من موادها ، أو من النطفة ، وقيل : تخرج المؤمن من الكافر ، ﴿ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ﴾ ، أى : تخرج النطفة من الحيوان ، وقيل تخرج الكافر من المؤمن (٣) .

وذكر ابن عطية أقوالاً مشابهة ثم قال :

(٢) الروم : ١٩

(١) يونس : ٣١ ، ٣٢

(٣) تفسير أبى السعود (إرشاد العقل السليم) (٢٢ / ٢) .

« واختلف المفسرون فى قوله تعالى : ﴿ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ ﴾ ، فقال الحسن : معناه : تخرج المؤمن من الكافر ، والكافر من المؤمن .. وقال عكرمة : هو إخراج الدجاجة ، وهى حية من البيضة ، وهى ميتة ، وإخراج البيضة ، وهى ميتة ، من الدجاجة ، وهى حية » (١) .

وقال النسفى : « ﴿ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ ﴾ ، أى : الحيوان من النطفة ، أو الفرخ من البيضة ، أو المؤمن من الكافر ، و﴿ تُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ﴾ ، النطفة من الإنسان ، أو البيضة من الدجاج ، أو الكافر من المؤمن » (٢) .

ويقول الشوكانى : « ﴿ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ ﴾ تخرج الرجل الحى من النطفة الميتة . ﴿ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ﴾ ، تخرج النطفة الميتة من الرجل الحى .. أو هى البيضة تخرج من الحى ، وهى ميتة ، ثم يخرج منها الحى .. أو المؤمن من الكافر ، والكافر من المؤمن » (٣) .

ويتابع الطاهر بن عاشور ، وهو من المفسرين المعاصرين - يتابع ما قاله المفسرون الأقدمون ، فيقول :

« وإِخْرَاجُ الْحَيِّ مِنَ الْمَيِّتِ هو إخراج أطفال الحيوان من النطف ومن البيض ، فالنطفة أو البيضة تكون لا حياة فيها ، ثم تتطور إلى الشكل القابل للحياة ، ثم تكون فيها الحياة .. وإِخْرَاجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ إخراج النطفة والبيض من الحيوان » (٤) .

(١) المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز : (٥١/٣) .

(٢) تفسير أبى البركات عبد الله بن أحمد النسفى : (١٥٢/١) .

(٣) فتح القدير : (٣٨٠/١) ، للإمام الشوكانى (م ١٢٥٠ هـ) ، وقد ساق آثاراً منها أحاديث منسوبة للنبي ﷺ ولم ينص على صحتها .

(٤) تفسير التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور (١٥٦/١١) .

فالتاھر بن عاشور لم يأخذ عن المفسرين إلا هذا القول ، وترك ما عداه
كإخراج المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن ، وكأنه لم يرتض تلك الأقوال
التي أعرض عنها ، وهو على حق في ذلك .
والذي اعتمده الطاهر قول صحيح في جملة ، ولكن طريقة تفسيره لا
تصح .

وابن عاشور وغيره اعتبروا النطفة والبيضة ميتتين وهذا هو مكن الخطأ
في التفسير ، وقد وجد بعض خصوم الإسلام مدخلاً للطعن في صدق القرآن
بناء على هذا التفسير ، وقد أشار الشيخ يوسف الدجوى - رحمه الله - في
فتاويه إلى بعض طعون هؤلاء الحاقدين (١) .

ذلك أن العلم الحديث أثبت للنطفة وللبيضة حياة كاملة تليق بتركيب كل
منهما . فراح هؤلاء الحاقدون يحاولون أن يشككوا في صدق القرآن متخذين
من التفسير المذكور مدخلاً لطعنهم على كتاب الله العزيز الذي لا يأتيه
الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

والواقع أن القرآن ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ ، وهذه الطعون لا تصدق عليه ،
فالقرآن لم يقل إن « الحى » هو الحيوان ، وإن الميت هو النطفة والبيضة ،
وإنما هذه اجتهادات مفسرين ، وهم بشر يصيبون ويخطئون ، أما « النص
القرآنى » فهو فوق هذه التصورات « الاجتهادية » والأوهام الحاقدة ، والآن
نعرض على القارئ المعنى الجديد الذى هُدىنا إليه واطمأنت قلوبنا به ، وركنت
نفوسنا إليه ، واقتنعت به عقولنا .

* *

(١) مقالات وفتاوى الشيخ يوسف الدجوى (٢/٢٥) وما بعدها - طبعة مجمع
البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف .

● المعنى الجديد :

عرفنا مما تقدم أن القرآن الحكيم استعمل كلمة « مَيّت » فى من كان حيا حياة حقيقية ثم مات موتًا حقيقيًا ففارقت روحه بدنه .

وأنه استعمل كلمة « مَيّت » بتحريك الياء وتشديدها فى مَنْ هو حى سيموت يومًا ما .

فإذا أخذنا بمنهج القرآن فى هذا الاستعمال المطرد - ولا بد لنا من الأخذ به - كان معنى ﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ ، وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ﴾ هو توالد الأبناء من الآباء والأمهات ، أيًا كانوا ، من بنى آدم ، أو من غيرهم ، على أن حملة على الآدميين أظهر وأشهر .

الآباء والأمهات حين يتوالد عنهم أبنائهم - ذكورًا وإناثًا - يوصفون حسب منهج القرآن الحكيم بأنهم (مَيِّتُونَ) أى أحياء مصيرهم الموت .

والأبناء حين يتوالدون يصدق عليهم قطعًا أنهم (أحياء) ثم إن هؤلاء الأبناء لما كان مصيرهم مصير آبائهم وأمهاتهم فى أنهم أحياء مقضى عليهم بالموت ، فإنهم يصدق عليهم ما صدق على أصولهم ، فقال فى شأنهم : ﴿ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ﴾ ، وهكذا يُحْكَمُ الله سنته فى عباده ، فليس منهم أحد خالداً لا من كان عهده بالحياة أقدم ، وهم الآباء والأمهات ، ولا من كان عهده بالحياة أحدث ، وهم الأبناء ، فكلٌ منهم يحمل وصفين ، وهما : حياة ثم موت لاحق .

وقدمت حياة الأبناء ﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ ﴾ لأنهم أحدث حياة وأبقى - فى الأغلب - من أصولهم .

وقدّم موت الأصول ﴿ مِنَ الْمَيِّتِ ﴾ على موت الفروع فى الشق الثانى

من الآية ﴿ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ﴾ ؛ لأنه أسبق من موت الأبناء - فى الأغلب - .

وهذا التكرار فى الحى والميت والتقديم والتأخير فيهما يسميه البلاغيون « العكس والتبديل » .

هذا الفهم المنبثق من خصائص الاستعمال اللغوى فى القرآن أولى بالاعتبار للأسباب الآتية :

أولاً : لأنه يسدُّ منافذ الطعن فى صدق التنزيل الحكيم ، ويحكم قبضة الدفاع عنه إحكاماً يستحيل على أهل الزيغ والهوى اختراقه .

ثانياً : لأنه يليق بمقام التمدح الإلهى وجلال قدرته وبديع صنعه وحكمة تصرفه فى خلقه . وتبدل أحوالهم .

ثالثاً : لأنه إجراء للدلالة اللغوية فى القرآن فى كلمتى : « الميت » ، و« الميت » على نسق واحد فى هذه الآيات الأربع والآيات الأخرى التى وردت فيها .

رابعاً : لأنه لا يمنع منه مانع قط ، فضلاً عما يتضمنه من مزايا وألويات .

* * *

مَدَّ - أَمَدٌ

مَدَّ وَأَمَدٌ لهما أصول ثلاثية مشتركة بينهما ، وهى الميم والداال والدَّال المدغمة فيها . ودلالتهما فى اللغة أشار إليها الراغب ، فقال :
« وأكثر ما جاء الإمداد - يعنى أمد ومصدره - فى المحبوب والمدُّ فى المكروه » (١) .

هذا ما جزم به صاحب المفردات ، أى أن الفرق بين مَدَّ وأَمَدَّ أن الأصل فى « مَدَّ » مجيؤه فى المكروه ، وقد يستعمل فى المحبوب .
وأن الأصل فى « أَمَدَّ » استعماله فى المحبوب ، وقد يجئ فى المكروه .
فإذا كان هذا هو منهج اللغة فيها - بوجه عام - فما هو منهج لغة القرآن فيهما ؟

هل هو كما قال الرغب ؟ أم لهما فيه شأن آخر ؟
والإجابة على هذا تتضح بعد التمثيل والنظر ، فتعال معى إليهما فى لغة التنزيل الحكيم .
● أمثلة « مَدَّ » :

﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا ﴾ (٢) .
﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ ، وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ﴾ (٣) .
﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ . . ﴾ (٤) .

(١) المفردات : (٤٩٥)

(٢) الرعد : ٣

(٣) الفرقان : ٤٥

(٤) الحجر : ١٩ ، وسورة ق : ٧

- ﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ ﴾ (١) .
- ﴿ كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ ، وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴾ (٢) .
- ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا ﴾ (٣) .
- ﴿ مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ ﴾ (٤) .
- ﴿ وَلَوْ أَنَّكَ فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ ، وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ . . ﴾ (٥) .
- ﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمْدُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ (٦) .
- ﴿ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَى ثُمَّ لَا يَقْصِرُونَ ﴾ (٧) .
- ﴿ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ﴾ (٨) .

هذه اثنتا عشرة آية استعملت فيها كلمة « المد » على صيغتي الفعل الماضي والمضارع ، وقد أسفر النظر في هذه الآيات أن القرآن الحكيم يفرق بين « مدَّ يمدُّ » إذا جاءت في سياق الحديث عن الإنسان وبين مجيئها في سياق الحديث عن غير الإنسان .

فإذا جاءت في سياق الحديث عن الإنسان فإن دلالتها في هذا المقام مرتبطة بـ « المكروه » ، أو في « مقام الشر » ، وجاء ذلك في سبع آيات من الآيات المذكورة مضمومًا إليها آية « طه » المشار إليها في الهامش رقم (١) .

ومن هذا « المكروه » ما هو محرم ، وهو مد الأعين إلى ما متع الله به بعض عباده ؛ لأن من خلُق المؤمن أن يرضى بما قسم الله له بعد الأخذ بالأسباب .

(١) الحجر : ٨٨ ، وطه : ١٣١
 (٢) مريم : ٧٩
 (٣) مريم : ٧٥
 (٤) الحج : ١٥
 (٥) لقمان : ٢٧
 (٦) البقرة : ١٥
 (٧) الأعراف : ٢٠٢
 (٨) الانشقاق : ٣

وهكذا بقية المواضع :

المد فى العذاب ، المد فى الضلال ، المد فى الغنى ، المد فى الطغيان ،
المد فى الظنون المعادية للإيمان .

أما إذا جاءت فى سياق الحديث عن غير الإنسان فإن القرآن يستعملها فى
« مقام المحبوب » أو مقام الخير مع العظة والاعتبار ، وجاءت على هذا النسق
فى خمس آيات ، والخير أو المحبوب فيها هو :

مدُّ الأرض وبسطها لنفع الناس وغيرهم .

مدُّ الظل وتحريكه وتعاقب الضياء بعده فى نظام بديع .

مدُّ البحر بسبعة أبحر للفت النظر إلى سعة علم الله .

مدُّ الأرض يوم القيامة فيحظى الصالحون برضوان الله وبيوء الطالحون
بالخسران ، فمنهج القرآن إذن فى « مد » هو الآتى :

* *

● منهج القرآن فى « مد » :

أولاً : اختصاصها بالمكروه أو الشر إذا جاءت مجرأة على أوضاع
الإنسان .

ثانياً : اختصاصها بالمحبيب أو الخير إذا جاءت مجرأة على غير الإنسان .

وما أشار إليه الراغب من قبل من مجئ « المد » فى الخير والشر مع غلبة
الشر أو المكروه فيها كلام صائب إذا قارنَّا بين منهج القرآن - هنا - وبين كلام
الراغب ، ولكن فاتته هذا التفصيل الذى هدينا إليه من واقع لغة القرآن نفسها ،
والتفرقة القرآنية بين « مد » حديثاً عن الإنسان ، و« مَدَّ » حديثاً عن غير
الإنسان جديرة بالتأمل لأنها من سمات الإعجاز فيه .

* *

● أمثلة « أمد » :

- ﴿ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ * أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴾ (١) .
 ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ ﴾ (٢) .
 ﴿ وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهِةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ (٣) .
 ﴿ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانُ قَالَ أَتُمَدُّونَنِي بِمَالٍ .. ﴾ (٤) .
 ﴿ كُلَّا نُمَدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ .. ﴾ (٥) .
 ﴿ أَيْحَسِبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ
 بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (٦) .
 ﴿ بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمَدِّدْكُمْ رَبُّكُمْ
 بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ (٧) .
 ﴿ وَيُمَدِّدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ .. ﴾ (٨) .
 ﴿ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمَدِّدْكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُزَكِّينَ ﴾ (٩) .
 ﴿ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّينَ ﴾ (١٠) .
- في هذه الآيات تكرر الفعل « أمد - يمد » عشر مرات ، واسم الفاعل منه
 « ممدكم » مرة واحدة ، وغير خاف أن القرآن الكريم استعمل كل هذه
 المواضع في مقام الخير ، أو في مقام « المحبوب » ، ولم يخرج موضع واحد
 منها عن هذا النسق .
- وغير خاف - كذلك - أن جميع هذه المواضع وردت في سياق الحديث
 عن الإنسان مترددة بين الوعد الحسن ، والخبر الصادق ، ولم يشذ منها موضع
 واحد عن هذا الإطار .

* *

(١) الشعراء : ١٣٢ ، ١٣٣	(٢) الإسراء : ٦	(٣) الطور : ٢٢
(٤) النمل : ٣٦	(٥) الإسراء : ٢٠	(٦) المؤمنون : ٥٥ ، ٥٦
(٧) آل عمران : ١٢٥	(٨) نوح : ١٢	(٩) آل عمران : ١٢٤
(١٠) الانفال : ٩		

● لماذا هذا الاختصاص :

قلنا إن « مدَّ » إذا استُعْمِلَ في القرآن في سياق الحديث عن الإنسان اختُصَّ بالمكروه ، وأن « أمد » إذا جاءت في سياق الحديث عن الإنسان - ولم تأت في غيره قط - اختُصت بالخير أو « المحبوب » فلماذا إذاً هذه التفرقة القرآنية بين « مدَّ » ، و « أمد » مُجَرَّيْن على الإنسان ؟

والجواب :

أشار بعض علماء اللغة إلى أن « المدُّ » معناه الجر - أى السحب أما « الإمداد » فمعناه الزيادة في الخير والتقوية من أمددت الجيش إذا عززته بقوة أخرى من الجند والسلاح .

وعلى هذا فإن القرآن في استعماله لـ « مدَّ - أمد » راعى هذين المعنيين . فكان « المد » فيه مهانة ، والإمداد كرامة ، والمد مصدر مدَّ ، والإمداد مصدر « أمد » .

أما ما ذكره الراغب من أن الأصل في « أمدَّ » الاستعمال في « المحبوب » ويقل استعماله في « المكروه » فهذا لا وجود له في لغة القرآن ، فكل مواضع كانت في مقام « المحبوب » (١) .

* *

● منهج القرآن في « أمدَّ » :

- أولاً : قَصُرُ دلالتها على « المحبوب » أو الخير دائماً .
- ثانياً : قَصُرُ استعمالها في سياق الحديث عن الإنسان .
- ثالثاً : لم يرد منها شيء في مقام « المكروه » أو الشر .

* * *

(١) وليس للراغب دليل على قوله هذا في آيتي « المؤمنون » (٥٥ - ٥٦) المذكورتين في الهامش رقم (٦) في صفحة (١٢٦) لأن الإمداد بالمال والبنين بما تحبه النفوس حتى لو كان استدراجاً من الله للعصاة من عباده .

العمل - الفعل

العمل والفعل يبدوان مترادفين على معنى واحد ؛ لأنهما شديداً التقارب ، وبعض اللغويين ذهب إلى أن الفعل أخص من العمل ، ودليله على هذا أن العمل يحتاج إلى قَصْدٍ وهدف عند العامل ، ولذلك فإنه لا يُسند إلى غير العاقل من الحيوانات أو الجمادات ، بينما الفعل يُسند إلى العاقل وغير العاقل ، ويندر إسناد العمل لغير العقلاء ، وإنما كان العمل والفعل متقاربين في الدلالة ؛ لأنهما كنايةان عن صدور « حَدَثٍ » من « مُحَدِّثٍ » هذا هو « الأصل » الجامع بينهما .

وهاتان الكلمتان كثيرتا الاستعمال - وبخاصة عمل - في لغة القرآن الحكيم ، وقد رأينا القرآن في الكلمات التي درسناها من قبل ، رأينا يستعمل مفردات اللغة استعمالاً أمثل موسوماً بالإعجاز والتفرد ، جاريًا على سنن العرب في طرائق البيان المختلفة ، موظفًا اللغة - مفردات وتراكيب - توظيفًا يسمو فوق أفصح الأساليب التي عُرِفَتْ عنهم ، وفوق أبلغ ما أُنْثِرَ عنهم من نماذج البيان الناصع والكلام المحكم .

وسيراً على المنهج الذي انتهجناه من قبل في دراسة مفردات اللغة المستعملة في القرآن ، واستخراج ما فيها من أسرار لاحت ، ودقائق إعجازية ظهرت سيراً على هذا المنهج نمضي مع « عمل » ، و« فَعَلَ » في القرآن ، وننظر إلى ما يسفر عنه النظر فيهما .



● أمثلة « عمل » :

مادة « عمل » من أكثر المواد استعمالاً في لغة القرآن والإحاطة بها - هنا -
عزيزة المنال ، فلنذكر بعضاً من مواضع ورودها بقدر ما يُسَعِفنا بالتعرف على
أبرز سمات المنهج القرآني فيها :

﴿ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ... ﴾ (١)

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَثْنَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً... ﴾ (٢)

﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا... ﴾ (٣)

﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا ، وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا... ﴾ (٤)

﴿ ... وَتُوقَىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (٥)

﴿ ... وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ، وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ (٦)

﴿ ... وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (٧)

﴿ ... فَالْقُوا السَّلَامَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ... ﴾ (٨)

﴿ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ، وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ (٩)

﴿ قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ... ﴾ (١٠)

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴾ (١١)

(٣) غافر : ٤٠

(٢) النحل : ٩٧

(١) البقرة : ٦٢

(٦) الكهف : ٤٩

(٥) النحل : ١١١

(٤) آل عمران : ٣٠

(٩) النساء : ١٢٣

(٨) النحل : ٢٨

(٧) البقرة : ٨٥

(١١) يس : ٧١

(١٠) الأنعام : ١٣٥

النظر فى هذه الآيات - بمختلف صيغها يسفر عن الحقائق الآتية :

* أن القرآن يستعمل مادة (ع م ل) فى جانبى الخير والشر ﴿ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ - ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ .. ﴾ - ﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً ﴾ - ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾ .

* أن استعمال القرآن لها فى جانب الخير أضعاف استعمالها فى جانب الشر ، وبخاصة الفعل الماضى منها ، حيث أوقع بكثرة لا مثيل لها على «الصالحات» .

* يذكر معمولها بكثرة إذا كانت فعلاً ماضياً ، ويحذف ذلك المعمول بكثرة بماثلة ، إذا كانت فعلاً مضارعاً ، مثل قوله تعالى : ﴿ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ .

* يستعملها - أحياناً - شاملة لجانبى الخير والشر ، كقوله تعالى : ﴿ وَتُوفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾

* يستعملها كثيراً فى مقام التهديد إذا كانت فعل أمر ، كقوله تعالى : ﴿ وَقُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ .

* ومن اللافت للنظر أن هذه المادة على كثرة ورودها فى القرآن لم يأت منها موضع واحد أسندت فيه إلى اسم الجلالة - الله - أو اسم آخر من أسمائه الحسنى ، أو إلى ضمير عائد على اسم من أسمائه الكريمة . وإنما جاءت مسندة إليه بواسطة « الأيدى » ، فى قوله تعالى :

﴿ أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴾
مع ملاحظة مهمة ، وهى :

أن هذا الإسناد غير المباشر جاء فى حيز الفعل « خلقنا » ، وهو « عمدة الجملة » بلا نزاع .

* أن القرآن الحكيم خلا خلُواً تاماً من إسناد أى فعل من هذه المادة إلى

أسماء الله إسنادًا مباشرًا ، كما خلا من إسنادها إلى أى ضمير يعود عليها .
وهذا مما يدعو إلى التأمل والتفكير .

● ولماذا خلا ؟

كلام الله مُحْكَمُ كفعله ، ولا بد أن يكون لخلو القرآن من إسناد « عمل » -
يعمل « إلى اسم من أسمائه المباركة ، أو ضمير عائد على شيء منها ، لا بد
أن يكون لذلك من حكمة ، فما هى يا ترى ؟

والجواب :

العمل - كما قال بعض أهل العلم - يحتاج إلى تفكير ومقارنة بين الفعل
والترك ، وتقليب النظر فى صورته واختيار ما يهدي إليه النظر فيها . والله
سبحانه - لا يخفى عليه شيء ولا تلتبس عليه الأمور . هذه واحدة .

والثانية : أن العامل قد يعمل له غيره ، والله غنى عن العالمين .

والثالثة : أن العامل يعمل ليحصل على ثمرة عمله من خير هو فقير إليه ،
والله أغنى الأغنياء .

لهذه المحظورات - والله أعلم - خلا القرآن من إسناد (عمل - يعمل)
إلى أسماء الله الحسنى ، تقديسًا له وتنزيهاً ورعاية لواجبات عقيدة التوحيد .

● منهج القرآن فى « عَمَلٍ » :

أولاً : الإكثار من استعمالها فى المحبوب وقلة استعمالها فى المكروه .

ثانيًا : خلوه من الإسناد المباشر لله أو أى اسم آخر من أسمائه الحسنى ،
أو أى ضمير عائد عليها تنزيهاً له وتقديسًا .

ثالثًا : مجيؤها - أحيانًا - شاملة للخير والشر فى صيغة واحدة ،
وبخاصة فى الفعل المضارع الواقع فى فواصل الآى .

● أمثلة « فعل » :

فعل كعمل فى استفاضة ورودها فى القرآن الحكيم ، وسنسلك فى التمثيل لها ما سلكناه فى « عمل » بقدر ما يمكننا من الوقوف على منهج القرآن الحكيم فيها :

﴿ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنَ قَبْلِهِمْ ، وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (١) .

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ ... ﴾ (٢) .

﴿ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ ... ﴾ (٣) .

﴿ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ ... ﴾ (٤) .

﴿ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ﴾ (٥) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (٦) .

﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ (٧) .

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ (٨) .

﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ (٩) .

﴿ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ (١٠) .

﴿ كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴾ (١١) .

(٣) المائدة : ٧٩

(٢) آل عمران : ١٣٥

(١) النحل : ٣٣

(٦) الحج : ٧٧

(٥) النساء : ١٢٧

(٤) البقرة : ١٩٧

(٩) البقرة : ٢٥٣

(٨) النحل : ٩١

(٧) الانفطار : ١٠ - ١٢

(١١) المرسلات : ١٨

(١٠) آل عمران : ٤٠

﴿ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ ﴾ (١) .

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴾ (٢) .

﴿ . . وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ ، وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ (٣) .

الآيات الأربع عشرة التي تقدمت ، ترسم لنا بكل وضوح ملامح المنهج القرآنى فى استعمال مادة (ف ع ل) والقارئ الكريم يستطيع أن يستشف تلك الملامح إذا أنعم النظر فى هذه الآيات .

* وغير خاف أن القرآن يستعمل صيغ « فعل » فى مجالى المحبوب والمكروه ، أو الخير والشر مثلما جاءت فيه مادة « عمل » من قبل .

ففى الخير - مثلاً - كان قوله تعالى : ﴿ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ ﴾ ، وفى الشر : ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً ﴾ .

* جاءت « فعل » ومشتقاتها مسندة إلى غير الله كثيراً ، وهى التى تتردد بين مجالى الخير والشر ، أو المحبوب المرغَّب فيه ، والمكروه المنفَر منه .

* وجاءت مسندة إلى « الله » وبعض أسمائه الحسنى « رب » كما جاءت مسندة إلى ضمير اسم الجلالة ﴿ كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴾ .

* ما أُسْنِدَ منها إلى اسم « الجلالة » أو « رب » أو إلى ضمير عائِد عليه شمل الفعلين الماضى والمضارع ، ثم اسم الفاعل : ﴿ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ ، وصيغة المبالغة ﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ (٤) .

* والمسند منها إلى « الله » و« رب » واسمى الفاعل والمبالغة على ضربين :

الأول : التمدح بجلال الله ﴿ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ .

الثانى : التهديد والاعتبار : ﴿ كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴾ ، ثم :

(١) إبراهيم : ٤٥

(٢) الفيل : ١

(٣) الأنبياء : ٧٩

(٤) البروج : ١٦

﴿ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ ﴾ ، ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِّن قَبْلُ ﴾ . (١)

أو الاعتبار فحسب ، مثل قوله تعالى :

﴿ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ ، وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾ .

* خلو المسند إلى الله من المادة من فعل الأمر لاستحالة وجود من يأمره ، وهو العلى العظيم . حتى على سبيل الدعاء مع ورود مثله فى ﴿ إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ لأن فعل الأمر المستعمل (قرآنيا) فى الدعاء متعلقه مخصوص كطلب الهداية ، والنصر ، وغفران الذنوب ، وهذا إلا يتأتى فى « افعل » لعموم معناه .

وكما خلا من « فعل الأمر » وإن كان على سبيل الدعاء خلا من المضارع المنهى عنه « لا تفعل » حتى على سبيل الدعاء كذلك ؛ لأن علة امتناع الأمر « افعل » هى علة امتناع « لا تفعل » تنزيهاً لله وتقديساً ، ورعاية لواجبات عقيدة التوحيد ، هكذا نزل القرآن مُحْكَمًا بريئاً من المآخذ لأنه نزل بعلم الله .

* *

● منهج القرآن فى « فَعَلَ » :

أولاً : استعمال « فَعَلَ » فى مجالى الخير والشر إذا أسندت إلى غير الله .

ثانياً : مجيؤه مسنداً إلى « الله » و « رب » والضمير العائد عليه فى صيغ الفعلين الماضى والمضارع واسم الفاعل وصيغة المبالغة .

ثالثاً : ما جاء مسنداً إلى « الله » منها إما للتمدح بجلال الله ، أو للتهديد مع العظة والاعتبار ، أو الاعتبار فقط .

(١) سبأ : ٥٤

رابعاً : لم يأت منه مسنداً إلى « الله » فعل أمر ولا نهى وإن على سبيل الدعاء تقديساً لله وتنزيهاً ، ورعاية لواجبات عقيدة التوحيد .

* *

● لماذا المنع هناك والجواز هنا ؟

فى مادة « ع م ل » عرفنا خلو القرآن من إسنادها إلى « الله » أو اسم آخر من أسمائه الحسنى ، أو ضمير عائذ عليه . كما عرفنا سبب ذلك الخلو .

أما « فَعَلَ » فقد أُسندت إلى « الله » مرات . والسبب - فيما نعتقد - انتفاء الموانع التى لوحظت فى « عمل » ، ومن أبررها أن الفعل هو ما صدر عن الفاعل مباشرة بدون واسطة .

وأن أفعال الله صادرة عن قوة سلطانه ، والفعل - كما قال اللغويون : لا يحتاج إلى تفكير وطول نظر بل الشأن فيه أن يصدر ابتداء .

لذلك - وغيره - امتنع إسناد « عمل » إلى « الله » وجاز إسناد « فعل » إليه ؛ لأنه من صفات الكمال والجلال والجمال .

* * *

الجهاد - القتال

الجهاد والقتال كلمتان ثقيلتا الوزن إذا كانا في سبيل الله وأدباً بخلوص النية ، وصدق العزم ، وبراً من الأهواء ، ووقعا موقعهما من الصحة والصواب ؛ ولغة القرآن حفلت بالأمر بهما ، والترغيب فيهما ، وجزيل المثوبة عليهما ، وهما - وإن اتحد موضوعهما - ليسا بمعنى واحد من كل الوجوه ، بل بينهما فرق جليٌّ كما ينبئ عنهما استعمال القرآن لهما . ذلك الفرق نتبينه من النظر في النماذج القرآنية الآتية :

● أمثلة « الجهاد » :

- ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ .. ﴾ (١) .
- ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ .. ﴾ (٢) .
- ﴿ وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ ، إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ (٣) .
- ﴿ لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولَى الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ، فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ، وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى ﴾ (٤) .
- ﴿ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ .. ﴾ (٥) .
- ﴿ وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا .. ﴾ (٦) .
- ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ .. ﴾ (٧) .

(٣) العنكبوت : ٦

(٢) التوبة : ١٦

(١) التحريم : ٩

(٥) المائدة : ٥٤

(٤) النساء : ٩٥

(٧) الحج : ٧٨

(٦) العنكبوت : ٨ ، وانظر آية « لقمان » (١٥)

﴿ فَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ (١) .
﴿ وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٢) .

الجهاد فى سبيل الله هو تحمل المشاق فى نصره دين الله ودحر الباطل سواء كان باللسان أو بالمال أو بحمل السلاح ومقاتلة العدو إذا وجب القتال .
ويشمل الجهاد كل عمل يؤديه المؤمن من شأنه إعلاء كلمة الله ، فيجاهد المؤمن نفسه لتتأنى عن المعاصى والمنكرات ، ويجاهد غيره فيدعوهم إلى القيام بواجباتهم الدينية والدنيوية ، أمراً بالمعروف ، ناهياً عن المنكر ، داعياً إلى الخير .

ووسائل هذا الجهاد أكثر من أن تُحصى :

خطبة تُؤدَّى ، أو محاضرة تُلقى ، أو مقالة تُنشر ، أو إصلاح بين الناس أو مال تُسدُّ به حاجات المعوزين ، أو كتاب يتصدى لدعوى المارقين أو تعليم لبث الوعي ، أو مرض يعالج ، أو استعمار يُقاوم ، أو مساجد تُشاد ، أو مستشفيات ، أو ملاجئ أيتام تقام .

والقتال فى سبيل الله أسمى مراتب الجهاد ، وله دواعٍ خاصة به ، وأسباب تقتضيه . بيد أن الجهاد أوسع دائرة من القتال . لأن الجهاد هو الجهد المبذول بإخلاص بغية إعلاء كلمة الله .

دليل ذلك أن الله سمى إلحاح الوالدين على ولدهما ليشرك بالله مجاهدة ، وهما لا يحملان على ولدهما سلاحاً .

كما سمى إقامة الحجة على « الكافرين » بالقرآن ، ومجادلتهم به جهاداً ، ﴿ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ (٣) .

(١) الفرقان : ٥٢ (٢) التوبة : ٤١ (٣) انظر « تفسير النسفى » (١٧١/٢) .

ولما كان الجهاد أوسع دائرة من القتال فإنه يصدق على نشاطات الدعوة كلها . وله في لغة القرآن ضوابط منظمة هي :

- * أن يكون في سبيل الله لا في أغراض أخرى عصبية أو شخصية .
- * أن يكون لإعلاء كلمة الله ابتغاء مرضاة الله مع خلوص النية والتجرد .
- * أن يكون بالحكمة والموعظة الحسنة .

* *

● منهج القرآن في « الجهاد » :

أولاً : اتساع دائرته بما يشمل نشاطات الدعوة كلها ، ووسائله لا تكاد تُحصى ، وعلى كل فرد في الأمة عبء منه حسب مقدرته وميدان عمله في المجتمع .

ثانياً : أن يكون عملاً واعياً ومخلصاً مراداً به وجه الله وإعلاء كلمته في كل شأن من شئون الحياة .

ثالثاً : أن يكون بالحكمة ، والموعظة الحسنة .

* *

● أمثلة القتال :

إذا كان الجهاد مشتقاً من « الجهد » وهو المشقة ، فإن القتال مشتق من القتل ، أو مرادف له في الدلالة مع أعمية « القتال » و« أخصية » القتل .

ومن أمثلة « القتال » في القرآن الآيات الآتية :

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ ، يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ، وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ

وَالْإِنْجِيلَ وَالْقُرْآنَ ، وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي
بَايَعْتُمْ بِهِ ، وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١﴾ .

﴿ وَلَنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مِتُّمْ لَمَغْفِرَةً مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةً خَيْرٌ مِّمَّا
يَجْمَعُونَ ﴾ (٢) .

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا ، بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ
يُرْزَقُونَ ﴾ * فَرَحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا
بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ إِلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ * يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ
اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ .

﴿ .. فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَاتَلُوا
وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
ثَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ ، وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴾ (٤) .

﴿ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا
عَظِيمًا ﴾ (٥) .

﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ؛ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ
الْمُعْتَدِينَ ﴾ (٦) .

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ ، وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ
خَيْرٌ لَّكُمْ ، وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا
تَعْلَمُونَ ﴾ (٧) .

﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً .. ﴾ (٨) .

(٢) آل عمران : ١٥٧

(٤) آل عمران : ١٩٥

(٦) البقرة : ١٩٠

(٨) التوبة : ٣٦

(١) التوبة : ١١١

(٣) آل عمران : ١٦٩ - ١٧١

(٥) النساء : ٧٤

(٧) البقرة : ٢١٦

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا كَانَتْهُمْ بُنْيَانٌ مَرَّصُونَ ﴾ (١)

هذه الآيات بعض من حديث القرآن عن القتال وفضله ، وقداسته ، وهو - كما سبق - أسمى درجات الجهاد ، لهذا نجد القرآن يبدئ ويعيد في فضله والجزاء الحسن الجميل الذى أعده الله للمقاتلين ، سواء قتلوا فى سبيل الله ، أو حققوا الغلب على العدو ، وأعلّوا كلمة الله خفاقة فى الآفاق .

ونلاحظ تفاوتاً كبيراً فى المثوبة على مجرد الجهاد ، والمثوبة على خوض غمار المعارك ، لما فيه من تعريض النفس للأخطار - وكلاً وعد الله الحسنى - وللقتال فى القرآن ضوابط ، كما كان للجهاد ضوابط ، إلا أن ضوابط القتال أكثر حيطة ، وأشد إحصاءاً ، لأن القتال فيه إرهاب للأرواح ، وإسالة للدماء فكان لا بد فيه من « ضمانات » تكفل العدالة ، وتصور الحقوق ، وترعى الحرمات .

هذه الضوابط منها ثلاثة جاءت مجموعة فى آية واحدة :

﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ ، وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ .

فهو أولاً : لا يكون إلا فى إعلاء كلمة الله ، وهذه عبارة جامعة لمعان كثيرة .

وهو ثانياً : لا يكون إلا مع الذين يقاتلوننا فعلاً أو عزمًا مؤكدًا .

وهو ثالثاً : مشروط بعدم الاعتداء والتجاوز .

وورود كلمتى « الجهاد » و« القتال » فى لغة القرآن مبدآن تنظيميان للحفاظ على الحقوق ورعاية الحرمات ، ونصرة الحق ، ودحر الباطل ، الجهاد يؤدي

(١) الصف : ٤

دوره فى الداخل بالحكمة والموعظة الحسنة ، والقتال يدفع الأخطار الخارجية ، ويصد أى عدوان يمس رسالة الأمة ، أو يهدد أمنها . كلاهما - الجهاد والقتال - صماما الأمن العام والخاص . ولكل عدوان سلاح يليق به ، فإذا لم تحقق الوسائل السلمية الأهداف ، فلا مناص من شهر السلاح حتى يحكم الله بيننا وبين الخصوم .

* *

● منهج القرآن فى «القتال» :

- أولاً : هو ضرورة تدعو إليها ظروف لا يُجدى فيها إلا حملُ السلاح .
- ثانياً : هو أخص من « الجهاد » المرادف لـ « الدعوة » وأسمى درجات الجهاد .
- ثالثاً : يحيطه القرآن بـ « ضمانات » محكمة لئلا يترتب عليه ظلم أو قتل برئ .
- رابعاً : أجره عند الله أعظم من « مجرد الجهاد » بالوسائل السلمية لما فيه من أعباء جسام ، وتعريض النفس لأقبح الأخطار .
- خامساً : أن يكون لإعلاء كلمة الله ، ونصرة الحق ، ودحر الباطل ، وتأمين الحقوق ، ورعاية الحرمات ، وتحقيق الأمن خارجياً وداخلياً .

* * *

المُخْطِئ - الخَاطِئ

تشارك هاتان الكلمتان فى ثلاثة أصول ، هى : الخاء والطاء ، والهمزة ، ولكل منهما بعد هذا الاشتراك تصريفاتها اللغوية ، بل ودلالاتها الخاصة بها ، وللغويين آراء متباينة حول المعانى التى تدلان عليها ، فمنهم من يسوى بينهما فى الدلالة ، ومن يسوى بينهما فى الدلالة أبو عبيدة ، فهما عنده بمعنى واحد هو « ضد الصواب » (١) ، أى أن أخطأ وخطئ سواء .

ومنهم من قال : خطئ فى الدين - أى فى أمور الدين ، وأخطأ عام فى كل شئ عَمْدًا كان أو غير عمد (١) .

أما لغة القرآن فإن لكل كلمة منهما معنى خاصًا بها ، ولم تأت واحدة منهما مكان الأخرى .

وسنخالف المنهج الذى اتبعناه من قبل بعض المخالفة ، فنذكر أمثلة الكلمتين تباعًا ثم ننظر ما تدل عليه كل منهما .

● أمثلة « أخطأ » :

أخطأ اسم الفاعل منها « مخطئ » ، و « خَطِئَ » اسم الفاعل منها « خاطئ » ، أما مصدر الأولى فهو فى الأصل : « إخطاء » كأرسل « إرسال » ، ولكن القرآن لم يستعمله ، بل استعمل اسم المصدر « خطأ » ، ولم يستعمل منه اسم فاعل ، وعلى هذا يجرى التمثيل :

﴿ .. رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا .. ﴾ (٢) .

(٢) البقرة : ٢٨٦

(١) المصباح المنير : (١٧٤) .

﴿... وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ (١) .

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً...﴾ (٢) .

﴿... وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ ، وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ...﴾ (٢) .

هذا كل ما ورد في القرآن من « اخطأ » فعلاً ومصدراً .

* *

● أمثلة « خطي » :

﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ * لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ﴾ (٣) .

﴿وَأَسْتَغْفِرِي لِدُنْبِكَ إِنَّكَ كُنْتَ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ (٤) .

﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ (٥) .

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ (٦) .

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ (٧) .

﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ، إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطَاً كَبِيراً﴾ (٨) .

﴿كَلَّا ، لَنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنْسِفَا بِالنَّاصِيَةِ * نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ (٩) .

﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ (١٠) .

(٣) الحاقة : ٣٦ ، ٣٧

(٢) النساء : ٩٢

(١) الأحزاب : ٥

(٦) يوسف : ٩٧

(٥) يوسف : ٩١

(٤) يوسف : ٢٩

(٩) العلق : ١٥ ، ١٦

(٨) الإسراء : ٣١

(٧) القصص : ٨

(١٠) الشعراء : ٨٢

﴿ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِنَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا . . ﴾ (١) .

إن ما يسفر عنه النظر فى هذه الآيات هو الحقائق الآتية :

* جاءت صياغات « خطئ » كثيرة التنوع بالنسبة لصيغ أخطأ . فهناك لم يأت إلا الفعل (الماضى) ثم أسم المصدر ، أما هنا فجاءت اسماً واسم فاعل مذكر ومؤنث ، كما جاءت مصدراً ، واسم الفاعل جمعاً ومفرداً .

* أن القرآن يفرق بين دالتي الكلمتين تفرقة دقيقة فى كل صورهما .

فـ « أخطأ » معناها : جانبه الصواب سواء كان الخطأ مقصوداً أو غير مقصود ، بدليل قوله تعالى :

﴿ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ ، وَلَكِنْ مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾

أما « خطئ » وجميع صورها فمعناها : اثم ، أو ارتكب إثماً ، وهذا ظاهر جداً ، خذ إليك - مثلاً - قوله تعالى :

﴿ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ * لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴾ ، أى :
« الكافرون أصحاب الخطايا ، وخطئ الرجل إذا تعمد الذنب » (٢) .

وقول العزيز لامراته التى راودت يوسف عن نفسه ، ﴿ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴾ ، أى : المذنبين الآثمين .

وقول إخوة يوسف - عليه السلام - : ﴿ وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴾ ، أى آثمين حين القوا يوسف فى البئر وكذبوا على أبيهم وزعموا أن الذنب أكله وهم عنه غافلون .

وقوله تعالى فى النهى عن قتل « الاولاد » خشية الفقر : ﴿ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطِيئًا كَبِيرًا ﴾ .

(٢) تفسير النسفى : (٢٨٩/٤) .

(١) طه : ٧٣

إذن فقول بعض اللغويين أن « أخطأ » و« خطئ » بمعنى واحد فيه غفلة
وبُعد عن الصواب .

وكذلك ما نراه شائعاً - الآن - فى وسائل الإعلام وفى كتابات كثير من
أصحاب الأقلام ، حيث يستعملون « خاطئ » و« خاطئون » مكان « مخطئ » ،
و« مخطئون » ولو كان الأمر كما يقولون - فى الواقع - لما التزم الكتاب
العزیز كلمة « خطئ » وصورها فى الدلالة على « الإثم » و« أخطأ » فى
الدلالة على مجانبة الصواب .

* *

● منهج القرآن فى « أخطأ » و« خطئ » :

أولاً : التفرقة الواضحة بين « دالتيهما » ، فالأولى بمعنى مجانبة
الصواب ، سواء كان « الخطأ » مقصوداً أو غير مقصود ، والخطأ المقصود إثم
ولكن باعتبار القصد والنية ، وهى أمر نفسى خفى ، لا من حيث دلالة
اللفظ .

والثانية بمعنى الإثم والذنب ، وكل صورها فى القرآن تدل دلالة واضحة
على هذا المعنى .

ثانياً : « خطئ » أكثر استعمالاً وصوراً فى لغة القرآن ، وأكثر تصرفاً من
« أخطأ » .

ثالثاً : اختصاص « أخطأ » بمقام التشريع مدنياً وجنائياً (الإيمان - القتل
الخطأ) .

أما « خطئ » فمختصة بمقام السلوك الإنسانى عقيدة ، وأخلاقاً ، وبسيرة .
هذه الدقة فى استعمال مفردات اللغة ، التى تلوح لنا من خلال دراستنا
لبعض مفردات لغة القرآن ، هذه الدقة التنظيمية العجيبة وجه عظيم من وجوه
الإعجاز البلاغى للقرآن العظيم ، وحقاً إنه أنزل بعلم الله المحيط .

* * *

غفر - كَفَّرَ

هاتان الكلمتان : غفر - كَفَّرَ . يكاد استعمالهما أن يكون مقصوراً على لغة القرآن ، فإن لهما فيه وبخاصة غفر - لشأناً عظيماً ، والسبب في قلة استعمالهما في غير القرآن أن معناهما والوصف بهما من المعاني والأوصاف العلية التي يستأثر بها الله نفسه إلا ما ندر ، وإسنادهما والوصف بهما يتطلبان في المسند إليه والموصوف اعتبارات ليس لها وجود حقيقة إلا في العلى القدير . فإن أُسْنِدَ منهما شيء أو وصف بهما - غير الله - ففيه شيء من التسامح أو التجوز .

والذى نريده من دراسة هاتين الكلمتين في القرآن هو استخراج منهج القرآن فيهما ، وهل هما بمعنى واحد أم أن لكل كلمة منهما معنى ؟ ثم الدقائق واللطائف في استعمال القرآن لهما . وقبل الأخذ في التمثيل والنظر نلفت نظر القارئ إلى ورود هاتين الكلمتين - وصورهما - له في القرآن ثلاث طرائق :

الأولى : أن يُذْكَرَا معا في سياق واحد .

الثانية : أن تذكر « كفر » في سياق مستقل .

الثالثة : أن تذكر « غفر » في سياق خاص بها .

فلنسر في التمثيل لهما على هذا النسق ، وبالله ومنه التوفيق ، وبدهى أننا لن نتقيد في التمثيل بصيغتي الفعل الماضى (غفر - كَفَّرَ) بل سنمثل لكل صورهما الواردة بقدر ما تسمح لنا فرصة الوقوف على منهج القرآن فيهما .

* *

● ورودهما فى سياق واحد :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ، وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ (١) .

﴿ رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا ، رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴾ (٢) .

فى هاتين الآيتين جُمع بين « غفر - كفر » فى سياق واحد مع ملاحظة أن « غفر » خُصَّت بالذنوب ، و « كفر » خُصَّت بالسَّيِّئَات .

* *

● ورود « كفر » وحدها :

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴾ (٣) .

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ (٤) .

﴿ ... لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴾ (٥) .

﴿ ... لَنُؤَقِّمَنَّكَ الصَّلَاةَ وَآتِيَنَّكَ الزَّكَاةَ ، وَآمَنُتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ... ﴾ (٦) .

(٣) محمد : ٢

(٢) آل عمران : ١٩٣

(١) الأنفال : ٢٩

(٦) المائدة : ١٢

(٥) آل عمران : ١٩٥

(٤) المائدة : ٦٥

- ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلَكُمْ مُدْخَلَ كَرِيمًا ﴾ (١)
- ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٢)
- ﴿ إِن تَبَدُّوا الصَّدَقَاتِ فَنَعَمَّا هِيَ ، وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ، وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِّنْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾ (٣)
- ﴿ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا ﴾ (٤)
- ﴿ لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ﴾ (٥)
- ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ... ﴾ (٦)
- ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ﴾ (٧)
- ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ... ﴾ (٨)
- ﴿ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ ﴾ (٩)
- ﴿ ذَلِكَ كَفَّارَةٌ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ... ﴾ (١٠)
- ﴿ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسَاكِينَ ... ﴾ (١١)

هذه مواضع ورود « كفر - يكفر - كفارة » ، منها اثنتا عشرة مرة جاءت فيها فعلاً ماضياً أو مضارعاً أو أمراً (دعاء) ، وثلاث مرات جاءت فيها اسماً « كفارة » ، ونلاحظ أن ما جاء منها كان مفعوله « السيئات » أو « أسوأ »

(٣) البقرة : ٢٧١

(٢) العنكبوت : ٧

(١) النساء : ٣١

(٦) التغابن : ٩

(٥) الفتح : ٥

(٤) الزمر : ٣٥

(٩) المائدة : ٤٥

(٨) التحريم : ٨

(٧) الطلاق : ٥

(١٠ ، ١١) المائدة : ٨٩

مثلما كانت « السيئات » مفعولها - كذلك - فى الموضعين اللذين جُمع فيهما بينها وبين « غفر » .

وهذا من أبرز خصائص منهج القرآن فى « كَفَرَّ » حيث لم ترد فيه معداة إلى غير « السيئات » كما أنها لم تأت - ولا فى موضع واحد - محذوفة المفعول أو منزلة منزلة اللازم غير المعدى هذه واحدة .

أما الثانية : فإن « كَفَرَّ - يَكْفُرُ - كَفَرٌ » ليس لها فاعل فى لغة القرآن إلا الله ، فهى مسندة إليه دائماً ، إما إلى لفظ الجلالة « الله » ، أو إلى ضمير عائد عليه فى الأفعال الثلاثة :

﴿ كَفَرَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ﴾ - ﴿ يَكْفُرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ﴾ - ﴿ وَكَفَرُ عَنَّْا سَيِّئَاتِنَا ﴾ - ﴿ لِيَكْفُرَ اللَّهُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ﴾ .

والثالثة : أنها جاءت - دائماً - مقرونة بحرف الجر مجروراً به ضمير « عنهم » أو « عنكم » أو « عنه » مع أنها فعل يتعدى بنفسه ولا يحتاج واسطة ، ولهذا مغزى بلاغى عظيم ، وهو إظهار الامتنان على المتحدث عنهم والتفضل عليهم بنعمة الله .

وزان ذلك أن قول أحدها : « أَدَّيْتُ دَيْنَ فلان » ، غير قوله « أَدَّيْتُ عن فلان دَيْنَه » ففى « عنه » إظهار لبراءته وتحمل الغرم عنه ، أما العبارة الأولى فتخلو من هذه اللطيفة الحانية .

والرابعة : أن ما جاء منها فعلاً اختص بمقام الوعد الحسن ، إلا موضعاً واحداً جاء فى مقام « الدعاء » ﴿ كَفَرُ عَنَّْا سَيِّئَاتِنَا ﴾ .
أما ما جاء اسماً ، فهو مختص بمقام التشريع كما هو ظاهر .

* *

● منهج القرآن فى « كَفَرَّ » :

أولاً : تخصيصها بـ « السيئات » أو « أسوأ » دائماً .

- ثانيًا : قصرُها على « الله » دون غيره من الفاعلين .
- ثالثًا : اقترانها - دائماً - بحرف الجر « عن » ومجروره ضمير المتحدث عنهم جمعاً وإفراداً ، خطاباً وغبية .
- رابعاً : إذا كانت فعلاً مضارعاً أو ماضياً اختصت بمقام الوعد الحسن ، وإذا كانت فعل أمر اختصت بمقام الدعاء .
- خامساً : ما جاء منها اسماً اختص بمقام التشريع .
- سادساً : التزام تعديتها إلى مفعول ، ولم ترد بمنزلة اللارم قط .
- سابعاً : قصر استعمالها على الأفعال والأسماء ، ولم يأت منها اسم فاعل « مكفر » ولا اسم مفعول « مكفر » ولا صيغة مبالغة « كفار » إلخ .
- ثامناً : شفع الوعد بها بوعد حسن غيرها كإصلاح البال في « محمد » وإدخال الجنات في « المائدة » و « آل عمران » ، والجزاء الحسن في « العنكبوت » وإعظام الأجر في « الطلاق » .
- وهكذا جميع مواضع ورودها فعلاً ، حيث لم يخل موضع واحد منها من إنعام الله عن المتحدث عنهم .
- تاسعاً : قلة ورودها بالنسبة لنظيرتها « غفر » عدداً وصيغاً .

* *

● « غَفَر » وحدها :

مادة « غ ف ر » كثيرة الاستعمال في لغة « القرآن » عدداً وصيغاً . وسبيلنا معها التمثيل لصورها لا الاستقصاء لتعذره هنا . ومنهجنا في التمثيل لها سيكون على النسق الآتي :

* الماضي متعدياً ومنزلاً منزلة اللارم .

* المضارع متعدياً ومنزلاً منزلة اللارم .

* الأمر متعدياً ومتزلاً منزلة اللازم .

* ثم الصور الأخرى غير الفعلية .

* إسنادها لغير الله .

● الماضي متعدياً ولازماً :

﴿ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ ، وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ (١)

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ .. ﴾ (٢)

﴿ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي .. ﴾ (٣)

* *

● المضارع متعدياً ولازماً :

﴿ وَأَدْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ .. ﴾ (٤)

﴿ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ .. ﴾ (٥)

﴿ .. وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ .. ﴾ (٦)

﴿ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ، أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ .. ﴾ (٧)

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ .. ﴾ (٨)

* *

● الأمر متعدياً ولازماً :

﴿ وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا .. ﴾ (٩)

(٣) يس : ٢٦ ، ٢٧

(٢) القصص : ١٦

(١) سورة ص : ٢٥

(٦) آل عمران : ١٣٥

(٥) آل عمران : ٣١

(٤) البقرة : ٥٨

(٩) آل عمران : ١٤٧

(٨) الفتح : ١٤

(٧) النور : ٢٢

﴿ ... وَاعْفُ عَنَّا ، وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا .. ﴾ (١) .

● الصيغ غير الفعلية :

﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى ﴾ (٢) .

﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴾ (٣) .

﴿ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ .. ﴾ (٤) .

﴿ ... إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (٥) .

﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذَى ﴾ (٦) .

﴿ ... وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ (٧) .

● إسنادها إلى غير « الله » :

﴿ قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ .. ﴾ (٨) .

﴿ ... وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ .. ﴾ (٩) .

﴿ ... وَإِنْ تَعَفُّوا وَتَصْصَفُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١٠) .

﴿ ... وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ .. ﴾ (١١) .

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ .. ﴾ (١٢) .

الآيات المذكورة شملت الصيغ الواردة من « غفر » في القرآن الحكيم .

(١) البقرة : ٢٨٦	(٢) طه : ٨٢	(٣) نوح : ١٠
(٤) غافر : ٣	(٥) القصص : ١٦	(٦) البقرة : ٢٦٣
(٧) البقرة : ٢٨٥	(٨) الجاثية : ١٤	(٩) الشورى : ٣٧
(١٠) التغابن : ١٤	(١١) يوسف : ٢٩	(١٢) آل عمران : ١٣٥

أفعالا متعدية ولازمة ، وصفات مشتقة ، ومصادر وأسماء ، والنظر فى هذه الآيات - جميعها - يسفر عن الحقائق الآتية :

* هذه المادة « غ . ف . ر » أكثر استعمالاً - عددًا وصيغًا من مادة « ك . ف . ر » فى لغة القرآن .

* ما كان منها فعلاً جاء متعدياً ولازمًا لم يذكر له مفعول على خلاف ما كان عليه الحال فى مادة « ك . ف . ر » حيث لم يأت منها لازم .

* بعض مواضعها الفعلية أسندت إلى غير « الله » بينما لم يُسند من « كفر » شئ إلى غير الله .

* لم تُسلط « غفر - يغفر » على « السيئات » مفعولاً لها قط ، بل كان مفعولها « الذنوب » أو « الخطايا » مع التزام إضافتهما إلى « الضمائر » خطاباً وغيبة وتكلماً ، فإن لم تكن إضافة ناب التعريف بـ « أل » عنها فى « الذنوب » دون « الخطايا » مثل :

﴿ وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ (١) .

* ما جاء منها مع السين والتاء فعلاً ومصدرًا التزم القرآن إسناده أو إضافته إلى غير « الله » ، مثل : ﴿ فَاسْتَغْفِرُوا لَذُنُوبِهِمْ ﴾ ، ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لِدُنُوبِكَ ﴾ ، ﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ ﴾ (٢) .

ومثل :

﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ (٣) .

(٣) التوبة : ١١٣

(٢) التوبة : ١١٤

(١) الزمر : ٥٣

* وسر هذا الالتزام أن السين والتاء للطلب : أى طلب المغفرة ، وهذا من صفات المخلوقين لا من صفات « الخالق » عزَّ وجلَّ وهذا - ونحوه - من احتراسات البلاغة القرآنية البديعة ، ومن لطائف التنزيل المحكم من سمات التقديس والتنزيه .

* *

● لماذا اختصت « كَفَرَّ » بالسيئات ؟

عرفنا أن « كَفَرَّ » ليس لها مفعول إلا « السيئات » ، وأن « غفر » لم تُسَلَّطْ على « السيئات » بل على « الذنوب » و« الخطايا » ولم يأت فى لغة القرآن : اغفر لى سيئاتى قط . فهل لهذا الاختصاص من سر ؟

لقد حاولنا فهم هذا السر ، والذي هدينا إليه أن المعاصى نوعان :

الأول : نوع تصح التوبة منه بالإقلاع عن الفعل والعزم على عدم العودة إليه ، والندم على ما وقع منه ، وهو الغالب على المعاصى .

الثانى : نوع تتوقف التوبة فيه على « غُرْم مالى » ، أو « جَهْد بدنى » المعبر عنهما فى الفقه بـ « الكِفَّارات » مثل :

القتل الخطأ ، والظهار من الزوجات ، والحنث فى الأيمان ، والإفطار المتعمد بلا عذر فى نهار شهر رمضان ، ومخالفات مناسك الحج مما ينجبر بالدم أو القدية ، وجزاء الصيد حال الإحرام ، ورد المظالم إلى أصحابها ، ووطء الحائض والاقتصاص من الظالم للمظلوم .

فالتوبة فى النوع الأول يسيرة ، وفى النوع الثانى عسيرة ، لأنها تتوقف على عملين :

* عزم وإقلاع وندم .

* غُرْم مالى أو جهد بدنى .

لذلك - والله أعلم - تسمى المعاصي من النوع الثاني « سيئات » والعفو عنها « تكفير » .

وتسمى المعاصي من النوع الأول « ذنوب » أو « خطايا » والعفو عنها « غُفران » .

والله تعالى - ذو الطول - إذا صدقت التوبة من العبد كفر عنه معاصيه بلا غرم مالى ولا عناء بدنى ، وغفر له ذنوبه ما لم يكن مشركاً ظل على إشراكه .

هذا ما لاح لنا من الفروق بين السيئات والذنوب والتكفير والغفران ، وفوق كل ذى علم عليم .

* *

● منهج القرآن فى « غَفَرَ » :

أولاً : كثرة استعمالها وتعدد صورها .

ثانياً : ورود بعض أمثلتها مسندة إلى غير « الله » - عَزَّ وَجَلَّ - .

ثالثاً : اختصاصها بـ « الذنوب » و « الخطايا » .

رابعاً : ورودها متعددة ومنزلة منزلة اللارم .

خامساً : ما اقترن منها بـ « السين والتاء » مقصور على غير « الله » رعاية لواجبات « عقيدة التوحيد » .

سادساً : اقترانها - دائماً - بالجار والمجرور « له - لهم - لكم - لك - لى » إظهاراً للامتنان على المغفور له كما كان فى « كفر » حيث التزم اقترانها بـ « عن » .

سابعاً : التزام إضافة « الذنوب » و « الخطايا » إلى « الضمائر » خطاباً

وغيبة ، وتكلما ، فإن لم تكن « إضافة » ناب التعريف به « أل » مناب
الإضافة في « الذنوب » دون « الخطايا » .

ثامناً : اختصاصها - إن صحَّ ما فهمناه - بالمعاصي التي لا تتوقف التوبة
عنها على غُرم مالى أو عناء بدنى « الكفارات » فى العبادات ، والجنايات ،
وبعض المعاملات .

هذا ما هُدىنا إلى ملاحظته ورصده فى منهج القرآن فى « كفر »
« غفر » وكم فى القرآن من المناهج التنظيمية « البديعة » فى استعمالته لمفردات
اللغة .

* * *

مَرَضٌ - مَرَضٌ^{١٨}

المرض فى اللغة هو العلة التى يصاب بها الجسم فتؤثر فى قواه تأثيراً يجعله غير قادر على القيام بوظائفه ، ومنه ما يعترى الجسم كله كارتفاع ضغط الدم ودرجة الحرارة ، وما يصيب بعض أعضاء الجسم كالرمد . فالمرض نوع من الفساد يحول دون تحقيق المنافع التى يحتاج إليها الإنسان . وقد استعملت لغة القرآن هذه الكلمة وبعض تصاريফها استعمالاً خاضعاً لمنهج لم تحد لغة القرآن عنه . وهذا ما سيتضح لنا من الآيات الآتية :

● التمثيل :

- ﴿ وَإِذَا مَرَضْتُ فَبُهِرْتُ بِهَوِّ يَشْفِينِ ﴾ (١)
- ﴿ فَبِئْسَ الْفِتْنَىٰ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ... ﴾ (٢)
- ﴿ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ ... ﴾ (٣)
- ﴿ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ ... ﴾ (٤)
- ﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ ... ﴾ (٥)
- ﴿ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ... ﴾ (٦)
- ﴿ ... وَإِنْ كُنْتُمْ مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا ... ﴾ (٧)

(٣) المائدة : ٥٢

(٢) البقرة : ١٠

(١) الشعراء : ٨٠

(٦) البقرة : ١٨٤

(٥) الفتح : ١٧

(٤) الأنفال : ٤٩

(٧) النساء : ٤٣

﴿ ... وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّنْ مَّطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَّرْضَىٰ ﴾ (١) .

﴿ ... فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّنْ رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّنْ صِيَامٍ ﴾ (٢) .

نستنتج من الآيات التسع التى مثلنا بها لمادة (م . ر . ض) فى القرآن الكريم أن الصور التى جاءت عليها ثلاث :

الأولى : الصورة الفعلية : « مرضت » .

الثانية : الصورة المصدرية : « مرض » .

الثالثة : الصورة الاسمية « المريض - مرضى » .

والصورة الفعلية لم تذكر إلا مرة واحدة ، هى المحكية عن إبراهيم عليه السلام .

أما صورتان المصدرية والاسمية فقد تكررتا مرات وبخاصة المصدرية .

* كما يسفر النظر فى هذه الآيات أن معانى المادة « م . ر . ض » ترددت بين الحقيقة والمجاز .

وأن المجاز ملازم للصورة المصدرية حيثما ذكرت ، كما أن هذه الصورة المصدرية ملازمة للقلوب ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ ﴾ ، وليس المراد به العلة المرضية بل المراد المرض المجازى ؛ لأن مرض القلوب المراد من ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ ﴾ هو الكفر والنفاق وحب الشهوات . ولما كانت هذه الآفات « المعنوية » تحول دون طهارة القلوب بالإيمان والاستقامة والعفة والعمل الصالح شبهت بالأمراض الحسية التى تحول بين الجسم وبين أداء واجباته ، على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية ، ولذلك وصفت القلوب فى القرآن بـ « العمى » فى قوله تعالى :

(٢) البقرة : ١٩٦

(١) النساء : ١٠٢

﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ (١) .
والعمى لا يكون وصفًا حقيقيًا إلا للأبصار ، أما فى القلوب ، فهو وصف مجازى ، شُبّه فيها فساد القلوب المانع من إيصال الهدى إليها بعمى الأبصار المانع من إيصال الرؤية إليها .

كما شُبّه فساد القلوب بمرض الأجسام بجامع تعطيل كل منهما عن المنافع .
أما الجانب الحقيقى فخاص بالصورة الفعلية ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ ، وبالصور الاسمية : « المريض - مرضى » لأن المراد من المرض فى هذه الصور المرض الحقيقى الذى يصيب الجسم أو بعض أجزائه فيعجزه عن العمل كُلاً أو بعضاً .

* *

● منهج القرآن فى « مَرَضَ » :

ومما تقدم برزت لنا فى وضوح ملامح المنهج القرآنى فى هذه المادة :
فأولاً : لم يرد فى القرآن منها إلا فعل ماض واحد « مرضت » مع تكرار الصور المصدرية والاسمية .

وثانياً : ترددت تصريفات المادة بين الحقيقة والمجاز .

وثالثاً : المجاز فيها ملازم للصورة المصدرية حيثما وردت .

ورابعاً : أما الحقيقة فملازمة للصور الفعلية والاسمية .

وخامساً : الصورة المصدرية ملازمة لمقام الذم والتشنيع ، وهى - دائماً - وصف فى المعنى للقلوب . مع ملاحظة إضافة القلوب إلى ضمير الغائبين « هم » .

وسادساً : الصورة الفعلية اختصت بمقام تمجيد الله وآلائه .

وسابعاً : الصور الاسمية اختصت بمقام التشريع فى كل موضع وردت

فيه فما أعظم هذا النظام وما أحكمه ؟

* * *

المرأة - البعل

للمرأة فى العرف اللغوى العام والخاص دالتان : إحداهما : الدلالة على « الأنوثة » المقابلة لـ « الرجولة » ، والمقصود بهما هنا : النوع .

والثانية : الدلالة على « الزوجة » وبخاصة إذا أضيفت إلى الزوج ، مثل : « امرأة نوح » يعنى زوجته أو « زوجه » بدون تاء التأنيث .

أما البعل فهو فى اللغة الفصحى ، أو العرف اللغوى الخاص ، يراد منه الزوج أحد عميدى الأسرة .

وكلتا الكلمتين وردت فى لغة القرآن ، ولهما فيه استعمال خاص فيه اعتبارات بديعة ، لطيفة ، حكيمة ، هى من سمات إعجاز القرآن البيانى اللغوى ، وقد قلنا مرات من قبل إن القرآن يستعمل مفردات اللغة استعمالاً « أمثل » لا نجد له نظيراً فى كلام البشر ، مهما علا حظهم من البلاغة والفصاحة ونصاعة البيان .

وأمثلة استعمال القرآن لمفردات اللغة له خصائص مرّ بنا الكثير منها :

كاستعماله الكلمة فى موضع لا تصلح له غيرها مهما كان بينهما من تشابه واتصال .

وكتوزيع مادة الكلمة الواحدة على منهج بديع ، فيستعمل بعض صورها فى معنى لا يستعمل فيه صورة أخرى من صورها وكأن الكلمة الواحدة فيه كلمات بحسب ما تدل عليه ، وليست كلمة واحدة .

وهاتان الكلمتان : (المرأة - البعل) ، تحملان من سمات الإعجاز القرآنى البلاغى اللغوى ما يدعو إلى الدهش وشدة الإعجاب ، فتعال - معى - نجتلى ما يثلج الصدور ويقر العيون من عجائب البيان .

● التمثيل :

- ﴿ .. وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتُ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ .. ﴾ (١) .
- ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ ﴾ (٢) .
- ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا .. ﴾ (٣) .
- ﴿ .. وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ .. ﴾ (٤) .
- ﴿ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ .. ﴾ (٥) .
- ﴿ .. وَقَدْ بَلَغْنِي الْكِبَرَ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ .. ﴾ (٦) .
- ﴿ قَالَ رَبِّ ائْتِنِي بِغُلَامٍ لِّي يَكُونَ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا .. ﴾ (٧) .
- ﴿ .. فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ .. ﴾ (٨) .
- ﴿ .. وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا امْرَأَتَيْنِ .. ﴾ .
- ﴿ وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا .. ﴾ (٩) .
- ﴿ قَالَتْ يَا وَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا .. ﴾ (١٠) .
- ﴿ .. وَبِعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا .. ﴾ (١١) .
- ﴿ .. وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ .. ﴾ (١٢) .

(١) النساء : ١٢	(٢) يوسف : ٣٠	(٣) التحريم : ١٠
(٤) هود : ٨١	(٥) هود : ٧١	(٦) آل عمران : ٤٠
(٧) مريم : ٨	(٨) البقرة : ٢٨٢	(٩) النساء : ١٢٨
(١٠) هود : ٧٢	(١١) البقرة : ٢٢٨	(١٢) النور : ٣١

من النظر فى الآيات التى ذكرناها يتبين لنا الآتى :

* أن القرآن يؤثر أن يطلق على زوجة الرجل كلمة « امرأة » إذا اختلفت عرى الحياة الزوجية ، أيا كان نوع ذلك الاختلال سواء كان بموت أحد الزوجين كآية الكلاله التى صدرنا بها آيات « التمثيل » ومثلها مما لم نذكره :

﴿ إِذْ قَالَتْ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا .. ﴾ (١) .

* أو حدث نزاع بين الزوجين سواء أدّى إلى طلاق أو لم يؤدِ مثل :
﴿ وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا .. ﴾ .

* أو لاخلاف الدين بين الزوجين مثل :

﴿ .. وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ .. ﴾ لأن امرأة لوط عليه السلام كانت على دين قومها .

* أو كانت العلاقة الزوجية قائمة على غير دين صحيح ، مثل ما جاء عن أبى لهب وامراته :

﴿ وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴾ (٢) ، لم يقل : زوجه .

* أو كانت الحياة الزوجية لا إنجاب فيها مثل :

﴿ وَكَانَتْ امْرَأَتِى عَاقِرًا ﴾ .

* أو كانت المرأة غير ذات زوج ، مثل ما جاء فى ابنتى شعيب :

﴿ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَزُودَانِ ﴾ .

* أو كان الزواج لا مدخل له فى المعنى المراد ، مثل ما جاء فى الشهادة على الدين :

﴿ .. فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ ﴾ .

(٢) المسد : ٤

(١) آل عمران : ٣٥

فالشهادة تصح من المرأة سواء كانت ذات زوج أو لم تكن ، والسرف في هذا - والله أعلم - أن المرأة أو الزوجة في الحالات التي أشرنا إليها ليست أهلاً للوصف بـ « الزوج » أو الزوجة لأن معاني الزوج في اللغة « الاثنان » المضموم أحدهما إلى الآخر ، ولذلك سمي الزوج زوجاً مضموماً إلى « زوجته » وسميت الزوجة زوجاً مضمومة إلى زوجها . وهذا الضم لا يكون علي كماله إلا في حالات الوثام التام ، والوفاق الكامل والصفاء الخالص ، بين عميدى الأسرة ، والعقم سواء كان من الرجل أو المرأة أو هما معاً يهز العلاقات الزوجية ، ويوهن الروابط بينهما ويعرض اقترانهما للزوال .

وانظر - مثلاً - إلى نبي الله زكريا وهو يشكو حاله إلى ربه من دبيب الشيخوخة إليه وعقم امرأته :

﴿ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ، وَأَجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا * يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا * قَالَ رَبِّ إِنِّي يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴾ (١)

قارن هذا بما جاء في سورة الأنبياء (٢) :

﴿ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ﴾ لقد كانت في سورة آل عمران ومريم « امرأتى » حين كانت عاقراً ، أما هنا في « الأنبياء » فقد أصبحت « زوجته » لأن وصف العقر زال عنها وأنجبت « يحيى » .

أرايت كيف ضمن القرآن عليها بوصف « الزوجية » لما كانت عقيماً لا تلد ؟ وكيف سخا به عليها في « الأنبياء » لما أصلحها الله للإنجاب ؟

(٢) الأنبياء : ٨٩ ، ٩٠

(١) مريم : ٥ - ٨

أرايت مثل هذا الصُّنْعَ البديع في كلام أحد غير الله ؟ إنه للإعجاز الإلهي في أدق وأعمق معانيه .

* *

● ثلاث شبهات مردودة :

ولقائل أن يقول : لقد أطلق القرآن وصف « الزوجية » على نساء في حالات الشقاق ، بل والفراق ، وذلك في ثلاثة مواضع :

الأول : على نساء النبي وقت حدث الشقاق المشهور بينه وبينهن ، ومع هذا قال الله في شأنهن :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١) .

والثاني : في شأن زيد بن حارثة ، مولى رسول الله ﷺ وزوجه زينب بنت جحش لما دبَّ النزاع الذي أدى إلى الفراق بينهما ، ومع هذا قيل في شأنها :

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ ... ﴾ (٢) .

فاطلق على زينب وصف « زوجك » ولم يقل : « امرأتك » .

والثالث : في تسوية النزاع بين المسلمين وبين مشركي مكة بعد صلح الحديبية ، فقد وصف النساء اللاتي فارقن أزواجهن بأنهن « أزواج » ، فقال :
﴿ وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقِبْتُمْ فَاتُّوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِّثْلَ مَا أَنْفَقُوا ، وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾ (٣) .

* *

(٣) الممتحنة : ١١

(٢) الأحزاب : ٣٧

(١) التحريم : ١

● الردود على هذه الشبهات :

الرد على الشبهة الأولى :

لم يكن اختلاف النبی مع زوجته اختلافاً ذا خطر ، بل كان الوفاق الخالص هو الذى يسود العلاقات بينه وبينهن ، بدليل أنه عليه الصلاة والسلام حرم على نفسه بعض ما أحله الله له تطييباً لمشاعرهن وتودداً إليهن ، وهو الأمر الذى أفصح عنه القرآن وعاتب الله رسوله فيه . وفى الموضوع رد آخر سنذكره عند الرد على الشبهة الثالثة .

الرد على الشبهة الثانية :

أما قول الرسول ﷺ لمولاه زيد : « أمسك عليك زوجك » ، ولم يقل : امرأتك ، فهذا التعبير : « زوجك » هو المطابق لمقتضى الحال . والحال - هنا - هو الأمر بالإمساك وإبقاء الحياة الزوجية قائمة ، فكأنه - عليه الصلاة والسلام - اعتبر النزاع الدائر بين زيد وزينب كأنه لم يكن ، ولو قال : « أمسك عليك امرأتك » ، لكان هذا تسليماً منه بنتيجة النزاع ، وهو التخليق . وكلمة « زوجك » أرأب للصدع من كلمة « امرأتك » بلاغياً .

الرد على الشبهة الثالثة :

أما وصف النساء المفارقات لأزواجهن فى قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقِبْتُمْ فَاتُّوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا ... ﴾ .
فهذا التعبير « أزواج » هو المتعين هنا ؛ لأنهن « جمع » لا « مفرد » ولم يُقُلْ : امرأتهم جرياً على منهجه فى المفرد لأمرين :
الأول : أن هذا الجمع غير مستعمل فى اللغة لا فى فصيحها ولا فى غريبها ، والقرآن نزل على طرائق العرب فى كلامهم .

الثانى : أن هذا الجمع « إمرأتهم » جاف مستثقل خشن « الجرس » وفى لغة القرآن رشاقة وصفاء وسهولة ، ينبو عنها هذا اللفظ وأمثاله لبعده عن الفصاحة ؛ لأنه غير مستعمل فى لغة العرب .

وهذا ينطبق على الموضع الأول الخاص بـ « أزواج » النبى ﷺ لو سلمنا - جدلاً - بأن شقاً ذا بال حدث بينه وبينهن .

فإن قال القائل : ولمَ لم يقل : نسائكم - نساؤهم - بدل « أزواجكم » ، و« أزواجهم » ؟

قلنا : إن كلمة « نساء » عامة تشمل ذوات الأزواج وغير ذوات الأزواج ، فلا تصلح قط مكان « أزواج » ، وبهذا نزل القرآن الحكيم حقاً .

وبهذا يسلم ما فهمناه من دقائق الاستعمال القرآنى لكلمتى : « امرأة » - « زوج » وعدم الخلط بينهما كما هو الحال فى كلام غير الله .

* *

● منهج القرآن فى استعمال كلمتى : « امرأة » ، و« زوج » :

أولاً : يطلق القرآن كلمة « امرأة » فى حالة الإفراد على « الزوجة » إذا أصاب العلاقات الزوجية اختلال كنشوب نزاع بين الزوجين ، أو عقم لدى أحدهما أو كليهما ، أو اختلاف دين أحدهما عن الآخر ، أو حدث تفريق بينهما بطلاق ، أو موت ، أو وقعت خيانة فى العلاقات الزوجية . . إلخ .

ثانياً : كما يطلق كلمة « امرأة » فى الحالات التى لا يكون للوصف بالزوجية علاقة بالمعنى المراد كمقام « الإشهاد على الديون » أو إرث الكلالة .

ثالثاً : ويطلق كلمة « زوج » أفراداً لا جمعاً فى كل الأحوال التى لا يعكر صفو الحياة الزوجية فيها شيء ، طبيعياً كان أو مكتسباً كالعقم واختلاف الدين .

رابعاً : فى حالات « الجمع » يؤثر كلمة « أزواج » . دون « إمرآت » - جمع امرأة « لأن هذا الجمع غير مستعمل لغة فضلاً عن ثقله وخشونة « جرسه » .

خامساً . قد يؤثر كلمة « زوج » أفراداً فى بعض حالات النزاع المكدره
لصفو الحياة الزوجية لعدم الاعتداد بالنزاع ولطابقتها لمقتضى الحال .

* *

● بَعْلٌ وَبَعُولَةٌ :

لما ضَنَّ القرآن بإطلاق كلمة « زوج » على الزوجة فى حالات تدهور
العلاقات الزوجية ، وأطلق عليها كلمة « امرأة » ضَنَّ - كذلك على الزوج
الذكر بإطلاق كلمة « زوج » عليه ، ثم أطلق عليه كلمة « بَعْلٌ » والآيات التى
ذكرناها وفيها إطلاق كلمة « بَعْلٌ » أو « بُعُولَةٌ » لا تخلو آية واحدة منها مما
يهدد ، أو هدد الحياة الزوجية فعلاً من شقاق بين الزوجين أو سوء معاملة من
الزوج للزوجة ، أو سلوك شائن من الزوجة ينافى قدسية الحياة الزوجية ، خذ
- مثلاً - قوله تعالى :

﴿ وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا ﴾ فها هنا توجس
وخيفة وقلق من جور زوجها ، لذلك صارت « امرأة » مضموناً عليها
بكلمة « زوجاً » أو « زوجة » وصار زوجها « بعل » مضموناً عليه بكلمة
« زوج » .

وقوله تعالى فى شأن إبراهيم عليه السلام وزوجه « سارة » ﴿ أَلِدْتُ وَأَنَا
عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا ﴾ لأن الشيخوخة تمنع الإنجاب عند الزوجين ، لذلك
صار الزوج « بَعْلًا » والعقم من شأنه تقويض الحياة الزوجية ، أو جعلها كأنها
لم تكن قط ، لعدم حصول ثمارها ، وهى ولادة الأولاد .

وقوله تعالى :

﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ ﴾ فأطلق على الأزواج « بعولة » جمع
« بعل » لأن المقام فيه مخالفة من الزوجات ، وهى النظر إلى غير أزواجهن
وإظهار زينتهن لغيرهم بدليل أمرهن بغض أبصارهن ، وحفظ فروجهن ونهيهن
عن إبداء زينتهن لغير محارمهن :

﴿ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ، وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ ، وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ . . ﴾ (١)

والشيء لا يؤمر به فى القرآن إلا إذا كان معدوماً ، ولا ينهى عنه إلا إذا كان موجوداً ، هذا هو الأصل فى الخطاب القرآنى .

لذلك - والله أعلم - أطلق على « الأرواح الذكور » هنا : بعولة والوصف بمجرد « المرأة » فيه تجريد من المعانى الإضافية التى تفيدها كلمة « الزوج » أو « الزوجة » وبمجرد « البعل » فيه تجريد من المعانى الإضافية التى تستلزمها كلمة « الزوج » ولكأن القرآن - ببلاغته العالية ، وبيانه المعجز يشير إلى انعدام الروابط الزوجية - كما ينبغى أن تكون - وهو يطلق على الزوجة « امرأة » وعلى الزوج « بَعْلًا » ، حين يقتضى هذا الإطلاق - بنوعيه - داع من الدواعى التى أشرنا إليها من قبل ، مما يعكس صفو الحياة الزوجية .

وكلمة « امرأة » هنا تشف عن معنى قرآنى دقيق للغاية ، لأنها واسطة بين كلمتين بديلتين هما :

أنثى - روجة . فأنتى لفظ عام لا ينبئ عن علاقة الزوجية بل يطلق على كل « حواء » وكلمة « روجة » تنبئ عن خلو الحياة الزوجية من كل ما يكدر صفوها . فلا تصلح واحدة منهما على ما نحن فيه من رباط زوجى بين زوجين لم تصف حياتهما الزوجية من مكدرات . أما كلمة « امرأة » التى أثرها القرآن فى هذا المقام « المتوتر » فتدل على علاقتها الزوجية بـ « بعلها » فهى امرأة ذات زوج لا مجرد « أنثى » ولا « روجة » صفت حياتها مع بعلها من كل المكدرات .

(١) النور : ٣١

وهذا المعنى القرآنى الدقيق تحمله - كذلك - كلمة « بَعْل » فهى واسطة بين كلمتين بديلتين لم تصلح واحدة منهما مكان « بَعْل » ، وهما :

« رجل » و« زوج » فلفظ رجل عام لا ينم عن علاقة زوجية قائمة ، بل يُطلق على كل « آدم » ، فهو قاصر عن تصوير المراد ، وكلمة « زوج » تدل على روابط زوجية قائمة خالية من كل المنغصات . وهذا مع وجود المنغصات لا وجود له .

أما « بعل » فهو الكلمة الوحيدة التى تصور الواقع بكل أمانة ووفاء ؛ لأنها تدل على أن مَنْ أُطْلِقَتْ عليه له روابط زوجية بـ « امرأة » لكنها مشوبة بما يتنافى معها .

هذا ما هدينا إليه فى إثارة لغة القرآن التعبير بكلمتى « امرأة » و« بعل » فى هذا المقام ، وشرح الله به لنا صدرنا ، فإذا صح هذا « الاجتهاد » - ونرجو أن يكون كذلك - فإنه سمة من سمات الإعجاز القرآنى البيانى اللغوى ، يقتضى « السجود » إعجاباً وإجلالاً لمنزّل هذا الكلام - عَزَّ وَجَلَّ .

● وإن تعجب فعجب :

نعم ، إن تعجب فعجب تفرقة القرآن بين موضعين لا يبدو بينهما تفاوت ، لكن القرآن ذكر فى كل منهما ما يلائمه من الألفاظ ، فلفت أنظارنا إلى فرق جدّ دقيق بينهما ، لا يهدى إليه إلا طول نظر ، وعمق تأمل ، وإدانة فكر ، والموضعان هما :

﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ ، وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ ، إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا .. ﴾ (١) .

(١) البقرة : ٢٢٨

﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَبُغْنَ أَجُلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ .. ﴾ (١) .

* * *

● مقارنة بين الموضعين :

غير خاف أن الموضعين فيهما نساء مطلقات .. وفيهما جواز إعادة العلاقات الزوجية بينهما وبين الذين طلقوهن ما لم تنقض العدة في الطلاق الرجعى ، وكما عرفنا من قبل أن الطلاق يقتضى أن يُعبرَ عن المطلق بـ « البعل » دون الزوج . والآية جاءت على هذه السنة القرآنية البيانية فأطلق على « المطلقين » كلمة « بعولتهن » .

أما الآية الثانية فمع اتحاد مقامها مع مقام الأولى ، فلم يُطلق على المطلقين لفظ « بعولتهن » بل « أزواجهن » ، فما الذى اقتضى هذه المخالفة في التعبير مع اتحاد المقام فى الآيتين يا ترى ؟

إن الذى هُدىنا إليه بعد طول نظر هو الآتى :

* فى الآية الأولى يشير المقام إلى وجود منافس من الرجال للمطلقين ، والقرآن يقضى بأولوية المطلقين فى الزوج من مطلقاتهم ، فهم أولى من غيرهم ممن يبدون رغبتهم فى الزوج من مطلقاتهم .

هذا المعنى يفهم - بقوة - من قوله تعالى : ﴿ وَبِعُولَتِهِنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا ﴾ .

وأفعل التفضيل « أحق » يقتضى اشتراك طرفين فى معنى مع أرجحية أحدهما على الآخر ، فجاء التعبير على القاعدة ، فقال : « بعولتهن » دون « أزواجهن » .

(١) البقرة : ٢٣٢

أما الآية الثانية فهي تتجه من أول الأمر إلى ولادة أمور المطلقات وتنهاتهم عن منعهن من التزوج بمطلقتهنَّ إذا أراد المطلقون والمطلقات العودة إلى الحياة الزوجية معاً مرة أخرى .

فمبيل كل إلى الآخر - هنا - متحقق تحقّقاً يجعل الطلاق كأنه لم يكن . فافتضت البلاغة القرآنية أن يُطْلَقَ على « المطلقين » « أزواجهن » دون بعولتهن ، وهذا أنسب بمقام النهي عن العَصْل في بلاغة الإعجاز وإعجاز البلاغة .

ومما يرجح كلا اللفظين في موضعه ما يأتي :

✽ وجود المنافسة في الأولى وعدمها في الثانية .

✽ ضعف الرغبة في المراجعة في الأولى المستفاد من أداة الشرط « إن » الموضوعية لاحتمال حصول جواب الشرط وعدم حصوله .

وقوة الرغبة في المراجعة في الثانية المستفادة من أداة الشرط « إذا » الموضوعية لتحقق وقوع الشرط .

✽ خلو الأولى من النهي عن العَصْل ، واشتمال الثانية عليه

أيها القارئ الكريم . أليست معنى في أن هذا البيان المعجز حقاً يستحق منا أن نخر للأذقان سجداً إجلالاً وإعظاماً لمن أنزل هذا الكتاب هدىً للمتقين ، وحجة على الكافرين ؟

* * *

● منهج القرآن في كلمة « بَعْل » :

أولاً : استعمالها في الأحوال التي يشوب الحياة الزوجية فيها بعض المكدرات كالشجار والعقم والطلاق الرجعي .

ثانياً : أن يدلَّ بها على معنى دقيق بين معنى مُطْلَق رجل وخصوصية معنى

ثالثاً : مجئ كلمة « زوج » أو « أزواج » بدلاً منها إذا اقتضى المقام ذلك .

رابعاً : مجيؤها أقل استعمالاً من كلمة « امرأة » المقابلة لها لكثرة دواعي استعمال كلمة « امرأة » وقلة دواعي استعمال كلمة « بعل » .

خامساً : مجئ « بعل » فى لغة القرآن ملازمة للإضافة إلى الضمير :
« بعلى - بعلها - بعولتهن » وعدم هذا الالتزام فى « امرأة » المقابلة له (١) .

* * *

(١) لا يقدح فى هذا ورودها مقطوعة فى آية الصفات (١٢٥) : « تدعون بَعْلًا وتذرون أحسن الخالقين » لأنه بمعنى : « الصنم » ، وليس بمعنى : الزوج .

ختم - مختوم

فى القرآن الحكيم ثلاث كلمات ، أو مواد لغوية استعارها للدلالة على معان تتوارد على محل واحد ، هو « القلب » مع مجئ بعض منها - أعنى الكلمات أو المواد الثلاث - فى سياق الحديث عن غير ذلك المحل ، وهما السمع والبصر ، وتلك الكلمات أو المواد اللغوية الثلاث هى :

ختم - طبع - ربط ، أو « الختم والطبع والرباط » ، وللقرآن الحكيم مناهج فى استعمالها - كما له فى غيرها - تبرز - بقوة - صوراً أخرى حافلة بالإعجاز البيانى اللغوى ، آثرنا النظر فيها لتسجيلها ولفت الأنظار إليها ، فى هذه الدراسات التى تحاول - جاهدة مخلصه - عرض الإعجاز القرآنى فى ثوب جديد ، قوامه التطبيق العملى من الداخل ، بدلاً من تلك المناهج التقليدية ، التى تصف الإعجاز من « الخارج » وقل أن تخوض بحره الزاخر ، وأن تستخرج لآله المكنونة وجواهره الثمينة من أعماق نظمه البديع العجيب .

وآثرنا - كذلك - أن نبدأ بـ « ختم » قبل أختيها : طبع وربط ، لاختصاصها بمعنى دونهما سنفصح عنه قريباً بإذن الله .

● التمثيل :

﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ ، وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً ﴾ (١) .
﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ ﴾ (٢) .

(١) البقرة : ٧

(٢) الأنعام : ٤٦

﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ ﴾ (١) .

﴿ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ ، وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ ، وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (٢) .

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ، فَإِنْ يَشَاءِ اللَّهُ يَخْتِمُ عَلَى قَلْبِكَ ، وَيَمِحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ، إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ (٣) .
﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ (٤) .

﴿ يُسْقِنُونَ مِنْ رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ * خِتَامُهُ مِسْكٌ ... ﴾ (٥) .

ما ذكرناه من الآيات هو كل ما وردت فيه هذه المادة (خ . ت . م) في القرآن الحكيم .

وظاهر من النظر فيها أن القرآن يفرق بين ما جاء منها فعلاً ، وما جاء منها اسماً .

* فالصور الفعلية : (ختم - يختم - نختم) استعمالها القرآن الحكيم في مواضع الذم والعقاب المؤلم ، إلا موضعاً واحداً - سنذكره - اختلف في معناه ، والأصوب أنه جارٍ على نسق القرآن من استعمال هذه المادة إذا كانت فعلاً في مواضع الذم والعقاب .

* أما إذا كانت اسماً : « خاتم - ختام - مختوم » فإن القرآن قصرها - بلا خلاف - على مواضع المدح والجزاء الحسن .

* *

(٣) الشورى : ٢٤

(٢) يس : ٦٥

(١) الجاثية : ٢٣

(٥) المطففين : ٢٥ ، ٢٦

(٤) الأحزاب : ٤٠

● بيان ذلك :

قوله تعالى : ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ ﴾ ، هو استئناف بياني بعد أن وصف الكفار في الآية السابقة مباشرة على هذه الآية ، وقد جاء فيها :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (١) .

فلما أخبر بأنهم لا يؤمنون في جميع الأحوال بين سبب استمرارهم على الكفر ، بأنه ختم ﴿ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ ﴾ عقاباً لهم على عدم انتفاعهم بالإنذار ، وإعراضهم عن الإذعان مع ظهور دلائل الحق عليه .

وقوله تعالى :

﴿ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ ، وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ .

فصورة العقاب هنا - فضلاً عن الذم - أشد ما تكون وضوحاً ، فيُمنعون من الدفاع عن أنفسهم ، ويفاجأون بأعضاء من أجسامهم - تتكلم وتشهد - بما يدينهم ، وليس من عاداتها الكلام ولا الشهادة .

وهكذا بقية المواضع ، لا تخلو من عقاب وذم من الصيغ الفعلية كلها .

بيد أن موضعاً واحداً ، اختلف في معناه اختلافاً غير متكافئ ، وهو قوله تعالى الذي سبق ذكره :

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ، فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ ، وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ .. ﴾ .

(١) البقرة : ٦

فقد جزم النسفى فى تفسيره بما أسنده إلى مجاهد من أن معنى ﴿يَخْتَمُ عَلَى قَلْبِكَ﴾ هنا هو :

«يَرْبِطُ عَلَى قَلْبِكَ بِالصَّبْرِ عَلَى أَذَاهُمْ . . . لئلا تدخله مشقة تكذيبهم» (١) .
وأشار جار الله الزمخشري إلى هذا بصيغة التمرىض «وقيل» أما معناه عنده، فهو :

«فإن يشأ الله يجعلك من المختوم على قلوبهم . . . وهذا الأسلوب مؤداه استبعاد الافتراء من مثله - صلى الله عليه وسلم - وأنه فى البعد مثل الشرك بالله والدخول فى جملة المختوم على قلوبهم . . .» (٢) .

أما ابن عطية الأندلسى فيقول فى معنى : ﴿فَإِنْ يَشَأْ اللَّهُ يُخْتِمُ عَلَى قَلْبِكَ﴾ : «معناه فى قول قتادة وفرقة من المفسرين : ينسبك القرآن . والمراد الرد على مقالة الكفار وبيان إبطالها وذلك كأنه يقول :

«وكيف يصح أن تكون مفترياً وأنت من الله بمرأى ومسمع وهو قادر لو شاء - على أن يختم على قلبك فلا تعقل ولا تنطق» (٣) .

هذا هو الأصوب - بل الصواب ، لا ما جزم به النسفى من قبل عن مجاهد .

والمقصود من هذا الأسلوب - وأمثاله - تبرئة صاحب الدعوة ﷺ مما يرميه به منكرو الرسالة . ولهذا نظائر فى القرآن منها :

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾ (٤) .

(١) تفسير النسفى : (١٠٧/٤) . (٢) الكشف : (٤١٨/٣) .

(٣) المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز (٢١٦/١٤) .

(٤) الإسراء : ٨٦

وقوله تعالى :

﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُوكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ ، وَإِذَا لَا تَأْخُذُوكَ خَلِيلًا ﴾ وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴾ إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿ (١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴾ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿ (٢) .

هذه - كلها - جزاءات فرضية رُبَّتْ على أمور لم تقع منه - صلى الله عليه وسلم .

وبعد هذا الإيضاح نقول - جازمين - إن مادة الخاء والباء والميم ما جاء منها فعلاً فإن القرآن التزم فيها استعمالها في الذم والمجازاة المؤلمة - ولم يشذ منها موضع واحد عن هذا المنهج حتى آية « الشورى » على ما بيناه آنفاً .

﴿ وَلِلْقُرْآنِ التَّزَامُ آخِرُ فِي الصُّورِ الْفَعْلِيَّةِ ، وَهُوَ اسْتِعْمَالُهَا فِي الْمَعْنَى الْمَجَازِيَّةِ دُونَ الْحَقِيقِيَّةِ ؛ لِأَنَّ الْمُرَادَ بِـ « الْخَتْمِ » مَنَعَ الْقُلُوبَ مِنْ دُخُولِ الْهَدْيِ فِيهَا ، وَخُرُوجِ الضَّلَالِ مِنْهَا ، كَأَنَّهَا مَخْتومة بِخَاتَمِ حَقِيقِي مُحْكَمٍ يَحُولُ دُونَ الدُّخُولِ وَالْخُرُوجِ .

وهو مجاز على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية ، شبه فيها المنع المذكور بالختم المادى تصويراً للمعنى المعنوى العقلى ، بصورة الختم الحسى . وفى توجيه هذه المسألة تفاصيل واسعة ينظرها من يشاء فى مظانها من كتب التفسير ، وبخاصة تفسير : الزمخشري - أبى السعود

(١) الإسراء : ٧٣ - ٧٥

(٢) الحاقة : ٤٤ - ٤٧

ثم حاشية الشهاب الخفاجي على البيضاوى ، وحاشية الكازرونى على البيضاوى كذلك (١) .

* *

● الصور الاسمية :

أما الصور الاسمية الثلاث : خاتم - مختوم - ختام ، فقد التزم القرآن الحكيم استعمالها فى مواضع المدح والجزاء الحسن .

* *

ففى آية « الأحزاب » :

﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رُّجَالِكُمْ ، وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ .

جاء « خاتم » فى ذروة المدح والثناء العطر على صاحب الدعوة ﷺ ودلالة « خاتم » هنا على المنع الذى هو أصل دلالة المادة ، دلالة ظاهرة ، حيث أن نبوته منعت مجئ نبوات بعده ، فهو الرسول النبى المصطفى لجميع العباد من لدن بعثته إلى قيام الساعة .

لأن رسالته الخاتمة أغنت البشرية عن أية رسالات أخرى ، لاشتمالها على كل الفضائل ، ونهيها عن كل الرذائل ، وصدق شاعرنا الذى قال :

لا تذكروا الكتب السوالف قبله جاء الصباح فاطفأ القنديلا

*

وآيتا « المطففين » :

﴿ يُسْقَوْنَ مِنْ رَّحِيْقٍ مَّخْتُومٍ * خِتَامُهُ مِسْكٌ ، وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾ (٢) .

(١) تراجع هذه التفاصيل فى المصادر المشار إليها عند تفسير الآية السابعة من سورة البقرة .

(٢) المطففين : ٢٥ ، ٢٦

فيهما إظهار التفضل على عباد الله الصالحين ، وإشادة بالجزاء الحسن الذي وعدهم الله به .

وهذا يرسم لنا خطوات المنهج القرآنى فى مادة (خ . ت . م) ، ولكن قبل تسجيل هذا المنهج نجيب عن السؤال الآتى :

لماذا اختص الفعل بالذم والعقاب ؟

والجواب : معروف أن الفعل له ثلاث دلالات هى : دلالة على « الحدث » من حيث معناه . ودلالته على « الزمن » من حيث صياغته ، ثم دلالة على « الفاعل » التزاماً .

والاسم أو الصفات المشتقة ، والمصدر يشترك مع الفعل فى دلالة واحدة هى « الحدث » .

فالفعل أكثر مرونة من الاسم لدورانه مع الزمن ماضياً وحاضراً ومستقبلاً ، وصالح للتعليق كذلك ، كقوله تعالى :

﴿ فَإِنْ يَشَأْ اللَّهُ يُخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ ﴾ فقد علّق « يختم » على مشيئة الله . والاسم بمنأى عن هذا .

ولما كان الفعل بهذه المرونة والمطاوعة صلح للإخبار عن الماضى فى قوله تعالى :

﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ كما صلح للمستقبل فى الآية السابقة : ﴿ فَإِنْ يَشَأْ اللَّهُ يُخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ ﴾ وفى قوله تعالى : ﴿ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ ﴾ وهذا سيكون يوم الحساب .

لذلك اختص بمقام الذم والعقاب ، وملاحقة الأحوال التى حدثت أو هى حادثة ، أو ستحدث .

أما الاسم : « خاتم » ، و« مختوم » ، و« ختام » فلتجرده عن الزمن

صارت دلالة ثابتة . فـ « محمد » ﷺ خاتم النبيين فى كل وقت ، وليس
خاصاً بوقت دون آخر ، ولا فى ختمه للنبيين تجدد وانقطاع ، وشراب أهل
الجنة تحقق الختم بالمسك عليه وثبت فهو - دائماً - مختوم وختامه مسك ،
وإن شئت فجرّب وضع اسماً بدل الفعل فى مواضع الفعل ، أو فعلاً بدل
الاسم فى مواضع الاسم ثم انظر عقبى الكلام كيف تكون ؟ والمعنى إلى
أى جهة ذهب ؟

* *

● منهج القرآن فى « ختم » :

- أولاً : استعمال الصيغ الفعلية فى مقام الذم وسوء المصير والعقاب الأليم .
- ثانياً : قصر استعمال الصيغ الاسمية فى مقام المدح والتكريم والجزاء الحسن .
- ثالثاً : التزام إيقاع أفعالها على القلوب ، وحيناً السمع .
- رابعاً : إسناد الصور الفعلية إلى « الله » أو إلى أحد الضمائر المكنى بها
عنه - عزّ وجلّ .
- خامساً : التزام الدلالات المجازية فى الصور الفعلية بلا خلاف .

* * *

طَبَعَ - يَطْبَعُ

فى اللغة يفسرون - غالبًا - الطَّبَعَ بالختَم ، ويفسرون الختم بالطبع ، فَبَيَّنَ الكلمتين تشابه ، وقد مرَّ بنا منهج القرآن فى « ختم » ورأينا أن استعمالها فيه قائم على التفرقة بين صورها الفعلية ، وصورها الاسمية ، فصورها الفعلية مقصورة على مقام الذم والعقاب ، وصورها الاسمية مقصورة على مقام المدح والتكريم وحسن الجزاء .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، فإن ما كان منها فعلًا فلا ينفك عن المجاز اللغوى الاستعارى ، وقد عرفنا - الآن - أن بين « ختم » ، و « طبع » فى اللغة تشابهًا لدرجة أن كلاً منهما تُفسَّرُ بالأخرى . فهل هما فى القرآن كذلك ؟ أى يثبت لـ « طبع » ما ثبت لـ « ختم » أم أن بينهما تباينًا ملحوظًا فى لغة القرآن ؟ هذا ما سيظهر لنا بعد التمثيل والنظر .

● التمثيل :

﴿ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ، بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (١)

﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ ، رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٢)

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ (٣)

(١) النساء : ١٥٥

(٢) التوبة : ٩٣

(٣) النحل : ١٠٨

﴿ أَوْ لَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصْبَنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ ، وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ (١) .

﴿ . . . أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ (٢) .

﴿ . . . فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ ، كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ﴾ (٣) .

﴿ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ ، كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴾ (٤) .

﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٥) .

﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ (٦) .

﴿ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ (٧) .

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ (٨) .

هذه الآيات الإحدى عشرة هي كل ما وردت فيها كلمة « طبع » فى صور مختلفة ، والنظر فيها يسفر عن الآتى :

* لم يستعمل القرآن منها إلا الأفعال ، ولم يأت منها اسم ولا مصدر قط .

* والأفعال التى وردت فى الآيات إما أفعال ماضية ، وإما مضارعة ، فالمضارعة ستة أفعال مبنية للفاعل ، والماضية خمسة أفعال ثلاثة للفاعل واثنان للمفعول .

(٣) يونس : ٧٤

(٢) محمد : ١٦

(١) الأعراف : ١٠٠

(٦) غافر : ٣٥

(٥) الروم : ٥٩

(٤) الأعراف : ١٠١

(٨) المنافقون : ٣

(٧) التوبة : ٨٧

« الأفعال المبنية للفاعل كلها مسندة إلى « الله » ولم يُسند منها موضع واحد لغير الله ، سواء كانت ماضية أو مضارعة ، ولهذا الإسناد صورتان : الأولى : وهى الغالبة ، الإسناد إلى الاسم الظاهر « الله » .

والثانية : الإسناد إلى الضمير « نحن » وجاء ذلك فى موضعين : ﴿كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ - ﴿وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ .

أما ما بنى للمفعول ، وهو موضعان ، ففاعلهما « الله » حملاً للمطلق على المقيد ؛ ولأن هذا الفعل لا فاعل له إلا « الله » .

« إيقاع « الطبع » على « القلوب » مثلما كان فى « ختم » إلا فى موضع واحد قرن السمع والأبصار مع القلوب :

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾ .

« أن يذكر « الطبع » مقروناً بصفات ذم أخرى لاحقة له أو سابقة ولاحقة . فمثال اللاحقة قوله تعالى :

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ فوصفوا بـ « الغافلون » بعد الطبع . ومثال السابقة اللاحقة قوله تعالى :

﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ ، كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ .

فوصفوا بعدم الإيمان والتكذيب قبل الطبع ، ووصفوا بـ « المعتدين » بعد الطبع .

« جاءت جملة « الطبع » مسبوقة بأداة التشبيه « الكاف » داخلة على اسم الإشارة « ذلك » فى ثلاثة مواضع ، ولم يأت هذا فى « ختم » .

« قَصُرُ كل مواضع « طبع » على مقام الذم وسوء العقاب ، ولم يأت

موضع واحد منها فى مقام المدح والتكريم ، والجزاء الحسن كما كان فى «ختم» .

* شدة الإنذار فى « طبع » أظهر من « ختم » .

* تصرّف لغة القرآن فى « طبع » أقل من تصرفها فى « ختم » حيث لم يأت من « طبع » إلا الأفعال . وجاء فى « ختم » الاسم والمصدر واسم المفعول .

* *

● لماذا اختُصَّتْ « طَبَعَ » بمقام الذم وسوء العقاب ؟ :

مع قوة التشابه بين « طبع » و « ختم » خُصَّتْ « طبع » بمواضع الذم وسوء العقاب ، بينما جاءت الصور الاسمية من « ختم » فى مواضع المدح والتكريم والجزاء الحسن ، فهى - أى ختم - فى القرآن أداة ذم ومدح .

أما « طبع » فقد رأينا القرآن يَقْصُرُها على مواضع الذم وسوء المصير . فهل لهذه التفرقة الأسلوبية فى القرآن الحكيم من سبب ؟ أم الأمر مجرد اتفاق ؟
والجواب :

مادة الطاء والباء والعين لها مصدران فى اللغة :

أحدهما : الطَبَعَ ، بسكون الباء ، ويدور معناه بين ضرب الدراهم وصنع السيوف ، والجَبِيلَةُ التى خُلِقَ عليها الإنسان (١) .

والثانى : الطَبَعَ ، بفتح الباء ومعناه : الدَّنَسُ والصدأ الذى يصيب الحديد فيفسده ، ويعلو جوانب السيوف فيضعف حداثتها ، وقد تتآكل (٢) .

والذى نرجحه أن كل مواضع « طبع » فى القرآن مشتقة من « الطَبَعُ » بفتح

(١ ، ٢) انظر : (لسان العرب) لابن منظور ، و (المصباح المنير) : مادة (ط ب ع) .

الباء ، لذلك اختصت بالذم وسوء المصير ، لأن القلوب المطبوع عليها صارت « فاسدة » كما يُفسد « الطبع » الحديد .

فهذا المعنى ملحوظ فى كل المواضع التى ذكرناها من القرآن الحكيم ، وهذا هو سبب تفرقة القرآن بين « طبع » و « ختم » فيما نفهم وتستريح إليه نفوسنا .

* *

● منهج القرآن فى « طبع » :

أولاً : قصرها على مواضع الذم وسوء المصير .

ثانياً : التزام المجاز فى جميع صورها ، حيث شبه فساد قلوبهم بالكفر والنفاق بفساد الحديد يعلوه الصدأ والأوساخ .

ثالثاً : التزام إسنادها إلى « الله » ظاهراً ومضمراً .

رابعاً : اقترانها بأوصاف ذم أخرى لاحقة لها أو سابقة ولاحقة .

خامساً : إيقاعها على « قلوب » العصاة دائماً ، وحيناً عليها وعلى سمعهم وأبصارهم .

سادساً : قصرها على الأفعال دون الأسماء والصفات .

سابعاً : تصاعد شدة الإنذار فيها حيثما وردت .

ثامناً : أرجحية اشتقاقها من « الطبع » بفتح الباء أى : الدنس ، على اشتقاقها من « الطبع » بسكون الباء ، لتناسب معناها مع « الأول » دون « الثانى » .

* * *

رَبَطَ - يَرْبِطُ

وقفنا من قبل على منهجى القرآن فى « ختم » و « طبع » وعرفنا ما بينهما من اتصال وانفصال . فما هو منهج القرآن فى « ربط » ؟ والتشابه بين الكلمات الثلاث قائم كما قلنا فى التقديم لها . هذا ما نحاول الوصول إليه فيما يأتى :

● التمثيل :

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ ، إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا ، لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا ﴿ (١) .

﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِعًا ، إِنْ كَادَتْ لَتُبْدَى بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٢) .

﴿ إِذَا يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُم رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴾ (٣) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (٤) .

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ

(٢) القصص : ١٠

(٤) آل عمران : ٢٠٠

(١) الكهف : ١٣ ، ١٤

(٣) الأنفال : ١١

اللَّهُ وَعَدُوكُمْ وَأَخْرَيْنَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ، وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿١﴾ .

هذه هي كل مواضع ورود « ربط » في القرآن الكريم ، خمس آيات ، وقليل من النظر فيها يضع أمامنا الحقائق الآتية :

* هذه المادة « ر . ب . ط » لم تستعمل في القرآن إلا في مقام الفضل والنبيل ، والمدح والثناء ، والقوة والطهر ، وكل هذه معانٍ شريفة ، وخصال حميدة ، فلا هي مادة ذم ومدح كما كانت « ختم » ولا مادة ذم كما كانت « طبع » بل هي مادة رفعة وسمو في كل صورة من صورها الواردة في التنزيل العزيز .

* في الثلاث الآيات الأولى شاركت « ربط » كلا من « ختم » و« طبع » في إيقاعها على « القلوب » كما اشتركت معهما في « التعدية » بحرف الجر « على » .

* في كل موضع من المواضع الخمسة الواردة فيها حُفَّتْ بهالة من صفات النبيل والشرف :

* ففي الآية الأولى تقدم عليها الوصف بالإيمان وزيادة الهدى ، ثم تلاها الإعلان بالإيمان برب السموات والأرض ، والبراءة من الإشراك ووصفه بالشناعة .

* وفي الآية الثالثة سبقت بظلال الأمن ، والماء المطهر من الدنس الحسى والمعنوى : رجز الشيطان ، ثم تثبيت الأقدام ، وهو كناية عن التمكين والغلبة على الأعداء .

* وفي آية « أم موسى » جُعِلَ الربط على « قلبها » سبباً في الثبات على « الإيمان » .

(١) الأنفال : ٦٠

وفى آية آل عمران سبقت ببناء المؤمنين والصبر والتصابير ، ثم تلاها الأمر بالتقوى والفلاح .

أما آية الأنفال فقد سبقت فيها « رباط » بالأمر بالإعداد للقوة ، ثم تلاها إرهاب عدو الله وعدو المؤمنين ، سواء من ظهر منهم وعُرف ، ومن هو سارب بالليل مستخف بالنهار ، ف « ربط » فى القرآن كوكب درى يدور فى « مطالع السعد واليمن » فعلاً كانت أو اسماً .

* وهى مادة مجاز فى لغة القرآن إلا فى « رباط الخيل » فحمله على الحقيقة سائغ ، أو هو كناية عن « حماية الثغور » وربما كان « ورابطوا » شريكاً لها فى هذا المعنى . والكناية فيها جانباً الحقيقة والمجاز .

* *

● ولماذا اختُصَّت « ربط » بمعانى الفضل والنبيل ؟ :

للإجابة على هذا السؤال نقول للقارئ الكريم ارجع إلى ما شئت من « معاجم اللغة العربية » ، أو المؤلفات التى وُضِعَتْ فى بيان مفردات القرآن ، تجد هذه المادة « ر . ب . ط » لم تستعملها اللغة العربية إلا فى المعانى الشريفة ، ومنها : « الحفظ » وهو لا يكون إلا لـ « المحبوب » والأشياء الثمينة ، وحماية الحرمات .

والقرآن عربى عربى ، نزل بلغة العرب فى أسمى أساليبها البيانية .

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (١) .

﴿ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ (٢) .

* وظَّف القرآن مواضع مادة « ربط » فيه للدلالة على معنيين عظيمين لا يعادلهما شئ فى الوجود بل ، ولا يدانيهما :

(٢) الزمر : ٢٨

(١) يوسف : ٢

الأول : حفظ القلوب من الزيف والفساد وحب الشهوات ، وهى - اى
القلوب - إذا صلحت صلح الجسد كله كما جاء فى الحديث الشريف . .
الثانى : حفظ رسالة الأمة وعزتها وكرامتها وحرمانها ومقدساتها من عبث
العابثين وعدوان الظالمين . ففى « الرباط » إذا سعادتها العاجلة والآجلة .

* *

● منهج القرآن فى « ربط » :

أولاً : هى فى القرآن عنوان الفضائل ومصدر القوة والعزة والنبيل والشرف .
ثانياً : فاعل الأفعال فيها هو « الله » - أعنى الأفعال الماضية والمضارعة -
أما فعل الأمر الوحيد فيها « ورابطوا » ففاعله جماعة المؤمنين .
ثالثاً : مجيؤها مصحوبة بهالة من صفات الكمال والشرف ، وكريم
الخصال .
رابعاً : توظيفها فيما يحفظ للأمة سلامة عقيدتها ، ونزاهة سلوكها ،
وحماية بيضتها .

* * *

سَخَّرَ - مُسَخَّرَات

المادة اللغوية « س . خ . ر » وردت فى لغة القرآن الحكيم على ضربين :

أحدهما : سَخَّرَ بتضعيف الخاء ، على وزن « فَعَّل » .

والآخر : سَخِرَ بتخفيف الخاء ، على وزن « فَعِل » .

ولاستعمالهما فى لغة القرآن نظام ومنهج ، نستجليه بذكر الآيات التى وردت فيها المادة فى الضربين المشار إليهما . ولنبدأ بالمضعف الخاء الذى على وزن « فَعَّل » ؛ لأنه الأهم من حيث الواقع ، ومن حيث الفاعل الذى سنعرفه من واقع النصوص القرآنية الحكيمة :

* *

● سَخَّرَ المضعف :

التمثيل :

﴿ اللَّهُ الَّذِى رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ، ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ، وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ، كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى .. ﴾ (١) .

﴿ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ، وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ، وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ، وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ (٢) .

(٢) إبراهيم : ٣٢ ، ٣٣

(١) الرعد : ٢

- ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ، وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (١) .
- ﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاحِرَ فِيهِ ، وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ... ﴾ (٢) .
- ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ ﴾ (٣) .
- ﴿ وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ... ﴾ (٤) .
- ﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ (٥) .
- ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ، وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلَّ يَجْرَى إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ... ﴾ (٦) .
- ﴿ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلُّ يَجْرَى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ... ﴾ (٧) .
- ﴿ ... وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ، كُلَّ يَجْرَى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ... ﴾ (٨) .
- ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُّقْرِنِينَ ﴾ (٩) .
- ﴿ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ ... ﴾ (١٠) .
- ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ... ﴾ (١١) .
- ﴿ ... وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ ، وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ (١٢) .

(١) النحل : ١٢	(٢) النحل : ١٤	(٣) الحج : ٦٥
(٤) العنكبوت : ٦١	(٥) لقمان : ٢٠	(٦) لقمان : ٢٩
(٧) فاطر : ١٣	(٨) الزمر : ٥	(٩) الزخرف : ١٣
(١٠) الجاثية : ١٢	(١١) الجاثية : ١٣	(١٢) الأنبياء : ٧٩

- ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴾ (١) .
- ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴾ (٢) .
- ﴿ .. كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (٣) .
- ﴿ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتَكْبِرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ .. ﴾ (٤) .
- ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأَهْلَكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ، فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ (٥) .
- هذا ما ورد من « سَخَّرَ » فعلاً . وبقي منها صور اسمية ، هي :
- ﴿ وَالسُّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ (٦) .
- ﴿ .. وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ﴾ (٧) .
- ﴿ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ .. ﴾ (٨) .
- ﴿ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ .. ﴾ (٩) .

* وردت كلمة « سَخَّرَ » مشددة الحاء فعلاً ماضياً في مجموعة الآيات الأولى اثنتين وعشرين مرة .

* وفي مجموعة الآيات الثانية وردت اسم مفعول أربع مرات :

مرة واحدة وردت مفرداً مجروراً ﴿ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ وثلاث مرات جمع مؤنث سالماً « مسخرات » بحركات إعراب مختلفة .

* في جميع الصور الفعلية كان الفاعل ضميراً عائداً على اسم الجلالة

(١) سورة ص : ١٨	(٢) سورة ص : ٣٦	(٣) الحج : ٣٦
(٤) الحج : ٣٧	(٥) الحاقة : ٦ ، ٧	(٦) البقرة : ١٦٤
(٧) النحل : ١٢	(٨) الاعراف : ٥٤	(٩) النحل : ٧٩

« الله » إما لفظاً ومعنى ، وهو فى إحد وعشرين موضعاً وإما معنى ، وهو فى موضع واحد ، هو قوله تعالى :

﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ﴾ .

* تردد الضمير المسند إليه « سَخَّرَ » بين ضمير « الغيبة » وضمير « التكلم » مع غلبة « ضمير الغيبة » (ثمانى عشرة مرة) على ضمير « التكلم » (أربع مرات) .

* الفعل « سَخَّرَ » بصوره الاثنتى عشرة وزَّع على محورين اثنين :

الأول : مقصور على لفت أنظار العباد إلى نعم الله وآلائه فى الكون ، ثم بعض تعلقات القدرة الإلهية بالآيات الكونية .

وجاء هذا المحور على ضربين :

أ - لفت الأنظار إلى حقائق إلهية تعم جميع عباده مؤمنهم وكافرهم ، صالحهم وطالحهم . وذلك مثل :

* تسخير الشمس والقمر .

* تسخير الفلك تجرى فى البحر .

* تسخير الأنهار .

* تسخير الليل والنهار .

* تسخير البحر لمنافع العباد .

* تسخير ما فى السموات والأرض .

والخطاب الإلهى فى هذا الشق عام وموجه إلى جميع العباد . وفى أفعال هذا الشق كان الإسناد إلى ضمير « الغيبة » .

ب - الامتنان على المؤمنين خاصة بنعم لا تكون لغيرهم ، وهذا مقصور

على بهيمة الأنعام فى مناسك الحج والعمرة ، والفعلان الواردان فيها أولهما مسند إلى ضمير « التكلم » ﴿ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ ﴾ .

والثانى : مسند إلى ضمير « الغيبة » ﴿ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ ﴾ .

المحور الثانى : مقصور على لفت الأنظار إلى وقائع تاريخية وهو - كذلك - شقآن .

(أ) خاص بما منَّ الله به على بعض رسله ، وهما داود وسليمان عليهما السلام .

فلداود سخر الله الجبال والطير يسبحن معه ، ولسليمان سخر الله الريح تجرى بأمره حيث يريد .

(ب) ويقابل هذا الشق ، شق الانتقام من مكذبي الرسل ، وهم عاد قوم هود . سخر الله عليهم ريحاً عاتية دمرتهم تدميراً .

﴿ فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى ، كَأَنَّهُمْ أُعِجَازٌ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ ، ولما كانت « ريح سليمان » نعمة عُدَّت بحرف الجر « اللام » (له) .

ولما كانت « ريح عاد » نقمة عُدَّت بحرف الجر « على » - « عليهم » .

* *

● لماذا الفعل الماضى ؟ :

لم يأت من هذه المادة فى لغة القرآن إلا الفعل الماضى ، فلم يأت منها مضارع قط ، ولم يأت منها فعلٌ أمر . فلماذا أوثر الماضى على نظيره المضارع والأمر .

ومن البديه أن فعل الأمر لا مكان له - هنا - فقد علمنا أن فاعل هذه الأفعال - كلها - هو الله . وليس فى مقدور أحد غير الله تحقيق أو الإتيان بشئ من « مفاعيل » هذا الفعل « سخر » حتى يأمره الله به ، وليس فوق الله سلطة تأمره بشئ .

إذن فلا محل للمناظرة بين الماضى والأمر - هنا - قط . وإنما التنظير بين الماضى الذى جاء به التنزيل الحكيم وبين المضارع المتروك .

والتعبير بالماضى هنا - سَخَّرَ - هو المتعین بلاغة وإعجازاً ؛ لأن التسخير هو سوق الشيء لنيل المراد منه قهراً ، وبدون توقف على إرادة منه . وهذا المعنى وُجِدَ فى الأشياء التى سخرها الله لنا مرة واحدة منذ خلقها الله مع استمراره دون توقف .

فالشمس تؤدى للعباد المنافع من يوم خُلِقَتْ ولا إرادة لها فيها ، ولم يحدث هذا منها شيئاً بعد شيء .

وكذلك القمر يؤدى المنافع التى خُلِقَ من أجلها من أول يوم خُلِقَ فيه . ولذلك قال سبحانه فى سورة « إبراهيم » عليه السلام فى وصف تسخير الشمس والقمر :

﴿ دَائِبِينَ ﴾ وكل « مفاعيل » الفعل « سَخَّرَ » التى فصلتها الآيات السابقة ينطبق عليها هذا المعنى ، وهو : سوقها لتأدية المراد منها قهراً وبلا إرادة منها ، تلك هى طبيعتها التى خلقها الله عليها .

والله - سبحانه - سَخَّرَهَا مرة واحدة ولم يستأنف منها تسخيراً بعد تسخير . فهو - أى تسخير الله لها - ماضٍ مستمر غير منقطع .

ولا يفى بهذا المعنى إلا الفعل الماضى الذى جاء به التنزيل الحكيم .
مثال ذلك :

الله - سبحانه وتعالى - يقول دائماً :

﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ بإيثار الفعل الماضى دون المضارع ، ولم يقل : « يَخْلُقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ » لأنه خلقهما من قبل . ولو قيل : « يخلق » لكان معناه يخلق الآن . وهذا معنى باطل . ومع تقدم خلق السموات والأرض فهما باقيان ، وكذلك الأشياء التى قال الله : إنه

« سَخَرَهَا لَنَا » ، فالتسخير حصل قبل نزول القرآن ، وبقاء هذا التسخير فى كل زمان ليس معناه أن الله « يسخرها » وإنما « سخرها » وبلا انقطاع كما خلق السموات والأرض بلا زوال .

فالفعل الماضى « سَخَّرَ » هو التعبير الوحيد المتعين فى الآيات المذكورة للدلالة على المراد .

أما المضارع فلا يصلح لتلك الدلالة ؛ لأنه إما أن يدل على « الحال » ، وهذا ممتنع فى آيات التسخير ؛ لأن التسخير حصل من يوم خلق الله الكون . وإما أن يدل المضارع على « الاستقبال » وهذا أبعد ما يكون عن الواقع ؛ لأن معناه أن التسخير لم يحدث وسيحدث فى المستقبل .

لهذا وذاك امتنع « المضارع » كما امتنع « الأمر » ولم يبق إلا الماضى الذى نزل به التنزيل المحكم . أليس هذا إعجازاً بلاغياً لغوياً فى أجلى مجاله ؟ .

* *

● وحدة الإسناد :

تقدمت الإشارة إلى أن فاعل « سَخَّرَ » فى جميع الآيات السابقة هو « الله » أو أحد الضمائر العائدة إليه ، والسبب فى « وحدة الإسناد » هنا لأن هذه الأفعال ليس فى مقدور أحد إلا « الله » خالق كل شىء . لذلك كان الله - وحده - هو فاعل هذه « الخوارق » .

* *

● الوقائع التاريخية :

أما الوقائع التاريخية فى المحور الثانى الذى ورد فيه الفعل « سَخَّرَ » ماضياً . فإن لمجيئه ماضياً تفسيراً آخر غير تفسير « سَخَّرَ » فى المحور الأول ، ففى المحور الأول وسمنا الفعل « سَخَّرَ » بأنه ماضٍ مستمر ، أما فى الوقائع التاريخية الثلاث ، وهى :

* تسخير الجبال والطير مع داود عليه السلام .

* تسخير الريح لسليمان عليه السلام .

* تسخير الريح العاتية العقيم على عاد قوم هود ، فإن الفعل الماضى فيها « ماض منقطع » أى وقع وانقطع قبل نزول القرآن به .

لذلك أوتر الفعل الماضى معه ؛ لأنه لا وجود له يوم نزل به القرآن . فهو قد حدث فى زمن محدد ثم زال . وما كان هذا سبيله فليس له وسيلة أو أداة تصوره إلا الفعل الماضى « سخرنا - سخرها » وبهذا - كذلك - نزل التنزيل المحكم . فسبحان مَنْ أنزل هذا الكلام ! .

* *

● اسم المفعول من « سَخَّرَ » :

جاء اسم المفعول من « سَخَّرَ » أربع مرات :

مرة فى وصف السحاب ﴿ وَالسُّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ .

ومرة فى وصف النجوم وحدها على قراءة الرفع فى النحل فى قوله تعالى : ﴿ .. وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ﴾ .

ومرة فى وصف الشمس والقمر والنجوم معاً فى سورة الأعراف فى قوله تعالى : ﴿ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ﴾ .

ومرة فى وصف الطير فى سورة النحل فى قوله تعالى :

﴿ أَوْ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْ السَّمَاءِ .. ﴾ .

* *

● ولماذا اسم المفعول ؟ :

أطلقنا التفكير حول السبب الذى استدعى التعبير باسم المفعول فى المواضع

الاربعة ، وقد لاحظنا ان « مسخرات » لم يأتِ وصفًا للشمس والقمر إلا مع عطف النجوم عليهما فى آية الاعراف :

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ، أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ، تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ (١) .

وجاء اسم المفعول وصفًا مستقلاً لـ « النجوم » وحدها فى آية النحل ، وهى قوله تعالى :

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ، وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ .. ﴾ (٢) .

فقد اختصت آية النحل « النجوم » بوصف « مسخرات » بعد أن جاءت بحرف الاستئناف « الواو » وصارت « النجوم » مبتدأ خبره « مسخرات » ولم تعطف « النجوم » على المنصوبات التى قبلها ، وهى :

الليل - النهار - الشمس - القمر ، ولم تشترك « النجوم » فى الحكم الذى سبق لما قبلها .

وهذا يدل على خاصية فى « النجوم » جعلت الحكم عليها - الخبر - مباينًا لحكم ما قبلها .

فما الفرق - إذا - الذى اقتضى هذه « المباينة » بين « الحكمين » ؟ هذا ما حاولنا أن نفهمه . وبعد طول نظر لاح لنا أمران صالحان - فيما نرى - لتفسير هذا التباين - اجتهداً منا - مع تفويض العلم لله . وقد يرى غيرنا غير

(١) الاعراف : ٥٤

(٢) النحل : ١٢

ما نرى ، ونحن لا نزعم أن فهمنا هذا هو قول جهيّزة الذى يقطع قول كل خطيب (١) . وإليك ما فهمناه .

* *

● الفهم الذى فهمناه :

هذا الفهم يعتمد على الملاحظات الآتية :

الأولى : أن القرآن الحكيم يوقع الفعل « سَخَّرَ » على أفراد من آيات الله الكونية ؛ الليل - النهار - الشمس - القمر - البحر - الفلك - ما فى الأرض - ما فى السموات - أو جمع قلة : الأنهار (٢) .

أما النجوم فجمع كثرة لا يعلم حقيقة عددها إلا الله ، وقد رصد العلم الحديث حوالى ثلاثمائة مليون نجم فى مجرتنا وحدها فما بالك بغيرها (٣) .

الثانية : أن القرآن الحكيم يوقع الفعل « سَخَّرَ » على « مفاعيل » عظيمة الحجم ، نظامها الكونى مشاهد بقوة ولافتة للأنظار لفتًا قويًا لا يحتاج إلى دليل ، وهذا بالنسبة للنجوم - مع عظم حجمها - ليس مدركًا إدراكًا حسيًا كجرى الفلك فى البحار ، وجرى الشمس والقمر فى منازلهما .

الثالثة : أن القرآن يوقع الفعل « سَخَّرَ » على ما هو ثابت غير متغير ولا

(١) « قطعت جهيّزة قول كل خطيب » مثل عربى قديم له قصة . ويضرب لمن يأتى بالقول الفصل فى مسألة يختلف الناس حولها . فيحسم الخلاف .

(٢) لا يقدح فى هذا إيقاع « سخر » على « الجبال » فى شأن داود - عليه السلام - وهى من جموع الكثرة ، أو « البدن » فى آية آتتى الحج ؛ لأن حديثنا هنا خاص بما ورد فى المحور الأول من الآيات التى تلفت أنظارنا إلى ظواهر كونية جمادية دائمة من المخلوقات العلوية والسفلية .

(٣) انظر : (هندسة النظام الكونى) : (٥١) . للدكتور : عبد الكريم خضر .

تفنى عناصره فى هذه الحياة ، فالشمس هى الشمس ، والقمر هو القمر ،
والليل هو الليل ، والنهار هو النهار .

أما النجوم فقد أثبت العلم الحديث أن لها أعماراً تفنى بعدها ، إما
بالانفجار أو التضاؤل . هذه فروق ملحوظة بين « النجوم » وبين غيرها مما
أوقع عليه القرآن الفعل « سَخَّرَ » وهى فى إيجاز :

١ - فرق من حيث القلة والكثرة فى عدد المفاعيل المسخرة .

٢ - فرق من حيث الظهور والخفاء فى حركة التسخير .

٣ - فرق من حيث الاستمرار والفناء فى أجرام الكتل المسخرة ، هذا ،
وليس بلام اجتماع هذه الفروق - جميعاً - فى كل ما أوقع عليه القرآن
الفعل « سَخَّرَ » فالفلك يجتمع فيها فرقان وهما :

* الكثرة .

* قوة ظهور حركة التسخير .

* أما الفرق الثالث « استمرار ذواتها » فليس له فيها وجود ، وهذه الفروق
- كلها أو بعضها - صالحة لإطلاق اسم المفعول « المسخر » على « السحاب »
فى آية البقرة .

* فهى كثيرة كثرة مستفيضة .

* وذواتها تفنى ولا تدوم .

وساغ لإطلاق اسم المفعول « مسخرات » على الطير فى آية النحل :

* لأنها كثيرة كثرة لا يعلمها إلا الله .

* ولأن ذواتها تفنى ولا تدوم .

إما إطلاق اسم المفعول « مسخرات » على الشمس والقمر فى آية الأعراف
فله مسوغان صحيحان .

الأول : ذكرها فى سياق واحد مع « النجوم » التى الأصل فيها أن توصف

باسم المفعول « مسخرات » فى لغة القرآن ، كما أشرنا من قبل مع إيلاء « مسخرات » لـ « النجوم مباشرة » .

الثانى : أن كل ما قال القرآن فيه « سَخَّرَ » فهو « مسخَّر » فعلاً .

هذا ما هدينا إليه ، فإن يك صواباً فمن الله ، والحمد له - وإن يك غير ذلك فمنى ، وشفيعى عند الله أنى مجتهد حسن النية ، والله على ما أقول شهيد ، مبرأ من الهوى ، والله بقصدى عليم .

* *

● منهج القرآن فى « سَخَّرَ » المشدّد الوسط :

لن أقول جديداً - هنا - لم أقله من قبل ، وإنما أوجز ما تقدم وبالله التوفيق :

أولاً : وردت مادة السين والخاء والراء المشددة الوسط فى القرآن الكريم فى صيغة الفعل الماضى « سَخَّرَ » اثنتين وعشرين مرة ، ولم يأت منها مضارع ولا أمر ، لأن المقام يُعَيِّن التعبير بالماضى ، ويمتنع فيه - بلاغة وواقعاً المضارع والأمر .

ثانياً : فاعل هذا الفعل « سَخَّرَ » فى جميع مواضع وروده هو الله وحده ؛ لأن « موضوعه » من خواص « الألوهية » وليس فى مقدور أحد سواه .

ثالثاً : إسناد هذا الفعل فى لغة القرآن جاء على ضربين :

أحدهما : إسناد مباشر إلى اسم الجلالة « الله » .

الثانى : إسناد إلى ضمير « الغيبة » ، وهو الغالب ، وإسناد إلى ضمير « التكلم » فى أربعة مواضع .

رابعاً : الفعل « سَخَّرَ » فى الاثنتين والعشرين مرة جاء مورعاً على محورين :

الأول : مقصور على لفت أنظار العباد إلى نعم الله وآلائه وآياته في الكون .
وتحت شقان :

(أ) خطاب عام لجميع العباد ، مؤمنهم وكافرهم .

(ب) خطاب خاص لجماعة المؤمنين .

المحور الثاني : مقصور على لفت الأنظار إلى وقائع تاريخية . وتحت شقان
كذلك :

(أ) إظهار المنّة والتأييد لبعض الرسل (داود وسليمان) - عليهما
السلام- .

(ب) إحلال النعمة على بعض مكذبي الرسل (عاد قوم هود) عليه
السلام .

خامساً : وجاءت المادة اسم مفعول : (المسخر - مسخرات) في أربعة
مواضع .

سادساً : المواضع الأربعة التي جيئ فيها باسم المفعول لوحظ فيها فروق
بينها وبين ما جاء فعل ماضياً سوغت الفعل الماضي في مواضع وروده ، واسم
المفعول في مواضع وروده .

سابعاً : أن مادة (سَخَّرَ) في القرآن الكريم مادة إنعام وتفضل ، حتى في
تسخير الريح على « عاد » لأن في إهلاكهم قطعاً للباطل ، ونَصْرًا للحق ،
ونَصْرُ الحق من جلائل النعم على المؤمنين .

* * *

سَخِرَ - يَسْخِرُ

سَخِرَ المحركة الخاء مع التخفيف تشترك مع « سَخَّرَ » فى الحروف الاصول ، وهى : السين والحاء والراء ، وفى مطلق الدلالة - كما سيأتى - وتختلف عنها فى التعدى وال لزوم ، فـ « سَخَّرَ » المشدد متعدٍ لمفعول واحد ، ويتعدى للمفعول الثانى بواسطة « حرف جر » مناسب يقتضيه المقام - كما مرَّ - : « اللام » ، وهو الغالب ، ثم « على » فى الإهلاك والانتقام .

أما « سَخِرَ » المخفف ، فلازم ، وتعديته بحرف الجر « مِنْ » أما الدلالة الخاصة لكلٍ من الفعلين فينبهما ما بين المشرق والمغرب .

وهذا ما سيظهر لنا جلياً من واقع استعمال لغة القرآن لـ « سَخِرَ » المخفف .

• التمثيل :

﴿ وَلَقَدْ اسْتَهْزَأَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ (١)

﴿ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٢)

﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ ، قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾ (٣)

﴿ زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ (٤)

(٢) التوبة : ٧٩

(١) الأنعام : ١٠

(٤) البقرة : ٢١٢

(٣) هود : ٣٨

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ ۖ ﴾ (١)

﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴾ (٢)

﴿ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴾ (٣)

﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ ﴾ (٤)

وهذه هي المواضع التي وردت فيها « سَخِرَ » مخفف الخاء في القرآن الحكيم في صيغ مختلفة (٥).

* ثلاث مرات جاءت فيها فعلاً ماضياً .

* وثمانى مرات وردت فيها فعلاً مضارعاً .

* وموضع واحد جاءت فيه اسم فاعل للمفرد المذكر ، أى أن جميع مواضع ورودها اثنا عشر .

* ويلاحظ أن الأفعال الأحد عشر لم يأت فيها ما هو مسند إلى « الله » إلا موضع واحد في سورة التوبة ، وسنعود إليه مرة أخرى .

أما بقية المواضع فمسندة إلى غير الله من مكذبي الرسل أو العصاة إلا موضعاً واحداً أسند فيه الفعل إلى « نوح » عليه السلام ، وذلك في آية سورة « هود » عليه السلام ، وسنعود إليه قريباً إن شاء الله .

* كما نلاحظ أن المادة اختصت بالأسلوب الخبرى إلا موضعاً واحداً جاء على الأسلوب الإنشائى وهو آية « الحجرات » - ﴿ لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ ﴾ .

(١) الحجرات : ١١ (٢) الصافات : ١٢ (٣) الصافات : ١٤

(٤) الزمر : ٥٦ (٥) بقيت ثلاث صور مستعرض في « النظر والتحليل » .

* إن هذه المادة جاءت فى لغة القرآن مقصورة على مقام الذم وسوء الخلق . وهذا هو الفارق الكبير بينها وبين مادة « سَخَّرَ » المشددة الخاء . وهذا هو السبب فى خلو القرآن من إسنادها إلى « الله » أو صالحى المؤمنين .

أما الموضع الوحيد الذى جاءت فيه مسندة إلى « الله » ، فليس على ظاهره . بل هو مشاكلة ، « لفظية » للفعل الذى جاءت فى سياقه :

﴿ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ ﴾ ، والمراد من « سخر الله منهم » جازاهم من جنس عملهم . فسخرية الله هنا المراد منها العقاب ، وأن الجزاء من جنس العمل ، وفى هذا تبكيت للساخرين من المؤمنين .

وأما الموضع الذى جاء فيه الفعل « نَسَخَرَ » مسنداً إلى نوح عليه السلام ، فهو - كذلك - ليس على ظاهره ، بل المراد نعاملكم بمثل معاملتكم لنا :
﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ﴾ (١) .

فليس فى إسناد « سخر » إلى « الله » ولا فى إسناد « نسخر » إلى نوح قبح ، بل مشاكلة لفظية ، والمعنى مختلف ، فالسخرية من مكذبي الرسل سوء خلق حقيقى ، أما من « الله » ومن نوح ، فاللفظ لفظ « السخرية » ، والمعنى هو العقاب من الله ، والمعاملة بالمثل من نوح عليه السلام .

* السخرية فى القرآن فعل الأشرار ، ولذلك نهى الله المؤمنين عنها فى قوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ .. ﴾ أى لا يستهزئ ولهذا - كذلك - يقرع الله الأشرار يوم القيامة كما جاء فى قوله تعالى :

﴿ قَالَ اخْسَأُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُون ﴾ * إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ * فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سَخَرِيَا حَتَّى

(١) الشورى : ٤٠

أَنسَوَكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ * إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿١﴾ .

كما أن الأشرار أنفسهم يتندّمون على سخريتهم واستهزائهم بعباد الله . وقد حكى عنهم القرآن ، فقال :

﴿ وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رَجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ * أَتُخَذُنَاهُمْ سُخْرِيًا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ * إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴾ (٢) .
أما قوله تعالى : ﴿ . . . وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًا ، وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ (٣) .

فـ « سُخْرِيًا » بضم السين ليس من الاستهزاء بل من الاحتياج وتبادل المنافع : الغنى يحتاج إلى خدمة الفقير ، والفقير يحتاج إلى مال الغنى . وأخرى بهذا الموضع أن يكون من التسخير للمنفعة المحمودّة لا من « السُّخْرُ » بمعنى الهزاء والاستخفاف ، وأيا كان الأمر فإن مادة السين والخاء والراء - مطلقة - تشترك في معنى مطلق هو عدم الامتناع والإباء ، ثم تفرق بعد ذلك من حيث التشديد والتخفيف . وإذا ما استثنينا آية الزخرف ﴿ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًا ﴾ ، فإن « سَخِرَ » المخفف المكسور الخاء لا يدل إلا على سوء الخلق وبذاءة اللسان .

* *

● منهج القرآن في « سَخِرَ » المخفف المكسور الخاء :

أولاً : تنوع استعمالها بين الأفعال - ما عدا الأمر - والصفات والأسماء .

(٢) سورة ص : ٦٢ - ٦٤

(١) المؤمنون : ١٠٨ - ١١١

(٣) الزخرف : ٣٢

ثانيًا : هى فى لغة القرآن فعل الأشرار ولا تدل إلا على سوء الأخلاق
وبذاءة اللسان .

ثالثًا : ما أُسْنِدَ منها إلى « الله » - موضع واحد - وما أُسْنِدَ إلى نوح عليه
السلام ، إنما هو مشاكله لفظية ومعناه من الله : العقاب ، ومن نوح المعاملة
بالمثل ليرتدعوا ويكفوا عن سخريتهم منه .

رابعًا : نَهَى المؤمنين عن « السخرية » بعضهم من بعض ، لأن الإيمان
عمل صالح .

خامسًا : السبب فى عدم ورود فعل الأمر منها لأنها من المنكرات القولية .

سادسًا : يفرق القرآن بين « سَخَرِيَا » بكسر السين ، و« سَخَرِيَا » بضم
السين ، فالأول منكر قبيح ، والثانى سنة لله فى « عباده » لتفاعل طاقاتهم
وتنمو حركة الحياة .

* * *

السَّكِينَةُ - الشَّجَاعَةُ

فى اللغة الفصحى ، وفى دنيا الناس كلمات لها بريق وانتشار ، وتحمل « شحنات » هائلة من الشرف وطيب السمعة . ومع هذا فإن القرآن يخلو منها ، ولم ترد فيه ولا مرة واحدة ، مع وجود المناسبات التى يحسن ورودها فيها .

ومن هذه الكلمات « الشجاعة » وهى فى اللغة الفصحى كثيرة الاستعمال ، ويُقصد بها قوة القلب ، والاستخفاف بالخطر ومواجهة « الصعاب » . وقد اكتسبت كلمة « الشجاعة » هالة من النبل والشرف ، وكادت تستأثر بالدلالة على المدح فى التصدى للأخطار ، وخوض غمار الخطوب ، ولم تحظ هذه الكلمة « السيّارة » بشرف استعمال القرآن الحكيم لها مع تكرار معانيها فيه مدلولاً عليها بغيرها من الألفاظ .

ونبدأ الآن بهذا السؤال :

ما البديل الذى استعمله القرآن فى الدلالة على معنى الشجاعة التى هجر استعمال لفظها ؟

والإجابة تتكفل بها الآيات الآتية :

● التمثيل :

﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ ، وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ (١) .

﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ (٢) .

(٢) الفتح : ١٨

(١) الفتح : ٤

﴿ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى ، وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (١) .

﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ، وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ (٢) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ ﴾ (٣) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (٤) .

﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ * وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ (٥) .

إذا دققنا النظر في هذه الآيات التي أثبتناها هنا اتضح لنا أمران :

الأول : أن القرآن الحكيم آثر في الآيات الأربع الأولى كلمة « النسكينة »

(٣) الأنفال : ١٥

(٢) الفتح : ٢٦

(١) التوبة : ٤٠

(٥) آل عمران : ١٤٦ - ١٤٧

(٤) الأنفال : ٤٥

على كلمة « الشجاعة » وقد أضاف الله عزَّ وجلَّ هذه السكينة إلى نفسه في قوله جَلَّ شَأْنُهُ ﴿ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ ﴾

وفي قوله : ﴿ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أما في الآيتين الآخرين ، فقد جاءت السكينة معرفة بالآلف واللام : « السكينة » .

والمراد منها مضافة وغير مضافة : الثبات ، والقرار ورباطة الجأش .

وآثر عليها « الثبات » في آية الأنفال (٤٥) :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا ﴾ ، فالسكينة والثبات بديلان إيجابيان عن الشجاعة حيث لم يقل : أنزل الشجاعة ، وحيث لم يقل : تشجعوا ، أما آيتا الأنفال (١٥) ، وآل عمران (١٤٦) ، فقد عبَّر عن الشجاعة بنفى أضدادها :

﴿ فَلَا تُولُّوهُمُ الْاَدْبَارَ ﴾ في الأنفال : أى لا تفروا منهم ، و﴿ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا ﴾ في آية آل عمران الأولى : أى ثبتوا وسكنوا ولم يجبنوا .

وهذان بديلان سلبيان عن معنى الشجاعة ، حيث نهى في الأنفال عن الفرار ، ونهى في آل عمران الضعف والاستكانة .

وفي دعاء الربيع في آية آل عمران الثانية قالوا : ﴿ وَثَبَّتْ أَقْدَامَنَا ﴾ ، وهذا بديل إيجابى ثالث ، لأنه كناية عن معنى « الشجاعة » ولم يقولوا : شجعنا وهكذا نجد القرآن في جميع الأحوال لم يستعمل لفظ الشجاعة ، مؤثراً عليها مصطلحات أخرى أشرنا إليها وأسميناها بدائل إيجابية تحقيقاً للضبط . هذا وجه .

أما الوجه الثانى ، فهو : إرادة معنى الشجاعة إما بالنهى عن أضدادها ، أو بنفى تلك الأضداد .

وأظهر مصطلح إيجابى يؤثره القرآن على كلمة « الشجاعة » هو « السكينة » وما دمنا عرفنا أن « الشجاعة » ليست من لغة القرآن ، فلنقل إن البدائل التى أسميناها سلبية إنما هى كنايات عن « السكينة » لا عن « الشجاعة » .



● ولماذا هجر القرآن كلمة « الشجاعة » ؟ :

الإجابة على هذا السؤال ستكشف لنا إلى أى مدى بلغت دقة اختيار كلمات القرآن ؟ وفى الإجابة إضافة جديدة إلى ترسيخ ما سبقت الإشارة إليه من أن القرآن يستخدم اللغة استخداماً أمثل ، بل منقطع النظير فى أى كلام سواه مهما بلغت جودته .

الإجابة فى إيجاز :

إن مادة « سكن » حيث وردت فى اللغة ، أو فى القرآن ، تدل على المعانى الشريفة البريئة من أدنى المآخذ ، تأمل معناها فى سياق الحديث عن صلاة النبى لمؤتى الزكاة ، وصلاته عليهم هى دعاؤه لهم : ﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ، إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ ﴾ (١) .

وتأمل معناها فى سياق الحديث عن الروابط الحميمة بين الأزواج :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٢) .

وتأمل معناها فى سياق الحديث عن نعم الله على عباده . ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا .. ﴾ (٣) .

تأمل معانى المادة فى هذه الآيات - وغيرها - تجدها معانى حيوية إلى

(١) التوبة : ١٠٣

(٢) الروم : ٢١

(٣) النحل : ٨٠

النفوس ، تشيع فيها البهجة والقرار والأريحية ، فهي مادة فضل وخير وسعادة دائماً .

أما الشجاعة ، فعلى ما فيها من معنى شريف ، فإن شوائب مكدره تفوح منها أحياناً .

فهى مطية التهور والطيش إلا من رحمه الله .

وهى تطلق على نوع من الحيات قبيح المنظر ، عدوانى السلوك ، ومنها ما ينسب إلى الجنون أو ما يشبه الجنون . كل هذه « المثالب » تجدها لصيقة بمادة « شجع » فى معاجم اللغة المشهورة (١) .

ولأن لغة القرآن لغة إعجاز وبراءة من كل أخذ ورد ، لم يستعمل القرآن شيئاً من صيغ هذه المادة المحظوظة عند الناس ، والتى لا حظ لها فى الكتاب العزيز ؛ لأنه :

﴿ كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ (٢) .

السكينة : قوة قلب ، وثبات أقدام ، ورجاحة عقل ، واتزان تصرف ، ووضوح رؤية ، وسلامة سلوك .

أما الشجاعة فقد تؤدى إلى شدة اندفاع ، وعفوية تصرف ، واختلاط رؤية ، ومغلبة مصير ، وبطش غير مدروس ، فاستعمال القرآن « السكينة » دون « الشجاعة » إعجاز لغوى بلاغى حافل بالدقائق والأسرار .

* *

(١) انظر - مثلاً - لسان العرب : مادة : (ش . ج . ع) .

(٢) هود : ١

• منهج القرآن في « السَّكِينَة » :

أولاً : استعمال كل « صيغ » المادة في المعاني الفاضلة ، والغايات النبيلة والنعم الوارفة .

ثانياً : ورودها في القرآن عنواناً على الثبات في الشدائد ومواجهة الأخطار ، كسباً للمحامد في الدنيا والآخرة .

ثالثاً : تشريفها بإضافتها إلى « الله » في محكم آياته .

رابعاً : تشريفها بِجَعْلٍ « محلها » قلب رسوله الكريم ، وقلوب صالحى المؤمنين .

خامساً : تشبيهها بالغيث النازل من السماء على سبيل الاستعارة المكنية ، المرموز للمشبه به فيها بالفعل « أنزل » وهو حقيقة يكون للغيث المشبه به المحذوف ، وهو مصدر الحياة والرحمة والألطف الإلهية ، والنجدة .



الفوز - النجاح

كلمة « نجح » تشيع بين الناس شيوع الشمس في الآفاق ، ولها ارتباط وثيق بكل عمل يؤديه الإنسان ، ولا يخلو يوم لم يُردّد فيه هذه الكلمة ، على أفواه الناس ، وتغزو كل مجال من مجالات الحياة ؛ إنها أكثر شيوعاً ، وأكثر حظاً ، وأمس رحماً بالواقع المعيش من كلمة « الشجاعة » ؛ لأن « الشجاعة » مرتبطة بدائرة واحدة من دوائر النشاط البشرى ، أما « النجاح » ، فهو بمثابة خطوط العرض والطول في نسيج الحياة كلها ، يرددها الساسة والعلماء ، والأطباء ، ورجال الأعمال ، وكل قطاع بشرى . فهي « الكرة » الطائرة لا تكاد تستقر في مكان . سواء في ذلك دوائر النشاط الجاد والهازل .

ومع هذا البريق الهائل ، فهي في لغة القرآن آفل نجمها ، عاثر حظها ، خامل ذكرها ، مع كثرة المناسبات التي تقتضى ذكرها في القرآن لو كان القرآن حاطب ليل ، يحشد الألفاظ حشداً عشوائياً - كما هو الشأن عند كثير من الناس - ولكنه كتاب نزل بعلم الله الذي لا تخفى عليه خافية ، ولا يعزب عنه شيء في الأرض ولا في السماء . ولهذا لم يكن لـ « كلمة النجاح » ، وهي فصيحة ومستعملة لغوياً ، أدنى ذكر ، وقد آثر القرآن كلمات أخرى للدلالة على المعنى الذي تُفِيده كلمة « النجاح » من حيث الجملة .

وهذا يسوقنا إلى سؤال هو مدخلنا للدراسة التي نمارسها في هذا المجال .

والسؤال هو : ما البديل الذي آثره القرآن الحكيم على كلمة « النجاح » ذات البريق والسحر في حياة الناس ؟ (١) .

(١) في القرآن عدة بدائل لكلمة « النجاح » ولكننا سنركز على بديل واحد تيسيراً للموازنة بين البديل والمبدل عنه .

الإجابة تفصح عنها الآيات الآتية :

● التمثيل :

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ، وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ، وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ (١)

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ، وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ (٢) .
﴿ وَلَكِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لِيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ (٣) .

﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (٤) .
﴿ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ، لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ، ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (٥) .

﴿ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ ، وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴾ (٦) .
﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ، وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ، ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (٧) .

(٣) النساء : ٧٣

(٢) الأحزاب : ٧٠ ، ٧١

(١) آل عمران : ١٨٥

(٥) المائدة : ١١٩

(٤) النساء : ١٣

(٧) التوبة : ٧٢

(٦) الأنعام : ١٥ ، ١٦

﴿ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (١) .

﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ، ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (٢) .

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ ، يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ، وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ ، وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ، فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ ، وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (٣) .

﴿ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ، لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ، ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (٤) .

﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴾ (٥) .
﴿ وَفَهُمُ السَّيِّئَاتِ ، وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتُهُ ، وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (٦) .

﴿ لَا يَذُرُّونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى ، وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ * فَضْلًا مِنْ رَبِّكَ ، ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (٧) .

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ، ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴾ (٨) .

(٣) التوبة : ١١١

(٢) التوبة : ١٠٠

(١) التوبة : ٨٩

(٦) غافر : ٩

(٥) الصافات : ٦٠ ، ٦١

(٤) يونس : ٦٤

(٨) الجاثية : ٣٠

(٧) الدخان : ٥٦ ، ٥٧

﴿ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ ،
بُشْرَاكُمْ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، ذَلِكَ هُوَ
الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (١) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ *
تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ،
ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ
تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ، ذَلِكَ الْفَوْزُ
الْعَظِيمُ ﴾ (٢) .

﴿ ... وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ
تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ، ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (٣) .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ ، ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴾ (٤) .

﴿ لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ
فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ، وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ (٥) .

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ
دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ (٦) .

﴿ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ (٧) .

(٣) التغابن : ٩

(٢) الصف : ١٠ - ١٢

(١) الحديد : ١٢

(٦) التوبة : ٢٠

(٥) الفتح : ٥

(٤) البروج : ١١

(٧) المؤمنون : ١١١

﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ
الْفَائِزُونَ ﴾ (١).

﴿ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ ، أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ
الْفَائِزُونَ ﴾ (٢).

﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا * حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴾ (٣).

﴿ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا
فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٤).

﴿ وَيُنَجِّى اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ
يَحْزَنُونَ ﴾ (٥).

تساءلنا قبل ذكر هذه الآيات ، التى سعدنا بتسجيلها هنا عن البديل القرآنى
لكلمة « النجاح » وقلنا إن الآيات الآتية هى التى ستحدد الإجابة عن السؤال
الوارد من قبل ، والآن عسى أن يكون القارئ الكريم قد عرّف ما هو البديل
بعد نظره فى الآيات المذكورة .

* إنها سبع وعشرون آية اشتركت فى ذكر كلمة وردت فيها جميعها فى
صيغات مختلفة ، هى البديل القرآنى لكلمة « النجاح » التى لم تحظ بشرف
الورود فى القرآن . فما هى تلك الكلمة التى ذكرت فى السبع والعشرين
آية (٦) .

(٣) النبا : ٣١ ، ٣٢

(٢) الحشر : ٢٠

(١) النور : ٥٢

(٤) آل عمران : ١٨٨ (٥) الزمر : ٦١

(٦) الآيات المذكورة أكثر من سبع وعشرين آية ، لاننا ذكرنا - أحياناً ، قبل وبعد
الآية. التى وردت فيها كلمة « الفوز » آيات أخرى ، لان لها ارتباطاً بالمعنى المراد من
كلمة « الفوز » او تجلية المعنى المراد .

✽ الفوز :

أجل ، هي « الفوز » فما من آية من السبع والعشرين آية إلا وقد ذُكرت فيها كلمة « الفوز » فعلاً أو اسماً أو مصدرًا حسبما هو واضح من نصوص الآيات .

✽ وبعض الآيات وردت فيها المادة مرتين ، وهما :

آية سورة « النساء » رقم (٧٣) .

وآية سورة « الأحزاب » رقم (٧١) .

وبهذا يكون عدد المرات التي وردت فيها المادة في السبع والعشرين آية تسعاً وعشرين مرة .

وليس في القرآن - كله - آيات أخرى ذُكرت فيها المادة لم نذكرها ، أى أن التسع والعشرين مرة لورود كلمة « الفوز » في صيغها المختلفة هي كل ما ورد في القرآن الكريم منها .

✽ وجاءت مثبتة في ثمان وعشرين مرة ، ومنفية مرة واحدة في الآية رقم (١٨٨) من سورة آل عمران ؛ لأن من ذُكرت في سياق الحديث عنهم ليسوا أهلاً لشرف الوصف بها وقد وزَّعتْ صيغ المادة في الآيات السبع والعشرين على النسق الآتى :

✽ فعلان ماضيان لا ثالث لهما ، وهما :

« فقد فاز » ، و « فقد فاز فوزاً عظيماً » .

✽ فعل مضارع واحد لا ثانى له ، وهو : « فافوز » .

✽ لم يأت منها فعل أمر ؛ لأن المادة مسوقة في الآيات في أساليب خبرية ، إلا آية آل عمران (١٨٨) ، فقد وردت في أسلوب إنشائي ، لكنها اسم لا فعل « بمفازة » .

* أما غير الأفعال فمنها أربعة عشر مصدرًا مستعملًا استعمال الأسماء ، ومعرفًا بالالف واللام (الفوز) .

* ومصدران منكران (فوزًا عظيمًا) .

* ومصدر واحد منكر مستعمل استعمال الأسماء « وكان ذلك عند الله فوزًا عظيمًا » .

* وأربعة أسماء فاعلين « الفائزون » .

* وواحد اسم مكان : ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴾ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴿ .

* ثم اسمان مؤنثان : « مفارة » .

* لم يستعمل القرآن صيغ هذه المادة إلا فى مقام الإيمان والعمل الصالح الذى يُرْجى به وجه الله ، والذى تكون عاقبته التمتع بنعيم الجنة ورضوان الله :

* وفى آية آل عمران (١٨٥) ، جاءت تعقيبًا على حال من رُحِزَ عن النار وأدخل الجنة . ونلاحظ - هنا - أنه تعالى قال : ﴿ فَقَدْ قَارَ ﴾ ، ولم يصف الفوز بأى وصف مفخَّم كما جاء فى الآيات الأخرى ، وترك التفخيم - هنا - فيه مطابقة دقيقة لمقتضى الحال ؛ لأن من يُرْحِزُ عن النار - يكون من مستحقى دخولها لولا رحمة الله به . مثله كمثّل الطالب الذى لا يحصل على درجات النجاح ، ولكنه قاربها فيُراف بحاله ويمنح درجات النجاح .

* وفى آية الأحزاب (٧١) ، جاءت تعقيبًا على أوصاف حميدة منها طاعة الله ورسوله .

وفى آية النساء (٧٣) ، جاءت تعقيبًا على مصاحبة النبى ﷺ والمؤمنين معه .

وفى آية النساء (١٣) جاءت تعقيبًا على طاعة الله ورسوله ودخول الجنّات .

وفى آية المائدة (١١٩) جاءت تعقيبًا على الصدق ، ودخول الجنّات والخلود فيها ، ورضا الله عن الصادقين ورضا الصادقين عن الله .

وفى آية الأنعام (١٦) جاءت تعقيباً على حصول رحمة الله وصرف العذاب عن المتحدث عنهم .

وفى آية التوبة (٧٢) جاءت تعقيباً على الاتصاف بالإيمان والوعد بالجنات تجرى من تحتها الأنهار وحلول رضوان الله بالمؤمنين .

وفى آية التوبة (٨٩) جاءت تعقيباً على دخول الجنات والخلود فيها .

وفى آية التوبة (١٠٠) جاءت تعقيباً على السبق إلى الإسلام ، والاتباع بإحسان ، وحلول رضوان الله على المؤمنين ورضاهم عن الله ، والخلود فى الجنات .

وفى آية التوبة (١١١) جاءت تعقيباً على الجهاد فى سبيل الله بالأنفس والأموال .

وفى آية يونس (٦٤) جاءت تعقيباً على بشرى الله عباده الصالحين فى الدنيا والآخرة .

وفى آية الصافات (٦٠) جاءت إشارة إلى نعيم الجنة .

وفى الدخان (٥٧) جاءت تعقيباً على الوقاية من العذاب وحلول فضل الله بالمتقين .

وفى آية الجاثية (٣٧) جاءت تعقيباً على الإيمان والعمل الصالح ودخول الجنات المعبر عنها بالرحمة .

وفى آية الحديد (١٢) جاءت تعقيباً على الإيمان وسعى نور المؤمنين بين أيديهم وبأيمانهم والبشرى بالجنات .

وفى آية الصف (١٢) جاءت تعقيباً على الإيمان والجهاد بالمال والنفس وغفران الذنوب والتمتع بنعيم الجنات .

وفى آية التغابن (٩) جاءت تعقيباً على الإيمان والعمل الصالح ، والخلود فى الجنات .

وفى آية البروج (١١) جاءت تعقيباً على الإيمان والعمل الصالح .
وفى آية الفتح (٥) ، جاءت تعقيباً على الإيمان وعمل الصالحات ، وتكفير
السيئات والخلود فى الجنات .

وفى آية التوبة (٢٠) جاءت تعقيباً على الإيمان والهجرة ، والجهد بالمال
والنفس فى سبيل الله ورفع الدرجات .

وفى آية المؤمنون (١١١) جاءت تعقيباً على الصبر .
وفى آية النور (٥٢) جاءت تعقيباً على طاعة الله ورسوله وخشية الله
وتقواه .

وفى آية الحشر (٢٠) جاءت تمييزاً لأصحاب الجنة على أصحاب النار .
وفى آية النبا (٣١) جاءت تمهيداً لتفصيل نعيم أهل الجنة .
وفى آية آل عمران (١٨٨) جاءت منفية عما لا يستحقها من العباد .
أما فى آية الزمر (٦١) ، فقد جاءت واسطة بين التقوى والوقاية من سوء
العذاب والحزن .

* فانت ترى من هذه « الإشارات » أن الفوز عند الله له ثمن عظيم ، وأنه
لم يأت إلا جزاء على القيام بأصول الإيمان فى العقيدة والعمل ، وفى الآيات
خصائص أسلوبية أسرة ، كنا نود - لولا خشية الإطالة - أن نستجليها ،
ولكننا نجتزئ بهذه الإشارات السريعة للكشف عن عظمة هذا « الفوز » فى
كتاب الله .

* لم يخلُ موضع من مواضعه من ذكر كبريات الفضائل كالإيمان بالله ،
وطاعة الله ورسوله ، والجهد فى سبيل الله بالمال والنفس ، والصبر على
الأذى فى الدين ، والهجرة لنصرة دين الله .

* تفخيم الأساليب التى وردت فيها المادة . فإذا كان الفوز هو المتحدث
عنه جاء معرف الطرفین لإفادة القصر ، وأنه لا فوز غيره ، وأحياناً يجاء
بضمير الفصل (هو) بين الطرفين المعرفين تأكيداً للنسبة بينهما .

مجئ الطرف الأول (المسند إليه) اسم إشارة « ذلك » الموضوع لبُعد المكان مستعاراً لبعد مكانه « الفوز » وتعظيماً لشأنه .

ومن سمات تفخيم أساليب « الفوز » حرص القرآن على إتباعه بوصف فخم ، سواء كان معرفاً أو منكرأ .

فالمعرف وصف بثلاثة أوصاف :

وهى : العظيم ، وهو الغالب على ما عداه من أوصاف .

ثم : المبين فى موضع واحد (سورة الجاثية) .

ثم : الكبير فى موضع واحد كذلك (سورة البروج) .

والمنكر وصف بـ « عظيمًا » (سورة الأحزاب ، النساء ، الفتح) :

وقد حاولنا السر فى تغاير الوصف بين : العظيم - المبين - الكبير ، والذي قذفه الله فى قلوبنا أن تغاير الوصف هذا له دلالات وليست هذه الأوصاف بمعنى واحد .

فالوصف بـ « العظيم » تنويه بالكيفية التى عليها الفوز وتعظيم لشأنها ، والوصف بـ « الكبير » تنويه بالكمية التى عليها الفوز ، وبيان لكثرتها ، والوصف بـ « المبين » تجلية لظهور الفوز وكونه فى أعلى عليين .

هذه هى بعض سمات الخصائص الأسلوبية فيما كان فيه الفوز متحدثاً عنه .

أما إذا كان الفوز حديثاً عن غيره ، أى خبراً عن مبتدأ ، فإنه يأتى فى جملة قصرية تفيد قصر الفوز على المتحدث عنهم ، وذلك ظاهر كل الظهور فى المواضع الأربعة التى جاء « الفوز » فيها اسم فاعل جمع :

﴿ أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ - ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ - ﴿ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ - ﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾



● لماذا الفوز ؟

ونخطط مع هذه الكلمة « الفوز » خطوة أخرى كاشفة عن سر إشار القرآن لها دون كلمة « النجاح » البراقة في دنيا الناس .
وصفوة القول في الإجابة على هذا السؤال هي :

في كتب المعاجم اللغوية أن معنى فاز قطع المفازة ، وهي الصحراء المهلكة ونجا من أخطارها ، وأن العرب سموا المهلكة المفازة تفاؤلاً ، كما كانوا يطلقون على اللدينغ السليم تفاؤلاً .

كما فسرت المعاجم فاز بنجا .

وكذلك فسرها مفسرو القرآن الكريم ، فهي تدل على نيل المحبوب ، والسلامة من المكروه .

ومؤدى هذا أن فاز بكل صياغاتها اللغوية لا يراد منها إلا الظفر بالمحبوب ، والسلامة من كل مكروه ، وليس فى المعانى المرادة منها ما فيه شائبة من شر أو ما يضاد المنفعة الطيبة .

لذلك أثرها القرآن وجعلها عنواناً للجزاء الحسن .

● ولماذا هجر القرآن « نجح » ؟

أما « نجح » وتصرفاتها اللغوية فتستعمل - كما هو الواقع - فى الخير والشر ، والمحبوب والمكروه ، والجد واللهو ، ومن كثرة استعمالها فى كل الأمور :

كبيرها وصغيرها ، عظيمها وحقيرها ، شريفها ووضيعها ، أصابها الامتھان والابتذال ، وقد رأينا القرآن الكريم يستخدم فاز ويفوز ، والفوز وفوزاً والفائزون ومفازاً ومفازة ، فى أصول الإيمان وفروعه ، وفى الفضائل الأمھات ، وفى السعادة الحققة فى الآخرة ، وما يقرب إليها فى الدنيا من عقيدة ، وقول وعمل .

وليست « نجح » ومشتقاتها أهلاً لأن تقوم بهذه المهمة الجليلة الشأن . وليس فيها من صفاء ألفاظ القرآن ما يرقى بها إلى هذه المنزلة ، لأننا نقول : نجح اللص فى نهب الأموال ، ونجح القاتل فى الهروب بعد أن ارتكب جريمته ، ولا نقول : فاز اللص ولا فاز القاتل ، هذه الشوائب نَحَتْ « نجح » وما يتفرع منها عن أن تكون « نجماً » فى سماء البيان المعجز .



● منهج القرآن فى « فاز » ومشتقاتها :

- أولاً : قصرُ استعمالها على الخير الدائم ، والسعادة الأبدية .
- ثانياً : إضفاء هالة ضخمة من التفخيم البيانى على الأساليب التى وردت فيها صيغ المادة .
- ثالثاً : توزيع استعمالاتها على الأفعال - ما عدا الأمر - والمصادر والأسماء .
- رابعاً : كثرة ورودها فى جُمْل « قصرية » فى المصادر وأسماء الفاعلين ، وتصديرها بأداة التحقيق « قد » فى الفعل الماضى .
- خامساً : وصف المصادر المعرّفة بالعظمة والكُبر والإبانة ووصف المصادر المنكرة بالعظمة فحسب .
- سادساً : إيرادها كالشمس المضيئة مع كوكبة من الفضائل القلبية (الإيمان) والأعمال الصالحة .
- سابعاً : إيرادها فى الأسلوب الخبرى دون الإنشائى ، لأنها أحكام على سلوك عباد الله الاتقياء البررة .
- ثامناً : إيرادها مثبتة إلا فى موضع واحد جاءت منفية ؛ لأن من جاءت فى سياق الحديث عنهم ليسوا أهلاً للوصف بها .



اللِّسَان - اللُّغَةُ

اللغة هي : الكلمة التي تلى كلمة « النجاح » فى الذبوع والانتشار وكثرة الاستعمال ، وهى اصطلاح حادث بعد القرون الأولى التى تلت نزول القرآن . ولم تكن موجودة فى العصر الجاهلى ، ولا عصر صدر الإسلام ، وأخذ المصطلح ينمو بدءاً من القرن الثامن الهجرى . وهى - الآن - أعنى اللغة - جنس عام يُحدّد المراد منها إما بالوصف مثل : اللغة العربية ، أو الإضافة ، مثل : لغة العرب . ومع ما لهذه الكلمة - الآن - من ذبوع واستفاضة استعمال ، فإن الكتاب العزيز خلا منها تماماً باعتبارها مصطلحاً على نظام ما يطلق على أى لغة ، مفردات وتراكيب وقواعد نحوية وصرفية ، أما أصل المادة فقد ورد فيه مرات مقصوداً منه غير ما نقصده نحن الآن من كلمة « اللغة » .

وقد عودنا القرآن أنه إذا هجر لفظاً أو مادة فإنه - فى الوقت نفسه - يؤثر بديلاً عنها لمزايا فى ذلك البديل ليس لها وجود فى المُبدل عنه ، ولشوائب فى المُبدل عنه ليس لها وجود فى البديل ، والآيات الآتية توضح لنا الأمرين معاً :

● التمثيل (١) :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ ﴾ (١)
﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ، لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِي وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴾ (٢)
﴿ ... لَتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾ (٣)

(١) إبراهيم : ٤ (٢) النحل : ١٠٣ (٣) الشعراء : ١٩٤ ، ١٩٥

﴿... وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِّلْمُحْسِنِينَ﴾ (١) .

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ السِّتِّكُمْ وَالْوَانِكُمْ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾ (٢) .

فى هذه الآيات الخمس وردت كلمة « لسان - لساناً » خمس مرات ، ثم جاءت جمعاً فى سورة الروم : ﴿ أَلَسْتِكُمْ ﴾ والمراد منها مفرداً هو : اللغة كما نفهمها الآن .

أما آية الروم فإن المراد من ﴿ اخْتِلَافُ السِّتِّكُمْ ﴾ أمران :

الأول : اختلاف لغات البشر كما هو معروف الآن من تعدد اللغات بين الأمم والشعوب .

الثانى : اختلاف كىفیات الأصوات من فرد إلى فرد ، حتى بين أفراد الأسرة الواحدة ، واختلاف أصوات الذكور عن أصوات النساء ، لدرجة أن دلالة الصوت على صاحبه تكاد تكون كدلالة وجهه عليه . ذلك من آيات الله فى خلقه ، وقل أن تجد اثنين يتفق صوتاهما من كل جهة .

وفى القرآن آيات أخرى بعضها يراد منه العضو أو الجارحة قطعاً ، وبعضها تصلح دلالة على كل من الصوت والجارحة . وبعض آخر منها يراد منه ما هو أخص من اللغة ، أى الذكر الحسن كما فى قول إبراهيم - عليه السلام الذى حكاه عنه القرآن الأمين :

﴿وَأَجْعَلْ لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ (٣) .

وقد آثرنا الاكتفاء بذكر الآيات التى تدل دلالة قاطعة على « اللغة » بمعناها العام .

(٣) الشعراء : ٨٤

(٢) الروم : ٢٢

(١) الاحقاف : ١٢

فاللسان هو البديل القرآنى عن كلمة « اللغة » التى لم ترد فيه قط .
وطريق استعمال اللسان بمعنى اللغة - بلاغة - هو المجاز المرسل ،
والعلاقة بينهما هى : الآلية ؛ لأن اللسان هو آلة اللغة وبه تكون .
والقرينة المانعة من إرادة المعنى الحقيقى الوضعى لكلمة « اللسان » فى مثل
قوله تعالى :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ ﴾ ، هو استحالة إرادة العضو أو
الجراحة . وهى قرينة حالية عقلية ، لأن القوم لهم السنة لا لسان واحد .

ولأن كل فرد من قوم أى رسول لسانه لم يفارق محله من فمه ،
والمصطلح القرآنى للغة ، وهو اللسان ، ما يزال شائعاً فى علم اللغة العام
حتى الآن ، وفى مصر كلية مسماة بـ « كلية الألسن » أى اللغات .

وشبيه بهذا إطلاق اسم النهر على الماء الجارى فى مكان ، والنهر فى
الوضع اللغوى هو المكان الذى يجرى فيه الماء ، وليس الماء .
والعلاقة هى المحلية . وهذه العلاقة « المحلية » غير منكر أن تلاحظ بين
اللغة واللسان الواقع مجاراً عنها .

إذا ، فدلالة اللسان على اللغة ذات علاقة حميمة بها وخالية من كل
الشوائب . لذلك أثرها القرآن الحكيم ، كما أثر غيرها من الكلمات ، وهو
إيثار قائم على اعتبارات دقيقة وعميقة ، بل ومعدودة من سمات الإعجاز
اللغوى البيانى . هذا هو جانب الكمال المطلق فى إطلاق اللسان على اللغة
. والآن ندلف إلى الشق الثانى من الدراسة :

* *

● التمثيل (٢) :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ (١) .

(١) فصلت : ٢٦

﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ ﴾ (١)

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴾ (٢)

﴿ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴾ (٣)

﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾ (٤)

﴿ يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْتِيمٌ ﴾ (٥)

﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيمًا * إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴾ (٦)

﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا ، وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًا ﴾ (٧)

﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَابًا ﴾ (٨)

أقرب الألفاظ في القرآن الكريم إلى « اللغة » هو لفظ « لغو » ، وقد جاء هذا اللفظ في القرآن عنوانًا على نوع من الكلام ، وهذا يجعل الصلة بين « اللغة » ، و« اللغو » صلة قرينة من جهة اللفظ ، ومن جهة المعنى .

فمن حيث « اللفظ » ، فقد اشتركا في أصلين هما : اللام والغين ، ومن حيث المعنى فإن كلا منهما عنوان على نوع من الكلام .

ومع هذا التقارب فإن القرآن استخدم « اللغو » في مقام الذم حينًا ، وهو الغالب ، وفي مقام ما لا يُعتد به من الكلام حينًا آخر ، وهذا في سياق

(٣) الفرقان : ٧٢

(٢) المؤمنون : ٣

(١) المائدة : ٨٩

(٦) الواقعة : ٢٥ ، ٢٦

(٥) الطور : ٢٣

(٤) القصص : ٥٥

(٨) النبأ : ٣٥

(٧) مريم : ٦٢

الحديث عن « الإيمان » من حيث انعقادها أو عدم انعقادها ، ويجمع الأمرين وصف واحد هو :

السقوط وعدم الاعتداد . وحول هذا المعنى يدور تعريف « اللغو » فى معاجم اللغة ، فهو الكلام الساقط المُطَرَّح الذى لا اعتبار له المذموم قائله .

« اللغو من الكلام ما لا يعتد به ، الذى يُؤرد لا عن روية وفكر فيجربى مجرى « اللغا » وهو صوت العصافير ونحوها من الطيور . . . وقد يسمى كل كلام قبيح لغواً » (١) .

« ولغا الشيء يلغو لغواً ، ولغا الرجل تكلم باللغو ، وألغيته أبطلته ، وألغيته من العدد أسقطته . . . » (٢) .

هذه الشروح اللغوية لكلمة « لَغَا يَلْغُو لَغْوًا » جارية على وفق الاستعمال القرآنى لكلمة « لَغُو » لأنها فى القرآن إما كلام لَّا يعتد به ولا يؤخذ عليه صاحبه ، وإما كلام قبيح مردول يجب الترفع عنه واجتنابه ، وكما مرَّ بنا فى الآيات فإن « اللغو » يناظر الكذب والبذاءة والإثم .

ولهذا فإن أهل الجنة لا يسمعون فيها شيئاً منه ؛ لأنها دار كرامة وطهر .

ولهذا - كذلك - مدح الله المؤمنين العازفين عن اللغو :

﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴾ .

﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ، سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾ .

مما سبق يتبين لنا فى وضوح لماذا أثر القرآن كلمة « لسان » للدلالة على ما يسمى - الآن - لغة ؟

. ثم ولماذا هجر القرآن كلمة « اللغة » ؟ وأن ذلك كله قائم على اعتبارات

(١) المفردات : (٤٥١) .

(٢) المصباح المنير : (٥٥٥) .

دقيقة ، فكلمة « لغة » كما تقدم قريبة الشبه بكلمة « لغو » حتى قال بعض اللغويين : إن اللغة مشتقة من اللغو ، وقد حذف منها « الواو » ثم عوض عنه « الهاء » .

لقد ضمن القرآن الحكيم أن يسمى البيان لغة لما تقدم ، لأن البيان نعمة من نعم الله العظمى ، وقد قرنه الله في كتابه ، وهو يتمدح بنعمه على العباد ، قرنه بنعمة الخلق وتعليم القرآن ، فقال :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ : ﴿ الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾ (١) .

وصونا لهذا البيان من كل شائبة ، أطلق عليه القرآن مصطلح « اللسان » تنزيهاً له ، ورفعاً لشأنه .

وغير خاف على القارئ - بعد ما تقدم - أن استعمال أصل هذه المادة (ل غ ي) ، أو (ل غ و) فيما لا يُحْمَد من الأصوات أو الكلام - أسبق من استعماله في الدلالة على « اللغة » وإن كانت هي الآن صاحبة الجلالة في الاستبداد بهذا المصطلح « المتألق في سماء البيان » ، وصار « اللغو » فرعاً في شجرتها الوارفة الظلال ، اليانعة الثمار .

* *

● منهج القرآن في « اللسان » :

أولاً : اللسان في لغة القرآن هو العنوان الأثير في الدلالة على « البيان » الإنسانى بكافة شعبه ومستوياته .

ثانياً : يأتي « اللسان » في لغة القرآن للدلالة القاطعة على ما تواضع الناس على تسميته « لغة » ويأتى أحياناً محتملاً لهذه الدلالة مع احتمال آخر للدلالة

(١) الرحمن : ١ - ٤

على « الجارحة » أو العضو آلة النطق مثل : ﴿ وَأَحْلَلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي ﴾ ،
وأحياناً أخرى يدل دلالة قاطعة على « الجارحة » مثل :

﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ (١) .

ثالثاً : العلاقة بين « اللسان » ، و « اللغة » كما هي الآن هي علاقة الآلية
المعروفة في المجاز المرسل ، أحد قسمي المجاز اللغوي .

رابعاً : يأتي « اللسان » في لغة القرآن - في بعض المواضع - كناية عن
ضعف التواطؤ بين ما يعتقده « القلب » وما ينطق به اللسان .

﴿ يَقُولُونَ بِالسِّتَةِ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ (٢) .

خامساً : كما يأتي للدلالة على كيفية النطق « الفردى » ووضوح الأداء :

﴿ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا .. ﴾ (٣) .

إذ ليس لهارون لغة غير لغة موسى - عليهما السلام ، بل المراد استقامة
لسان هارون في النطق وطواعيته في الأداء .

سادساً : أو كناية عن الحُبسة ، وامتناع الكلام :

﴿ .. وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي ﴾ (٤) .

• منهج القرآن في « لَغَا يَلْغُو » :

أولاً : استعماله - في الأغلب - في الكلام الساقط والألفاظ البذيئة ،
والثرثرة العشواء ، واللغظ الفارغ .

(٢) الفتح : ١١

(١) القيامة : ١٦

(٤) الشعراء : ١٣

(٣) القصص : ٣٤

ثانيًا : استعماله - نادرًا - في الإعذار وترك المؤاخذه في كل كلام عَفْوِي غير مقصود ، وهذا في لغو اليمين والطلاق .

ثالثًا : تصويره تصويرًا منفردًا ومدح العازفين عنه مع الإشارة - مرات - إلى خلو دار النعيم منه لما فيه من إثم وقبح .

رابعًا : بيان أنه بضاعة الحمقى من أعداء الرسائل ، واتخاذهم منه وسيلة شيطانية للتشويش على الحق ، والغرض من شأنه .

خامسًا : الضن بالبيان أن يكون « اللغو » عنوانًا له لشرف البيان وحقارة اللغو .

سادسًا : مناظرته بالإثم والكذب ، وكفى بذلك ذمًا ووضاعة .

* * *

صَعَدَ - يَصْعَدُ

صعد وبعض صورها من الكلمات التي حظيت برودها في القرآن الحكيم ، ومرادنا من درس هذه الكلمة من حيث وردت في كتاب الله العزيز ؛ أمران : معرفة النظام الذي أوردها القرآن فيه ، ثم الفروق بين استعمالها في القرآن واستعمال كلمة « رفع » ومشتقاتها ، لما بين المادتين من رحم ماسة ، وذلك في إطار تجلية المنهج القرآني المعجز ، في استعمال المفردات اللغوية ، على غرار ما تقدم في هذه الدراسة من إضافات جدّ جديدة ، إلى حقل الإعجاز اللغوي البلاغي للقرآن العظيم .

● التمثيل :

- ﴿ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَاكُمْ . . ﴾ (١) .
- ﴿ . . وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرُّجُسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٢) .
- ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا ، إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ ، وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ . . ﴾ (٣) .
- ﴿ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾ (٤) .
- ﴿ فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴾ (٥) .

(٣) فاطر : ١٠

(٢) الانعام : ١٢٥

(١) آل عمران : ١٥٣

(٥) الكهف : ٤٠

(٤) الكهف : ٨

﴿ ... وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُم مِّنَ الْخَائِطِ ،
أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ
وَأَيْدِيكُمْ ... ﴾ (١) .

﴿ ... وَمَنْ يُغْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴾ (٢) .

﴿ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا * سَأَرْهَقُهُ صَعُودًا ﴾ (٣) .

هذه الآيات التسع هي كل ما جاءت فيه مادة الصاد والعين والدال من آي
الكتاب العزيز .

* وتردد ورودها بين الأفعال والأسماء ، فالأفعال ثلاثة كلها أفعال مضارعة .

الأول : من « أْصَعَدَ » - « إِذْ تُصْعِدُونَ » مزيد بالهمزة .

والثاني : من « تَصَعَّدَ » - « كَانَمَا يَصْعَدُ » مزيد بالتضعيف .

والثالث : من « صَعَدَ » - « إِلَيْهِ يَصْعَدُ » مجرد ثلاثي .

* هذه الأفعال الثلاثة استعملتها لغة القرآن وفق منهج خاص بها ، وهو :

(أ) إذا كان الفعل المضارع مصوغًا من فعل ماضٍ مزيد لا مجرد استُعْمِلَ
الفعلُ المضارع في مقام المخالقات ، وهي هنا - أعني المخالقات - نوعان :

* العتاب الزاجر عن مخالفة وقعت من المؤمنين ، وقد استُعْمِلَ فيها
المضارع المزيد ماضيه بالهمزة « إِذْ تُصْعِدُونَ » من « أْصَعَدَ » إذا بَعُدَ .

وذلك لأن هذه الآية نزلت ضمن آيات تُعَقَّبُ على ما حدث من بعض
أصحاب النبي ﷺ في غزوة أُحُدَ ، حين ترك بعض الرماة أماكنهم التي نذبتهم
إليها النبي ، وانضموا إلى أرض المعركة ، لجمع الغنيمة لما تحقق النصر

(٢) الجن : ١٧

(١) النساء : ٤٣ ، المائدة : ٦

(٣) المدثر : ١٦ ، ١٧

للمؤمنين فى الجولة الأولى - مخالفين أمر القائد - فكرّ المشركون بعد فرّ متهزّين فرصة ترك الرماة مواقعهم ، ففرّ من الصحابة من فرّ ناجين بأنفسهم ، وثبت من ثبت ووقع ما لا يحمد عقباه (١) .

وأصعد : أبعد فى الأرض ، أى سار سيراً بعيداً عن المكان الذى كان فيه ، وهو - فى الآية - أرض المعركة ، أما : ﴿ وَلَا تَلُوْنَ عَلَى أَحَدٍ ﴾ أى لا تلتفتون وراءكم ، أو أن كل واحد اهتم بإنجاء نفسه تاركين القائد - صلى الله عليه وسلم - ومن ثبت معه أمام العدو فى الجولة الثانية - وهم قلة - وراء ظهورهم ، فالقرآن يذكرهم بما وقع منهم مما لا ينبغى وقوعه من مثلهم فى مثل المقام الذى كانوا فيه مع صاحب الدعوة صلى الله عليه وسلم .
وقد أطلقنا على هذه المخالفة وما ورد فيها من الوحي عتاباً زاجراً ، لأن الخطاب فيها موجّه للمؤمنين .

أما النوع الثانى : من المخالفات ، فقد استعملت فيه المادة فى مقام الذمّ القادح ، والوعيد القادح ، وهذا النوع استعمل فيه الفعل المضارع « يصعّد » المزيد ماضيه بالتضعيف « صعّد » .

وقد جاء هذا الفعل فى سياق الحديث عن « الضالين » وهم غير المؤمنين ، بدليل قوله تعالى فى وصف هذا الفريق :

﴿ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرُّجُسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ .

وجاء الفعل « يصعّد » أحد طرفى صورة تشبيهية لضيق صدر الضال :

المشبه فيها هو ضيق صدر الضال ، والمشبه به الصورة الحاصلة من الإعياء وضيق التنفس عند من يحاول تطاول السماء ، فيدفع بنفسه إلى أعلى ثم يسقط

(١) انظر فى ذلك كتب التفسير فى شرح هذه الآية ، أو تفسير النسفى : (١/١٨٧) ، وما بعدها .

ثم يدفع بها ثانية ، ثم يسقط فيجهد نفسه فى غير طائل ولا يصيبه إلا الإعياء واللهث ، والخيرة والارتباك ^(١) ، وبناء الفعل « يَصْعَدُ » يدل بصورته وجرسه على شدة المعاناة ، التى يُمنى بها من يحاول هذه المحاولة المتعسفة . فالكلمة فى ذاتها فيها مشقة على اللسان فى التلفظ حاصلة من توالى التضعيفين فى الصاد والعين إذا ما قيست بـ « يَصْعَدُ » الذى هو الأصل ، فاللسان يرتفع ثم يسفل ثم يرتفع فى سهولة ويسر فى النطق بـ « يَصْعَدُ » أما فى « يَصْعَدُ » ، فيرتفع ثم يسفل ، ثم يرتفع ثم يسفل ثم يرتفع قبل أن يصل إلى الحرف الأخير « الدال » فى الكلمة ، مع الجهد المبذول فى موطنى التضعيف .

ففى الفعل « يَصْعَدُ » دلالة على التكلف ومحاولة ما لم تجربه الطباع من التعالى المستحيل .

هذا هو منهج القرآن فى الفعل المزيّد بنوعيه ، أما الفعل المجرد « يَصْعَدُ » وهو الوحيد من المادة فى القرآن ، فقد خصه القرآن الكريم بمقام الطاعة عكس الفعلين الأولين :

﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ ﴾ .

والكلم الطيب ، وإن فسرّه بعض العلماء بكلمة التوحيد - يشمل الكلام الطيب كله كقراءة القرآن ، وتعليم العلم ، والنصح الخالص لخواص الناس وعوامهم ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة .

وقد أسند الفعل « يصعد » إلى الكلم الطيب ، فهو يصعد إلى الله بنفسه

(١) فى قوله تعالى : ﴿ يَصْعَدُ فى السماء ﴾ إعجاز علمى حيث أشار إلى ما يصيب المتصعد من اختناق التنفس خارج الغلاف الهوائى الخالى من الأكسجين . وهذه الحقيقة لم تكن معروفة للناس وقت نزول القرآن ، وإنما عرفت فى العلم الحديث بعد إشارة القرآن إليها بأربعة عشر قرناً .

تعظيمًا لشأنه ، وترغيبًا فيه ، والصعود - هنا - مستعار لسرعة قبوله عند الله ،
والإثابة عليه .

* *

● الأسماء الواردة من « المادة » :

أما الأسماء الواردة من المادة ، هي :

« صعيد » على وزن « فَعِيل » أربع مرات .

و« صعودًا » على وزن « فعول » مرة واحدة .

و« صعدًا » على وزن « فَعَلَ » مرة واحدة كذلك .

فإن للغة القرآن فيها نظامًا بديعًا آخر ، وهو :

* لاحظنا أن الأساس الذي بُنى عليه منهج القرآن في الأسماء التي وردت
فيه من مادة الصاد والعين والدَّال ، هو : التفرقة بين ما جاء منها وصفًا وما
جاء موصوفًا .

* فالذي جاء منها وصفًا ، وهو كلمتان ، خصهما القرآن بمقام الحديث
عن سوء المصير في الآخرة ، هكذا :

* ﴿ سَأَرْهَقُهُ صَعُودًا ﴾ أي عقبة شاقة من العذاب ، فالموصوف محذوف ،
وأقيم الوصف « صعودًا » مقام المحذوف ؛ لأنه محط النظر ، فالعقبة ، وهي
الموصوف المحذوف - قد تكون يسيرة وقد تكون عسيرة .

أما « الصَّعُودُ » فهو المشقة الشديدة ، هكذا قال المفسرون ، وهكذا ذكرت
كتب اللغة حكاية عن العرب (١) .

(١) راجع في تفسير هذه الكلمات كتب اللغة كلسان العرب مادة (ص ع د) .

والآية الثانية :

* ﴿ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴾ أى مؤلماً شاقاً .
* أما ما جاء موصوفاً ، وهو « صعيد » أربع مرات فقد وزع على ضربين :
- ما كان الوصف فيه مقبضاً : وقد وقفه القرآن على الإنذار والتهديد ،
وهما موضعان فى سورة الكهف :

* ﴿ صَعِيدًا جُرُزًا ﴾ أى : قفراً لا ماء فيه ولا نبات (١) .

و﴿ صَعِيدًا زَلَقًا ﴾ أى مهيلاً رخواً تغوص فيه الأقدام ويستحيل المشى فيه (٢) .

والوصفان - كما ترى - مقبضان منكدان متعسان .

- وما كان الوصف مبهجاً مشيعاً للسعادة فى النفوس ، وهو آيتان كذلك :
﴿ صَعِيدًا طَيِّبًا ﴾ فى سورتى النساء والمائدة ، والوصف « طيب » وصف مبهج كما ترى .

* *

● السر البلاغى فى اختلاف الوصف :

اختلف الوصف فى آيتى النساء والمائدة عن الوصف فى آيتى المدثر والجن لداع بلاغى ملحوظ .

ففى آيتى الكهف كان المقام مقام إنذار وتهديد : فى الآية ﴿ صَعِيدًا جُرُزًا ﴾ أعقبت الآية آياتٍ قبلها تحدثت عن ضلال بعض الفرق ، واغتمام الرسول ﷺ منهم :

﴿ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا * مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ ،

(١ ، ٢) راجع فى تفسير هذه الكلمات كتب اللغة ، كلسان العرب مادة (ص ع د) ،
وكتب التفسير (سورة المدثر) .

كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ، إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا * فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ
نَفْسِكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ آسَفًا * إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى
الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا * وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا
صَعِيدًا جُرُزًا ﴿١﴾ .

والآية الثانية جاءت تعقيباً من الرجل المؤمن على كفر صاحبه صاحب
الجتين :

﴿ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ
نَفَرًا * وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا * وَمَا
أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأُجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ﴾ .

﴿ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ
نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا * لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا * وَلَوْلَا إِذْ
دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ، إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلُّ مِنْكَ مَالًا
وَوَلَدًا * فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ
السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا * أَوْ يُصْبِحَ مَأْوَهَا غُورًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ
طَلَبًا ﴾ (٢) .

هذان هما المقامان اللذان وُصِفَ فيهما « صعيداً » بالجرر والزلق . إنهما
مقاما كفر وافتراء على الله ، وجحد بنعمته ، فجاء الوصفان مطابقين لمقتضى
الحال ، ولكل مقام مقال .

أما آيتا النساء والمائدة ، فالخطاب فيهما للمؤمنين : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾

(١) الكهف : (٤ - ٨) ، وباخع نفسك : أى قاتلها بالغم والهم على كفرهم .
وهذا الحديث « : يعنى : القرآن الكريم .
(٢) الكهف : ٣٤ - ٤١

وموضوع الآيتين هو الحث على التطهر للصلاة . والصلاة والطهارة اللازمة من الأعمال التي يزكو بها المؤمن عند الله ، والآيتان هما :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ، وَلَا جُنْبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا ، وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ ، أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ، إِنْ لَّهِ كَانَ عَفْوًا غُفُورًا ﴾ (١) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوْهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ ، وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ ، وَإِنْ كُنْتُمْ جُنْبًا فَاطْمَئِنُّوا ، وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ ، مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ ، وَلِيَتِمَّ نِعْمَتُهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (٢) .

فى هذا المقام المفعم بشذا الإيمان ورياح الجنة جاء وصف « الصعيد » بـ« الطيب » فى الآيتين معاً . وبهذا الوصف تمت النعم ووجب الشكر .

* *

● منهج القرآن فى « صعد » ومشتقاتها :

أولاً : لم يأت منها فعل أمر ولا ماض ، بل ثلاثة أفعال مضارعة ، اثنان مزيدان : أحدهما بالهمزة ، والثانى بالتضعيف ، وهما مقصوران فى القرآن على مقام المخالفات :

* العتاب مع المؤمنين وخصَّ به المزيد بالهمزة « تُصْعِدُونَ » ، والذم القادح والتهديد القادح مع « الضالين » وخصَّ به المزيد بالتضعيف : « يَصْعَدُ » .

(١) النساء : ٤٣

(٢) المائدة : ٦

وواحد مجرد وخص بالترغيب فى القول الحسن « يَصْعَدُ » .

ثانيًا : وورد منه فى القرآن ستة أسماء انتظمها المنهج الآتى :

* ما جاء منها وصفًا خُصَّ بالحديث عن سوء المصير فى الآخرة .

* وما جاء منها موصوفًا فما كان فى سياق الحديث عن الكفر والافتراء على الله وجحد نعمته كان الوصف مقبضًا مؤلمًا منذرًا بما لا تحمد عقباه .

وما كان فى سياق الحديث عن المؤمنين ، وفى مسائل التشريع جاء الوصف مبهجًا مُسْعِدًا .

ثالثًا : ما صيغ من المائة اسمًا على وزن « فَعِل » اختُصَّ بالدلالة على المكان .

وما صيغ منها اسمًا على « فعول » أو « فَعَل » اختص بما يستحقه الكافرون فى الآخرة من العذاب الأليم .

رابعًا : المضارع فى « إِذْ تُصْعِدُونَ » جئ به حكاية حال ماضية وتصويرًا لها بصورة ما يقع الآن .

أما « يَصْعَدُ » فقد جئ به مضارعًا هكذا ؛ لأن العبارة مثل مضروب للكافر يصلح لكل زمان .

وأما « إليه يصعد الكلم » ، فقد أوثر فيه المضارع على الماضى لأن الكلم الطيب لا يخلو منه زمان ، فقد صعد من قبل ، وهو يصعد الآن . وسيظل يصعد ما دام فى الدنيا مؤمنون يوحدون الله ويتلون كتابه ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويدعون إلى الخير .

ولو قيل : صعد الكلم الطيب ، لأوهم أن باب الصعود قد أُغْلِقَ . والله هو العليم بسر كتابه .

* * *

رَفَعَ - يَرْفَعُ

فى مقدمة مادة الصاد والعين والدَّال ، قلنا إن لنا فى تلك المادة مطلبين :

الأول : معرفة منهج القرآن فى استعمال مادة (ص . ع . د) ثم الموازنة بينها وبين مادة (ر . ف . ع) - بعد معرفة منهج القرآن فيها كذلك - لأن بين المادتين اتفاقًا واختلافًا : الاتفاق فى أن كلا منهما يدل على حركة صاعدة من أسفل إلى أعلى ، أما الاختلاف فالذى نستطيع ذكره الآن ، أن مادة (ص . ع . د) تأتى متعدية بنفسها ، وقد تُعدى بحرف جر مناسب ، مثل صعدت المنبر ، وصعدت على المنبر ، وصعد الجبل وصعد فى الجبل .

أما مادة « ر . ف . ع » ، فمتعدية بنفسها ، وأحيانًا يأتى بعدها منصوبان ، كقوله تعالى :

﴿ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ﴾ (١) .

فقد تعدى « رفع » إلى مفعوله الأول « بعضهم » بنفسه ، أما « درجات » ، ففيها عند النحاة ستة أوجه ، أحدها : أنه مفعول ثانٍ لـ « رفع » ، وعلى هذا فإن « رفع » يتعدى بنفسه إلى مفعولين (٢) .

ولناخذ - الآن - فى التمثيل ثم النظر .

● التمثيل :

﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ ، وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ .. ﴾ (٣) .

(٢) انظر الدر المصون للسمين الحلبي : (٥٣٦/٢) .

(١) البقرة : ٢٥٣

(٣) البقرة : ٢٥٣

﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ .. ﴾ (١)

﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا .. ﴾ (٢)

﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ... ﴾ (٣)

﴿ أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمَ السَّمَاءُ ، بَنَاهَا * رَفَعَ سَمُكَهَا فَسَوَّاهَا ﴾ (٤)

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمْ الطُّورَ .. ﴾ (٥)

﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ .. ﴾ (٦)

﴿ .. وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرِيًا ﴾ (٧)

﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ (٨)

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ .. ﴾ (٩)

﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ (١٠)

﴿ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ، وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ (١١)

﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴾ (١٢)

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ .. ﴾ (١٣)

(١) الانعام : ١٦٥	(٢) يوسف : ١٠٠	(٣) الرعد : ٢
(٤) النارعات : ٢٧ - ٢٨	(٥) البقرة : ٦٣ ، ٩٣	(٦) النساء : ١٥٤
(٧) الزخرف : ٣٢	(٨) الانشراح : ٤	(٩) الأعراف : ١٧٦
(١٠) مريم : ٥٧	(١١) النساء : ١٥٨	(١٢) الرحمن : ٧
(١٣) الحجرات : ٢		

﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ ، نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَأٍ .. ﴾ (١) .

﴿ .. نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَأٍ ، وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ (٢) .

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ .. ﴾ (٣) .

﴿ يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ .. ﴾ (٤) .

﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ .. ﴾ (٥) .

﴿ وَالِى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴾ (٦) .

﴿ فِى بُيُوتٍ أِذْنُ اللَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ .. ﴾ (٧) .

﴿ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴾ (٨) .

﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ مَتَوَفَّيْكَ وَارْفَعْكَ إِلَى .. ﴾ (٩) .

﴿ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِى الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴾ (١٠) .

﴿ وَالسَّقْفَ الْمَرْفُوعَ ﴾ (١١) .

﴿ وَفُرْشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴾ (١٢) .

﴿ مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴾ (١٣) .

﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴾ (١٤) .

* هذه ثلاثون آية وردت فيها مادة الراء والفاء والعين فى صياغات مختلفة :

(١) الأنعام : ٨٣	(٢) يوسف : ٧٦	(٣) البقرة : ١٢٧
(٤) المجادلة : ١١	(٥) فاطر : ١٠	(٦) الغاشية : ١٨
(٧) النور : ٣٦	(٨) الواقعة : ٣	(٩) آل عمران : ٥٥
(١٠) غافر : ١٥	(١١) الطور : ٥	(١٢) الواقعة : ٣٤
(١٣) عبس : ١٤	(١٤) الغاشية : ١٣	

منها ستة عشر فعلاً ماضياً ، ثلاثة عشر منها مُسندٌ إلى « الله » . واحد إلى اسم الجلالة مظهراً ، واثنان عشر إلى الضمائر العائدة إليه .

وهذه - بدورها - نوعان : الأول : ضمائر التكلم فى سبعة أفعال .

الثانى : ضمائر الغيبة فى خمسة أفعال .

وموضع واحد أسند فيه الفعل الماضى إلى غير الله ، وهو :

﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ ، أى يوسف - عليه السلام .

وفعل ماضى واحد بُنى لما لم يُسمَّ فاعله ، بيد أن المقام يفيد إسناده إلى الله يقيناً ، وهو : ﴿ وَالِى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴾ والرافع هو الله .

* وسبعة أفعال مضارعة :

منها أربعة مسندة إلى الله مظهراً ومضمراً . المسند إليه مظهراً فعل واحد ،

هو :

﴿ يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ .. ﴾

وثلاثة أفعال مسندة إلى الضمير المكنى به عن اسم الجلالة ، وفعل واحد

مسند إلى ما لم يُسمَّ فاعله ، وهم المؤمنون فى قوله تعالى :

﴿ فِي بُيُوتٍ أَذْنُ اللَّهِ أَنْ تَرْفَعَ وَيُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ .. ﴾ ، يعنى تُبنى

وتشاد ، وبانوها والذاكرون اسم الله فيها هم المؤمنون .

* وسبعة أسماء على النحو الآتى :

* صفة مشبهة باسم الفاعل مجراة على الله سبحانه وتعالى :

﴿ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ ﴾ .

* واسما فاعل أحدهما مُجرى على الله سبحانه فى قوله تعالى لعيسى عليه

السلام : ﴿ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَى .. ﴾ .

والثانى جاء وصفاً ليوم القيامة : ﴿ خَافِضَةُ رَافِعَةٍ ﴾ .

* وأربعة أسماء مفعول :

- واحد وصف للسماء : ﴿ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ﴾ .

- وواحد وصف لنعيم الجنة : ﴿ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴾ (١) .
 - وواحد وصف للصحف فى ايدى الملائكة : ﴿ مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴾ .
 - وواحد وصف لسرر الجنة : ﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴾ (١) .
- * هذه الصيغ جميعاً وردت مثبتة ، إلا فعلاً مضارعاً واحداً جاء منها عنه وهو قوله تعالى :
- ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ﴾ .
- * وفعلاً ماضياً واحداً جاء مثبتاً لفظاً منقياً معنى ، وهو :
- ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا ﴾ ، فهو لفظاً مثبت ، وإثباته مؤكد باللام .
- وهو معنى منفى لعدم تعلق مشيئة الله الواقعة فعل الشرط بتحقيق هذا الرفع ؛ لأن جواب « لو » يمتنع لامتناع شرطها .
- * السبب فى خلو المادة - هنا - من فعل الأمر أنها وردت فى أساليب خبرية لا إنشائية ، ما عدا آية الحجرات التى كان الأسلوب الإنشائى فيها نهياً ، والنهى لا يتسلط على الفعل الأمر .
- هذا ، وقد وُظِّفَتْ صور المادة فى جميع مواضعها القرآنية للدلالة على المعانى الآتية :

- لفت الأنظار إلى بعض آيات الله الكونية ، مثل :
- ﴿ .. رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ .
- ﴿ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴾
- ﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴾
- ﴿ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ﴾ .

(١) المراد به « الفرش المرفوعة » الحور العين ، بدليل قوله تعالى عقب هذه الآية : ﴿ إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنِشَاءً ﴾ * فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا ﴾ ، والعرب كانت تكنى عن النساء بالفرش .

- الامتنان والتفضل ؛ مثل :

﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ - ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ - ﴿ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ﴾ - ﴿ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ﴾ .

- الإلماح إلى بعض الوقائع التاريخية ؛ مثل :

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ ﴾ - ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا ﴾ ، ﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِثْقَاهِمُ ﴾ ، ﴿ وَرَفَعَ أَبُوتَهُ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ ، أى رفع يوسف أبويه .

- الترغيب والعدة الحسنة ؛ مثل :

﴿ يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ ، ﴿ ... وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ ، ﴿ فِيهَا سُرُّ مَرْفُوعَةٌ ﴾ ، أى الجنة .
﴿ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ ﴾ * فى صُحُفٍ مُّكْرَمَةٍ * مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ،
﴿ فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تَرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ ... ﴾
﴿ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴾ يعنى الحور العين .

- التمدح بجلال الله وكمال سلطانه :

﴿ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ ... ﴾ ، ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَاءٍ ﴾ ،
﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ ، ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَاءٍ ؛ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾

- التخويف والإنذار :

﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ * لَيْسَ لِمُوقِعَتِهَا كَاذِبَةٌ * خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴾ .

- التوجيه والإرشاد :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ .

- تردد المادة بين الحقيقة والمجاز :

الأمثلة التي ذكرناها بالنسبة للحقيقة والمجاز جاءت على ثلاثة أقسام :

الأول : الحمل على الحقيقة يقيناً :

وضابطه أن يكون معمول الرفع جسمًا ماديًا ، مثل :

﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ .. ﴾

﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴾ .

الثاني : الحمل على المجاز يقيناً :

وضابطه أن يكون معمول الرفع أمرًا معنويًا ، مثل :

﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ .

﴿ .. وَرَفَعَ بَعْضُكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ﴾ .

الثالث : جواز الحمل على الحقيقة أو المجاز :

وذلك إذا أخبر عن جسم مادي أو وُصف بالرفع . ومن صورته قوله تعالى
في شأن إدريس - عليه السلام : ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ .

فعلى من ذهب إلى أن الرفع - هنا - هو شرف النبوة يكون الرفع مجازاً
استعارياً العلاقة فيه قوة الظهور .

وعلى من ذهب إلى أن الرفع كان بجسم إدريس إلى السماء الرابعة تكريماً
له لكثرة عبادته يكون الرفع حقيقياً (١) .

ومن صورته - كذلك - قوله تعالى في وصف الحور العين :
﴿ وَفُتُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴾ .

(١) انظر تفسير النسفي : (٣/٣٩) .

فإذا أريد بالرفع الصون والشرف كان الرفع مجازاً ، وإذا أريد به الارتفاع عن الأرض كان الرفع حقيقياً .

* استعملت المادة في القرآن في المعانى المحبوبة سواء كانت مثبتة أو منهيًا عنها أو مشوبة بشيء من النفي (١) .

وهذا على عكس « صعد » فإن استعمالها في المعانى غير المحبوبة كان بنسبة ٦ : ٣ .

والسبب أن مادة « رفع » لم تستعمل في اللغة إلا في معانى النبل والشرف كرفعة النسب والجاه ، فهي مثل مادة « ربط » في اختصاصها بالمعانى الحميدة ، والصفات الشريفة .

لهذا وصف الله نفسه باسم الفاعل منها « رافعك » ، والصفة المشبهة باسم الفاعل « رفيع الدرجات » كما أسند أفعالها ماضية ومضارعة إلى ذاته العلية مرات .

أما « صعد » فلم يأت منها فعل واحد مسنداً إلى الله ولا وصف بها نفسه قط .

هذا هو منهج القرآن في انتقاء الألفاظ ووضع كل لفظ موضعه من البلاغة المعجزة ، والإعجاز البليغ فسمما فوق كل نقد ، وعلا فوق كل بيان .

* *

● منهج القرآن في « رفع » ومشتقاتها :

أولاً : كثرة استعمالاتها وتعدد أبنيتها الصرفية .

(١) لأن النهى في قوله تعالى : ﴿ لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ .. ﴾ توجيه وإرشاد إلى حسن التأدب مع صاحب الرسالة ﷺ .

ثانيًا : انتظام ورودها في أساليب خبرية إيجابية ، إلا في موضع واحد مختص بالإرشاد والتشريع .

ثالثًا : إسنادها إلى « الله » ظاهراً ومضمراً إلا في ثلاثة مواضع من ثلاثين موضعاً . وغلبة إسنادها إلى الضمائر الإلهية .

رابعاً : إطراد استعمالها في المعاني المحبوبة ، ولفت الأنظار إلى بعض آيات الله الكونية .

خامساً : تعدد الأغراض البيانية التي استعملت في تأديتها كالتشريع والإلماح التاريخي ، والترغيب والتمدح بجلال الله .

سادساً : تردد دلالاتها بين الحقيقة والمجاز ، أو احتمال الأمرين في بعض المواضع .

سابعاً : المعنى العام للمادة في القرآن الكريم هو : السمو واكتساب المحامد .



الدُّعاء - النِّداء

الدعاء والنداء من الكلمات القرآنية ، وهما تشتركان في طلب الإقبال من المدعو والمنادى ، وكان هذا الاشتراك حريا بأن يكونا في لغة القرآن متساويين لا تفرقة بينهما ، لكن استقراء مواضع ورودهما في القرآن الحكيم يكشف عن فروق دقيقة بينهما ، فهذه فيه غير تلك ، وتلك غير هذه ، وأن لكل منهما مقامًا خاصًا بها ، هذا ما ستكشف عنه الآيات الآتية ، مع البدء بالدعاء ثم تتبعه النداء تيسيرًا للبحث (١) .

● التمثيل : (م أ) :

﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ، قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ (٢) .

﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ .. ﴾ (٣) .

﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ﴾ (٤) .

﴿ وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوَّجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ .. ﴾ (٥) .

﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ ﴾ (٦) .

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا .. ﴾ (٧) .

﴿ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي .. ﴾ (٨) .

(١) في التمثيل للدعاء نقسم الآيات مجموعين : أ ، ب لهدف سنعرفه فيما بعد .

(٢) آل عمران : ٣٨ (٣) الزمر : ٨ (٤) القمر : ١٠

(٥) لقمان : ٣٢ (٦) الدخان : ٢٢ (٧) فصلت : ٣٣

(٨) إبراهيم : ٢٢

- ﴿ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ .. ﴾ (١) .
 ﴿ وَأَعْتَزِلْكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ .. ﴾ (٢) .
 ﴿ يَا قَوْمِ مَالِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ .. ﴾ (٣) .



● التمثيل ، (م ب) :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ .. ﴾ (٤) .

﴿ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾ (٥) .
 ﴿ وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (٦) .

﴿ .. أَفَى اللَّهِ شَكَ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ ، وَيُخَرِّكُم إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى .. ﴾ (٧) .
 ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (٨) .
 ﴿ .. وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ .. ﴾ (٩) .

في المجموعة (أ) ، كان طرفاً الدعاء : المدعو والداعي مختلفين ، فحينما
 الداعي هم الناس والمدعو هو الله ، وهذا هو الأصل في الدعاء .

وحيثما كان الداعي والمدعو هم الناس بعضهم بعضاً .

وحيثما كان الداعي هم الناس والمدعو هم الأصنام .

(١) القصص : ٦٤	(٢) مريم : ٤٨	(٣) غافر : ٤١
(٤) الأنفال : ٢٤	(٥) الروم : ٢٥	(٦) يونس : ٢٥
(٧) إبراهيم : ١٠	(٨) الإسراء : ٥٢	(٩) البقرة : ٢٢١

وحيثما كان الدّاعى هو الشيطان والمدعو هم الناس .

ومن ينظر فى الآيات نظرة فاحصة يتبين له صدق ما ذكرناه .

والدعاء لا بد فيه من افتقار الداعى إلى المدعو . وهذا فى القسم الأول - دعاء الناس الله - ظاهر لا يحتاج إلى بيان وإذا دعا الشيطان الناس فلأنه مفتقر إلى تضليلهم وتزيين الباطل لهم وإغوائهم ليكونوا رفقاءه فى النار ، كما قال عز وجل :

﴿ إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ (١) .

وإذا دعا الناس الأصنام فلاعتقادهم الباطل أنها تنفع وتضر كما قال سبحانه :
﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ * لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحَضَّرُونَ ﴾ (٢) .

وإذا دعا الناس بعضهم بعضاً فلحاجة فى نفس الداعى إلى المدعو ، فدعاء آل فرعون لمؤمنهم الذى سجله القرآن الأمين فى قوله تعالى :

﴿ وَيَا قَوْمِ ادْعُوا مَالِي ادْعُواكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونِنِي إِلَى النَّارِ ﴾ (٣) .

فلحاجة فى أنفسهم ، هى صد الرجل المؤمن عن إيمانه واتباعه ملتهم الفاسدة .

وهكذا فإن الدعاء لا ينفك عن افتقار الداعى إلى المدعو ، فى أى صورة كان ذلك الافتقار .

وقد يُتَحَرَفُ بالدعاء حين يكون معناه عبادة المدعو غير الله ، أو يكون معناه زعم وجود آلهة غيره - عز وجل . وهذان المعنيان واردان على جهة الإبطال فى القرآن الحكيم ، ومن شواهد قول أصحاب الكهف يشنعون على قومهم :

(٣) غافر : ٤١

(٢) يس : ٧٤ ، ٧٥

(١) فاطر : ٦

﴿ هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ ، فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ (١) .

وقبل هذه الآية قالوا نافرين عن أنفسهم ضلال قومهم :

﴿ .. لَنْ نَدْعُوا مِنْ دُونِهِ إِلَهًا ، لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا ﴾ (٢) .

وقال الحق لرسوله ﷺ ولكل عاقل يحترم عقله : ﴿ وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ، فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنْ الظَّالِمِينَ ﴾ (٣) .

هذا هو شأن الدعاء :

* منه ما هو حق كدعاء المؤمن ربه أن يجلب له خيراً ، أو يدفع عنه شراً .
وأن الداعي هو المستفيد من الدعاء لا المدعو .

* ومنه ما هو شرك وضلال ، كدعاء غير الله لجلب النفع ودفع الضرر .

* والأصل في الدعاء أن يكون من الأدنى إلى الأعلى ، ولهذا كان لا ينبغي أن يكون الدعاء فعلاً لله هو فاعله ، لأن الله غنى عن العالمين ، وهو رب السموات والأرض رب العالمين ، لا يعلو على شأنه شأن . فالدعاء ينبغي أن يكون فعلاً لغير الله ، وأن يكون هو المدعو والطرف الأعلى فيه .
فكيف ساغ في المجموعة (ب) من الآيات أن يصدر الدعاء من الله ؟ وأن يكون هو فاعل الدعاء .

تعال معي ننظر في مجموعة (ب) من الآيات :

* في الآية الأولى (الأنفال : ٢٤) كان المترتب على استجابة الدعاء من الله ورسوله هو إحياء المدعوين بطاعة الله ورسوله .

* وفي الآية الثانية (الروم : ٢٥) كان المترتب على دعوة الله هو خروج الناس من القبور .

(١) الكهف : ١٥

(٢) الكهف : ١٤

(٣) يونس : ١٠٦

وفى الآية الثالثة (يونس : ٢٥) كان متعلق الدعاء هو العمل لدخول الجنة (دار السلام) .

* وفى الآية الرابعة (إبراهيم : ١٠) كان متعلق الدعاء هو غفران ذنوب المدعوين وإطالة حياتهم .

* وفى الآية الخامسة (الإسراء : ٥٢) كان المترتب على الدعاء هو البعث من القبور وإحياء الموتى للحساب .

* وفى الآية السادسة : (البقرة : ٢٢١) كان متعلق الدعاء هو التمتع بنعيم الجنة ومغفرة الذنوب .

فالدعاء فى هذه الآيات صادر من الله العلى العظيم والله هو فاعله .

وليس فى هذا ما يمس قدسية الله ، أو ينافى الكمال الإلهى المطلق . كيف ؟

أولاً : لأن الدعاء المسند إلى الله فى هذه الآيات إنما هو « دعوة » غنى قدير . وقد صرح بذلك القرآن نفسه فى آية الروم .

﴿ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾ ، والفرق بين الدعوة والدعاء . أن الدعاء ملازم للافتقار ، أما الدعوة فقد - وقد للتكثير - تكون من غنى .

ثانياً : الدعاء المسند إلى « الله » النفع فيه عائد على المدعو وليس على الداعى ؛ لأنه غنى عن كل شىء .

فالله هو رب الجنة ورب المغفرة ، ورب الفضل كله ، يدعو الناس ليتفضل عليهم من فضله الواسع ، ويغفر لهم ويرحمهم .

ثالثاً : أن الدعاء فى آتى الإسراء والروم دعاء هيمنة وقدرة وسعة سلطان ، يدعو الناس ليعودوا كما خلقهم أول مرة ، فيثيب المحسن ، ويجازى المسئء يوم يقوم الحساب ، فانظر إلى هذا « الاحتراس » البليغ فى كل المواضع التى

أسند فيها الدعاء إلى الله . ليتضح الفرق جلياً بين دعاء المفتقر الضعيف ،
ودعاء الغنى القوى .

ثم تأمل الأحكام فى لغة القرآن كيف كان ؟

إن القرآن - كله - ناهج منهج السلامة فى ألفاظه وتراكيبه ومعانيه . وهذا
هو الإعجاز بمعناه العام ، والذي نحاول - نحن - تجليته هنا لبنات فى
صرحه الشامخ ، وقطرات من فيضه العميم .

إن الاحتراس الذى لفتنا الأنظار إليه فى الآيات الست أحد طريقين للقرآن
فى تنزيه الله عما لا يليق بجلاله من إسناد الدعاء إليه .

ولدينا طريق ثان سنعرض له فى مبحث النداء والدعاء بعد قليل .



● منهج القرآن فى الدعاء :

أولاً : الأصل فيه أن يكون فعلاً لغير الله لما يدل عليه الدعاء من افتقار
الداعى إلى المدعو ، وكونه من أدنى إلى أعلى .

ثانياً : ما أسند فى القرآن من الدعاء إلى الله إنما هو دعوة لا دعاء ويدل
على أمرين :

(أ) أن المستفيد هو المدعو لا الداعى .

(ب) أن يكون من سمات الهيمنة ومقدورات الألوهية كدعوة الموتى للبعث
والحساب .

ثالثاً : جاء استعمال القرآن للدعاء كثيراً ، والدعاء المشروع فيه هو دعاء
الناس ربهم الذى بيده ملكوت كل شىء .

رابعاً : يأتى الدعاء - أحياناً - فى القرآن مراداً به الاستعانة بغير الله
أو عبادته ، ومنهج القرآن فيه إما الحكاية عن بعض المشركين ، أو النهى عنه -
ابتداءً - من غير حكاية .

- خامسًا : اشتمل الدعاء الوارد فى القرآن على الأقسام الأربعة الآتية :
- (أ) دعاء المؤمن ربه ، وهذا الدعاء عبادة حقة يثاب عليها فاعلها .
- (ب) دعاء المشركين أصنامهم ومعبوديهم ، وهذا كفر وإلحاد .
- (جـ) دعاء الناس بعضهم بعضًا وهو مذموم ، فإذا صاحبه اعتقاد أن المدعو يملك النفع والضرر فهو شرك .
- (د) دعاء الشيطان الناس ليكونوا من أصحاب السعير .
- سادسًا : ثم الدعاء بمعنى الدعوة إلى الله . وهذا عمل قامت به الرسل ، ويقوم به الدعاة فى كل عصر ، وهو عمل طيب يثاب عليه فاعله .
- ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (١) .

* * *

النِّدَاءُ - الدُّعَاءُ

الأصل فى النداء أن يكون برفع الصوت ، فهو أخص من الدعاء ، والنداء فى المعاجم هو الدعاء ؛ لأن المطلوب بكل منهما الإقبال نحو المنادى ، أو الداعى سواء كان الإقبال بالانتقال الجسدى أو بالانتباه ذهنى .

وقد مرّ بنا منهج القرآن فى الدعاء ، ونريد - الآن - أن نعرف منهج القرآن فى النداء ، والفرقة القرآنية بينهما كيف تكون .

وكما قسمنا آيات التمثيل فى الدعاء إلى مجموعتين نسلك المسلك نفسه فى آيات النداء تيسيراً للدراسة .

● التمثيل : (م أ) :

- ﴿ وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ اتَّبِعْ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (١) .
- ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ * إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ (٢) .
- ﴿ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنهَكُمَا عَنْ تِلْكَمَا الشَّجَرَةِ . . ﴾ (٣) .
- ﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا ، وَلَكِنْ رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ . . ﴾ (٤) .
- ﴿ وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ ، وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴾ (٥) .
- ﴿ وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا . . ﴾ (٦) .
- ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ (٧)

(١) الشعراء : ١٠ (٢) النازعات : ١٥ ، ١٦ (٣) الأعراف : ٢٢

(٤) القصص : ٤٦ (٥) مريم : ٥٢

(٦) الصافات : ١٠٤ ، ١٠٥ (٧) القصص : ٦٢

- ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (١) .
- ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ (٢) .
- ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِيَ قَالُوا آذْنَاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ ﴾ (٣) .
- ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى * إِنِّي أَنَا رَبُّكَ ... ﴾ (٤) .
- ﴿ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ (٥) .
- ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ ... ﴾ (٦) .

* *

● التمثيل : (م ب) :

- ﴿ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَعَنَا ... ﴾ (٧) .
- ﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبُّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي ... ﴾ (٨) .
- ﴿ ذَكَرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا * إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴾ (٩) .
- ﴿ وَيَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ (١٠) .
- ﴿ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبُّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴾ (١١) .
- ﴿ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ ... ﴾ (١٢) .
- ﴿ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوءًا وَلَعِبًا ... ﴾ (١٣) .

(١) القصص : ٦٥	(٢) القصص : ٧٤	(٣) فصلت : ٤٧
(٤) طه : ١١ ، ١٢	(٥) النمل : ٨	(٦) القصص : ٣٠
(٧) هود : ٤٢	(٨) هود : ٤٥	(٩) مريم : ٢ ، ٣
(١٠) الأنبياء : ٨٣	(١١) الأنبياء : ٨٩	(١٢) آل عمران : ٣٩
(١٣) المائدة : ٥٨		

﴿ رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا .. ﴾ (١) .

﴿ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ .. ﴾ (٢) .

فى المجموعة الأولى (أ) كان النداء الذى ذكر فيها كله مسنداً إلى الله عز وجل . وجاء الإسناد وفق النظام الآتى :

* عشرة أفعال مبنية للفاعل ، وثلاثة أفعال مبنية للمفعول ، والفاعل فى الجميع هو « الله » لأن الأفعال الثلاثة التى بُنِيَتْ لما لم يسم فاعله ، كانت تكراراً لما أُسْنِدَ لله من ندائه موسى - عليه السلام .

* ثلاثة أفعال من العشرة المسندة إلى الله أُسْنِدَتْ إلى اسمه الكريم « رب » مرة مضافاً إلى ضمير الخطاب « ربك » ومرة مضافاً إلى ضمير الغائب المفرد المذكر « ربه » وثالثة إلى ضمير الغائب المثنى « ربهما » .

* وسبعة أفعال أُسْنِدَتْ إلى الضمائر المكنى بها عن « الله » تعالى : ثلاثة منها أُسْنِدَتْ إلى المتكلم المعظم نفسه « نادينا » .

* وأربعة أفعال أُسْنِدَتْ إلى ضمير الغيبة « يناديه » .

* لم يُسْنَدْ أى فعل منها إلى اسم الجلالة « الله » بل أوثر الإسناد إلى « رب » كما تقدم .

وقد يكون الداعى فى هذا الإسناد أن النداء منه - سبحانه - فيه إنعام على المنادى وعلى من وُجِّهَ إليه الخطاب ، وهو نبينا محمد ﷺ فى ﴿ وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى ﴾ ، و﴿ رَب ﴾ هو عنوان الإنعام والتكريم فأوثر الإسناد إليه فى المواضع الثلاثة :

« ربك - ربُّه - ربُّهما » على الإسناد إلى اسم الجلالة « الله » لهذا الاعتبار اللطيف . هذه واحدة .

والثانية أن « رب » تجوز إضافته إلى « الغير » أما اسم الجلالة « الله » فلا تجوز إضافته إلى شيء . ولذلك - والله أعلم ، جاء الإسناد في الأفعال الثلاثة ما دامت الإضافة مرادة تحقيقاً للمعنى الذى أشرنا إليه .

أما الأفعال الأخرى ، سواء منها ما أُسْنِدَ إلى ضمير التكلم « نادينا » أو إلى ما لم يُسَم فاعله ، فإن مجيئها على ما هى عليه دليل على أن الإضافة والإظهار غير مرادين .

* ومن الملاحظ خلو هذه المواضع من الاحتراس الذى تقدم ذكره فى « الدعاء » مُسْنَدًا إلى « الله » ؛ لأن « النداء » ليس فيه ما فى الدعاء من الافتقار وكون « الداعى » أدنى منزلة من المدعو ، فلم يكن فى إسناد النداء إلى « الله » ما يقتضى نفى « الشوائب » التى تُلحظ فى الدعاء ، ويخلو منها النداء .

وإذا كان « الاحتراس » المتقدم شرطاً فى إسناد الدعاء إلى الله ، فإن النداء - هنا - بديل من الدعاء هناك . فالله ينادى ولا يدعو ، فإذا دعا كان دعاؤه نداء فى كونه صادراً من غنى لنفع المدعو ، لا لنفع يعود على الداعى ، والله هو الغنى الحميد .

والأصل فى الخلق أن يدعوا دعاء افتقار إلى المدعو ، لا أن ينادوا . فإن نادوا كان نداؤهم دعاءً ، ويكون للنداء المسند فى القرآن إلى غير الله دواع بلاغية تنبيهها من مجموعة الآيات الثانية (ب) .

ولكن كيف كان الأصل فى جانب الله النداء دون الدعاء ، والنداء يكون بين المتباعدين لا المتقاربين ، والله لا يبعد عنه شيء ، وإزالة هذه الشبهة يسيرة:

فصحيح أن الله لا يبعد عنه شيء ، والتباعد الملحوظ فى النداء تباعد رتبة لا تباعد مكان ، فالله هو العلى العظيم يعلو بسلطانه فوق مخلوقاته علواً كبيراً .

فإذا نادى ، فليس لأن المنادى بعيد عنه فى المكان ، بل بُعده هو انحطاط رتبته أمام قيوم السموات والأرض .

* *

● آيات المجموعة الثانية :

لم نذكر كل الآيات التى أُسند فيها النداء لغير الله - لكثرتها - ، وإنما ذكرنا ما يعيننا على تصور منهج القرآن فيها . والنظر فى تلك الآيات ينبى عن الآتى :

* نداء بين العباد بعضهم بعضاً ، مثل نداء نوح ابنه ، ومثل النداء للصلاة فإن المنادى والمنادى فيه هم الناس .

* نداء من الملائكة لبعض الرسل ، كندائهم لذكريا ﴿ فَادَّعَاهُ الْمَلَائِكَةُ وهُوَ قَائِمٌ يُصَلَّى فِي الْمِحْرَابِ ﴾ .

* نداء من الناس لله ، وهو كثير فى نداء الرسل ربهم ، كنداء نوح وذكريا وأيوب .

والقسمان الأولان جاريان على الأصل وهما نداء الناس الناس ، ونداء الملائكة الناس .

القسم الثالث ، وهو نداء الناس ربهم ، فهو غير جارٍ على الأصل ، بل كان ينبغى أن يكون دعاء لا نداء ؛ لأن النداء يكون للبعيد والله أقرب إلى المرء من حبل الوريد ، وهو القائل :

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ، أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ (١)

ولأن الله أمر عباده أن يدعوه لا أن ينادوه . أليس هو القائل :

﴿ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ (٢)

(١) البقرة : ١٨٦

(٢) غافر : ٦٠

وإذا رجعنا إلى آيات المجموعة الثانية (م ب) نجد نداء الله صادراً من الرسل ، لا من عوام الناس :

﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ ﴾ .

﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ ﴾

﴿ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ ﴾ .

﴿ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ .. ﴾ (١)

فكيف نادى هؤلاء الرسل ربهم ولم يدعوه وهم أعرف الناس بربهم ؟

لقد تتبعنا هذه المواضع فوجدناها تخضع لظرف واحد ، كان هو السبب في أن يلجأ هؤلاء الرسل الكرام إلى النداء بدلاً من الدعاء الذي هو الأصل :

ذلك الظرف هو الشدة البالغة ، والكرب العظيم الذي كان يعترى كلا منهم ، فنداء نوح ربه كان سببه تعرض ابنه - وهو أقرب الناس إليه - إلى الهلاك ، فنادى رافعاً صوته رغبة في إنقاذ ابنه . فحالته « الشعورية » القلقة هي السبب في النداء لا بُعدُ المنادي ، وهو الله تعالى .

ونوح هذا الذي نادى هنا ولم يدعُ هو الذي حكى عنه القرآن في موضع آخر أنه دعا ولم يناد . ﴿ قَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرُ ﴾ (٢) .

وهذا ينبي عن جزعه على غرق ابنه أكثر من شكواه من تكذيب قومه له .

لما أودع الله في قلوب الآباء من شفقة على الأبناء .

وهذا ينطبق على أيوب ويونس - ذى النون - وزكريا ، كلهم كانوا حين نادوا ربهم تحت ضغط شديد من جراء ما حل بهم من ابتلاء من الله .

(٢) القمر : ١٠

(١) الأنبياء : ٨٧

فالنداء المحكى عن هؤلاء الرسل كان الباعث عليه حال المنادى لا بُعد المنادى .

ومن الملاحظات البيانية اللطيفة أننا نلاحظ - هنا - ما لاحظناه من قبل فى إيقاع النداء على « رب » دون اسم الجلالة « الله » .
﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ ﴾ ، ﴿ وَيُوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ ﴾ ، ﴿ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ ﴾ .

فالنداء - فى القرآن - فاعله هو « رب » مضافاً إلى ضمير ذى المقام .
ومعموله هو « رب » مضافاً إلى ضمير المنادى . ولم يأت « الله » . فاعلاً له ولا معمولاً .

إنَّه نَسَقٌ عجيب حكيم ، جارٍ على اعتبارات « إعجازية » لطيفة وليس كلاماً يُرَصَّفُ كيفما اتفق .

فالمنادى راجع . و« رب » هو عنوان الإنعام والتفضل . ولذلك تعلق به الدعاء - كما سيأتى - كما تعلق به النداء هنا . إنَّه الإعجاز اللغوى البيانى القائم على وضع كل لفظ موضعه فى الكتاب العزيز ، كما قال العلامة ابن عطية - رحمه الله .

* *

● خاصية النداء :

للنداء خاصية فى لغة القرآن مستمدة من وَضْع النداء فى اللغة العربية التى نزل بها القرآن ، فشرُفت وخلدت بذلك النزول .

* خاصية النداء فى اللغة :

يقول الراغب : « وأصل النداء من الندى ، أى الرطوبة ، يقال : صوت ندى رفيع ، واستعارة النداء للصوت من حيث أن من تكثر رطوبة فمه حسنٌ

كلامه ، ولهذا يوصف الفصيح بكثرة الريق . . ويعبر عن السخاء بالندى ، يقال : فلان أندى كفا من فلان . . « (١) .

هذا هو أصل اشتقاق النداء فى اللغة . وهو يدل على خيرية النداء مثل خيرية ما اشتق منه ، فالندى ماء ، والماء أصل الحياة ، وهذا يبعث على التفاؤل الحسن فى النداء ، وينفى عنه كل شائبة .

* خاصية النداء فى القرآن :

ويكسو النداء بهجة وسروراً استعمال القرآن له فى الدلالة على طلب الإقبال من الله - أصالة - بلا احتباس لدفع ما يتوهم تصوره منه ، مثلما حدث فى الدعاء مُسْتَدًا إلى الله ، هذه واحدة .

والثانية : أن القرآن الحكيم سَمى طلب الإقبال للصلاة نداءً مرتين :

إحداهما فى سورة المائدة فى قوله تعالى - وقد تقدم - ﴿ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوءًا وَلَعِبًا ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ .

ومرة فى سورة الجمعة :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ، ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ .

والثالثة : أن القرآن الحكيم سَمى طلب الإقبال للإيمان نداءً ، وسمى الداعى إليه منادياً ، وذلك فى قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا ، رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴾ .

والرابعة : أنه جعل هذا النداء المستجاب وسيلة للدعاء بغفران الذنوب ، وتكفير السيئات ، والتوفية مع الأبرار .

(١) المفردات : (٤٨٧) .

والخامسة : الإعلان باستجابة هذا الدعاء الموطأ له بذلك النداء :

﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنشَى
بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ ... ﴾ (١) .

هذه هي التفرقة القرآنية الدقيقة بين الدعاء والنداء ، وفي كل خير ، بيد أن
الخير في النداء أخلص وأصفى منه في الدعاء (٢) .

* *

● منهج القرآن في « النداء » ومشتقاته :

أولاً : إسناده إلى الله مطلقاً وبلا احتباس لخلوصه من الشوائب ، ولياقته
بمقام الألوهية .

ثانياً : إسناده إلى « رب » مضافاً إلى ضمير مناسب إذا كان الله هو
فاعله . وإيقاعه على « رب » مضافاً إلى ضمير مناسب إذا كان النداء موجهاً
إلى الله .

ثالثاً : أن في طلب الإقبال من الله هو النداء ، فإذا دعا قرن الدعاء
باحتراس لنفي ما قد يتوهم ثبوته ، والأصل في الطلب من الله هو الدعاء ،
فإذا نُودِيَ فلداخ عند المنادى ، وليس لبُعْدِ المنادى .

رابعاً : النداء من الله ليس سببه بُعْدُ المنادى مكاناً عنه ، وإنما بُعْدُ رتبة
المنادى (الله) واتضاع رتبة المنادى .

(١) آل عمران : ١٩٥

(٢) لا يقدح في هذا نداء فرعون لقومه بالكفر في سورة الزخرف . ولا نداء أهل
النار لأهل الجنة في سورة الأعراف ، وأمثالهما ؛ لأن حديثنا مقصور على النداء المأذون
فيه شرعاً . أما دعاء ونداء الأشرار فلم يرد في القرآن إلا على سبيل الحكاية .

خامساً : للنداء فى لغة القرآن خاصية رشحته لأن يكون الله فاعلاً له - بلا حرج - كما رشحته ليكون « عنواناً » على طلب الإقبال إلى الصلاة (الأذان) ، وأن يكون « عنواناً » على طلب الإقبال على الإيمان .

سادساً : نداء الأشرار بعضهم بعضاً الوارد فى القرآن لا يحظى بخاصية النداء المأذون فيه شرعاً ، بل وروده فى القرآن كان على سبيل الحكاية والذم والتشنيع .

سابعاً : فى كل من الدعاء والنداء خير ، بيد أن الخير فى النداء أخلص وأصفى ، وأظهر تفاؤلاً ، وأنقى معنى .

* * *

رَبّ - ربُّ كل شيء

لكلمة « رب » فى القرآن واحة وارفة الظلال ، عبقة الشذا ، طيبة الشمار ، ونقصد « رب » التى جاءت حديثاً عن « الله » أما ما كانت عن غيره ، فلا علاقة لنا بها فى هذه الدراسة ، والتى جاءت مقصوداً بها « الله » كثيرة كثرة هائلة ، حيث لم تخلُ من ذكرها مرات كل السور غير قصار المفضل ، ولن نستطيع - هنا - استقصاءها ، ولذلك فإننا سنلتقط منها ومضات تنير لنا الطريق ، وترسم قسّمات المنهج القرآنى فى استعمال هذه الكلمة المنتشرة فى آى القرآن انتشار النجوم الزهر فى سماء صافية غاب قمرها ، فتلاّات فى أرجائها تهدى السارين ، وتبهج الناظرين .

وتيسيراً للدراسة نقسم ما سنذكره من آياتها مجموعات ، ثم ننظر فى كل مجموعة قبل السير مع مجموعة أخرى ، وبالله ومنه التوفيق .

● الإضافة إلى الظاهر :

● التمثيل : (م أ) :

- ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (١) .
- ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ ، قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٢) .
- ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ .. ﴾ (٣) .
- ﴿ رَبُّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴾ (٤) .
- ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ، وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ (٥) .

(٣) الأنعام : ١٦٤

(٢) البقرة : ١٣١

(١) أم الكتاب : ١

(٥) التوبة : ١٢٩

(٤) الأعراف : ١٢٢

- ﴿ ... مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَائِرَ ... ﴾ (١)
- ﴿ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ، إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴾ (٢)
- ﴿ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ (٣)
- ﴿ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا ، إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (٤)
- ﴿ إِنَّمَا أَمِرتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا ﴾ (٥)
- ﴿ ... وَرَبُّ الْمَشَارِقِ ﴾ (٦)
- ﴿ فَوَرَبُّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ ﴾ (٧)
- ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ ﴾ (٨)
- ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴾ (٩)
- ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ (١٠)
- ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ (١١)
- ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴾ (١٢)
- ﴿ ... وَاشْكُرُوا لَهُ ، بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبُّ غَفُورٌ ﴾ (١٣)
- ﴿ سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ ﴾ (١٤)

هذه تسع عشرة آية وردت فيها كلمة « رب » عشرين مرة ، حيث وردت في آية (الأنعام : ١٦٤) مرتين ، وإذا نظرت في الآيات نظرة فاحصة وجدت

(١) الإسراء : ١٠٢	(٢) الشعراء : ٢٤	(٣) الشعراء : ٢٦
(٤) الشعراء : ٢٨	(٥) النمل : ٩١	(٦) الصافات : ٥
(٧) الذاريات : ٢٣	(٨) المعارج : ٤٠	(٩) قريش : ٣
(١٠) الفلق : ١	(١١) الناس : ١	(١٢) المزمل : ٩
(١٣) سبأ : ١٥	(١٤) يس : ٥٨	

كلمة « رب » جاءت سبع عشرة مرة ملازمة للإضافة إلى الأسماء الظاهرة ،
وهذه الإضافة جاءت على نوعين :

الأول : وهو ست عشرة مرة ، كانت الإضافة إلى قطاعات خاصة من
قطاعات الكون :

السموات والأرض وما بينهما - السموات والأرض - السماء والأرض -
المشرق - المشرق والمغرب - المشارق - العرش العظيم - الآباء الأولين (١) -
البيت - البلدة - الفلق - الناس - موسى وهارون .

الثاني : وهو موضع واحد جاءت الإضافة فيه عامة شاملة ﴿ وَهُوَ رَبُّ
كُلِّ شَيْءٍ ﴾ .

هذه الإضافة العامة أجملت كل ما سبق تفصيله في الآيات الست عشرة .
وبهذا الإجمال ، وذلك التفصيل صار الملك كله لله لا شريك له .

ومما نلاحظه من هذه المجموعة حرص البيان القرآني على إضافة كلمة « رب »
مقصوداً بها الله ، إلى بعض مخلوقاته أو كلها في كل موضع وردت .
فإذا لم تكن إضافة ، فإن القرآن يصف كلمة « رب » بوصف يقوم مقام
الإضافة .

وقد جاء هذا - في القرآن كله - في آيتين لا ثلاثة لهما ، وهما :

﴿ .. وَرَبِّ غَفُورٌ ﴾ (٢) : أي رب المغفرة .

﴿ مِنْ رَبِّ رَحِيمٌ ﴾ (٣) : أي رب الرحمة .

أما « ربا » في آية (الأنعام : ١٦٤) ، وهي نكرة غير مضافة ولا موصوفة

(١) في آية الأنعام (١٦٤) أضيفت كلمة « رب » إلى ضمير المخاطبين ، ولم تعددها
هنا ؛ لأن الإضافة إلى الضمائر سنذكرها في المجموعات الآتية بإذن الله .

(٣) يس : ٥٨

(٢) سبأ : ١٥

بوصف يقوم مقام الإضافة ، فلا تقدح فى الملاحظة التى أبديناها من لزوم « رب » للإضافة أو وصف يقوم مقامها . نقول : إنها لا تقدح ؛ لأن المراد بها « غير الله » أى ربا مغايراً لله ، وهى واقعة فى سياق الاستفهام الإنكارى ، فلا وجود لها فى الواقع .

* *

● الإضافة إلى المتكلم المفرد :

● التمثيل : (م ب) :

- ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا .. ﴾ (١) .
- ﴿ إِذْ قَالَتْ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّى ، إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (٢) .
- ﴿ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ، إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ (٣) .
- ﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ .. ﴾ (٤) .
- ﴿ رَبِّ اجْعَلْنِى مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِى .. ﴾ (٥) .
- ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِى مِنَ الْمُلْكِ ، وَعَلَّمْتَنِى مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ، فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِىُّ فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَالْحَقِّقْنِى بِالصَّالِحِينَ ﴾ (٦) .
- ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا .. ﴾ (٧) .
- ﴿ قَالَ رَبِّ انصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴾ (٨) .
- ﴿ قَالَ رَبِّ هُمْ أَوْلَاءِ عَلَى أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ﴾ (٩) .

(٣) آل عمران : ٣٨

(٢) آل عمران : ٣٥

(١) البقرة : ١٢٦

(٦) يوسف : ١٠١

(٥) إبراهيم : ٤٠

(٤) الاعراف : ١٥١

(٩) طه : ٨٤

(٨) المؤمنون : ٣٩

(٧) الانبياء : ٨٩

- ﴿ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ ۖ ۞ ﴾ (١) .
- ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ ۖ ۞ ﴾ (٢) .
- ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ ۖ ۞ ﴾ (٣) .
- ﴿ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ۖ ۞ ﴾ (٤) .
- ﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ۖ ۞ ﴾ (٥) .
- ﴿ وَقِيلَ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ ۖ ۞ ﴾ (٦) .

هذه المجموعة من الآيات ، تخطو بنا خطوات أخرى فى الكشف عن منهج القرآن فى استعمال كلمة « رب » بعد الذى كشفت عنه المجموعة الأولى .

والناظر فى هذه المجموعة بعناية يرى أن كلمة « رب » فيها :

- * جاءت منادى .
- * مضافة إلى ياء المتكلم المفرد ذكراً أو أنثى . والذكورة هى الغالبة .
- * محذوف منها حرف النداء « يا » .
- * محذوف منها « المضاف إليه » ياء المتكلم ، مدلولاً عليه بالكسرة .
- * وأن موضعين من الآيات الخمس عشرة جاءا مصاحبين لحرف النداء « الياء » .
- * وأن المعنى الذى استعملت فيه يغلب عليه « الدعاء » ويقل فيه غير الدعاء .

وبعض هذه السمات الأسلوبية فى حاجة إلى أن نفهم دواعيها البيانية :

- * فحذف ياء النداء والمضاف إليه « ياء المتكلم » نرجح أنه للتيسير فى

(٣) الحجر : ٣٩

(٢) آل عمران : ٤

(١) آل عمران : ٣٦

(٦) الزخرف : ٨٨

(٥) الفرقان : ٣٠

(٤) النمل : ٤٤

الآداء . لأن توجيه الدعاء إلى « رب » كثير على السنة العباد ، فناسب ذلك التيسير عليهم وهم يتضرعون إلى ربهم القريب منهم ، والياء لمناداة البعيد .
والذى سَوَّغَ هذا الحذف - فوق ما تقدم - أن المقام يدل على المحذوف بكل وضوح ويسر .

وعلى هذا نقول - ونحن مطمئنون - إن من سمات منهج القرآن فى كلمة « رب » إذا وقعت منادى مضافاً إلى ضمير المتكلم المفرد - مذكراً أو مؤنثاً - أن يحذف منها حرف النداء ، والمضاف إليه مع الاجتزاء عنه بالكسرة .
● ولماذا « يا رب » ؟ :

ولكن هذه السمة الأسلوبية خولفت فى الآيتين الأخيرتين فى المجموعة :
﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴾ .
﴿ وَقِيلَ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ .
وكما كان حذف حرف النداء فى غيرهما بلاغة . فإن ذكره فيهما بلاغة كذلك .

فهاتان الآيتان حكايتان عن نبينا محمد ﷺ ، فإنه هو القائل ، ومحمد ﷺ معروف من بين جميع الرسل بحرصه الشديد على إيمان قومه . والله تعالى عاتبه على هذا الحرص مرات فى القرآن الكريم (١) .

وضيقه من قومه لهجرهم القرآن ، وهو لهم نور ، وإعراضهم عن الإيمان ، وهو لهم نجاة ، هذا الضيق البالغ المدى جعل الرسول الكريم الرؤوف الرحيم بقومه يجأ بالشكوى ، ويطيل الصوت ولا يحذف منه شيئاً تنفيساً لما فى صدره ، وطمعاً فى استجابة ربه . فالذكر هنا ، كالحذف هناك ، كلاهما واقع موقعه من البلاغة وحسن البيان . هذا ، وقد لاحظت لنا خاطرة حول ذكر أداة النداء فى هذين الموضعين ، خلاصتها :

(١) كما فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ (القصص : ٥٦) .

أن الداعى إلى ذكر الأداة مع « رب » المنادى هنا - وليس لها ورود فى القرآن كله غير هاتين الآيتين - هاجس نفسى كان يحس به صاحب الدعوة ﷺ بأن هجر قومه للقرآن ، وإعراضهم عن الإيمان ، كان لقصور منه فى مجال التبليغ ، فرأى نفسه بعيداً عن الله لهذا القصور ، فلما دعاه ، دعاه دعاء الداعى البعيد عن مدعوّه ، لا دعاء المدعوّ البعيد عن داعيه .

وليس هذا الشعور ببعيد عن الذين يخشون ربهم ، ورسولنا إمامهم فى مقام الخشية ورهافة الوجدان .

وقد امتدح القرآن هذا الفريق الممتاز من العباد ، فقال : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴾ (١) .

وبعض العلماء قال ما يشبه هذا المعنى فى شأن زكريا - عليه السلام - ولنا فيما قالوه قدوة (٢) .



● المعانى المستعملة فيها :

المعانى التى استعملت فيها كلمة « رب » حتى الآن فى المجموعتين معاً ، يمكن تلخيصها فى الآتى :

- * التمدح بآلاء الله وعظمة قدرته وبيدائع خلقه ، وسعة سلطانه .
- * استدرار فضله ، واستمطار سحاب كرمه ، وإنعامه .
- * الثناء عليه بما منّ وأنعم على عباده ، وفى مقدمتهم الرسل الكرام .
- * اللياذ به واللجوء إليه لدفع الكرب ، وكشف الغمة .
- * التقرب إليه : ﴿ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِي مُحَرَّرًا .. ﴾ .
- * الاعتذار : ﴿ رَبُّهُمْ أَوْلَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي ، وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبُّ لِتَرْضَىٰ ﴾ .

(٢) انظر مفردات الراغب : (٤٨٧) .

(١) المؤمنون : ٦٠

* الاستعظام والاستفسار : ﴿ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ
الْكِبَرُ... ﴾ .

* التوعد : ﴿ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لِأُزِينَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ... ﴾ .

* الاستعطاف : ﴿ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ﴾

* الشكوى : ﴿ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴾ .

وغير خاف أننا لم نسق كل الشواهد على هذه المعاني وإنما مثلنا لها تمثيلاً
يسيراً ، لكثرة ما ورد منها ، فكلمة : « رب » هي ترنيمة كل لسان ،
وأنشودة كل مؤمن ، ومفتاح كل خير ، ومغلاق كل شر ، حتى عدو الله -
ابليس - يقولها صاغراً ، وإن كان بقدسيته كافراً .

* *

● الإضافة إلى المخاطب المفرد :

● التمثيل : (م ج) :

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً... ﴾ (١)

﴿ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ، فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ (٢)

﴿ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ (٣)

﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ... ﴾ (٤)

﴿ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ ، إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ... ﴾ (٥)

﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ، لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ... ﴾ (٦)

﴿ ... إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ ، وَهُوَ أَعْلَمُ
بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ (٧)

(٣) آل عمران : ٤٣

(٢) البقرة : ١٤٧

(١) البقرة : ٣٠

(٦) الأنعام : ١١٥

(٥) الأنعام : ٨٣

(٤) المائدة : ٦٧

(٧) الأنعام : ١١٧

- ﴿ ... قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ ... ﴾ (١) .
 ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ ﴾ (٢) .
 ﴿ فَوَرَبُّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (٣) .
 ﴿ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبٍ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾ (٤) .
 ﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ... ﴾ (٥) .

سقنا هذه الآيات تمثيلاً لغرض واحد خاص بها ، وتأكيذاً لما لاحظناه من قبل من أن كلمة « رب » في القرآن - مراداً بها الله - لا تأتي إلا ملازمة للإضافة ، ما عدا موضعين تقدماً ، جاءا مقطوعين عن الإضافة ، مع وصف لـ « رب » قائم مقام الإضافة كما تقدم .

هذا هو الغرض العام الذي أردنا تأكيده بهذه المجموعة (ج) من الآيات الحكيميات .

أما الغرض الخاص بهذه المجموعة ، فهو لزوم الإضافة إلى « الكاف » ضمير المخاطب المفرد المذكور في (١١ آية) والمؤنث في آية واحدة (٦) ، وإذا دقت النظر وجدت كلمة « رب » في هذه المجموعة قد تواردت عليها جميع حركات الإعراب الجارية على المفرد :

الرفع بالضممة ، والنصب بالفتحة ، والجر بالكسرة ، وأن أسباب هذه الحركات الإعرابية مختلفة كذلك :

فالرفع : جاء على الفاعلية والابتدائية وأسماء النواسخ .

(١) الأعراف : ١٣٤ (٢) هود : ١١٧ (٣) الحجر : ٩٢

(٤) الإسراء : ١٧ (٥) الإسراء : ٥٥

(٦) هي الآية التي خطبت فيها مريم - رضى الله عنها ، وهي الآية رقم (٤٣) من آل عمران .

والنصب : جاء على أسماء النواسخ - كذلك ، ثم على المفعولية .
والجر : جاء بعد حرف الجر ، وبأداة القسم « الواو » وبالإضافة . عدُ
إلى قراءة الآيات يتبين لك بوضوح واقعية ما لا حظناه .
* ومن الملاحظات اللافتة للنظر فى آيات هذه المجموعة أن « كاف الخطاب »
فى « ربك » مهما كان موضعه من الإعراب ، إنما هو كناية عن صاحب
الدعوة ﷺ .

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ ﴾ . ﴿ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ﴾ ، ﴿ .. بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ
مِنْ رَبِّكَ ﴾ ، ﴿ .. إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ ، ﴿ فَوَرَبُّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ
أَجْمَعِينَ ﴾ . وهكذا .. وهكذا ، إلا فى موضعين أحدهما خطاب لموسى -
عليه السلام - على سبيل الحكاية : ﴿ يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ ﴾ ، والثانى
خطاب لمريم على الحكاية كذلك : ﴿ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ ﴾ ، وهذا النسق
جار فى الآيات التى لم نذكرها مما أضيفت فيه « رب » إلى خطاب المفرد ،
إن هذا الخطاب الخاص بنبينا ﷺ ؛ يكاد يشمل كل ما جاء فى القرآن ، ولا
عجب ؛ لأن القرآن الحكيم عليه نزل ، فهو خطاب له قبل أن يكون خطاباً
للخلق أجمعين ، وهذا مما سنسجله فى منهج القرآن فى كلمة « رب » بإذن
الله (١) .

* *

● الإضافة إلى المخاطب المشئ :

● التمثيل : (م د) :

﴿ وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا
مِنَ الْخَالِدِينَ ﴾ (٢) .

(١) أما فى إضافة « رب » إلى ياء المتكلم فقد كثر مجيئها مع غير نبينا ﷺ ، لغلبة
الحكاية فيها .

(٢) الأعراف : ٢٠

﴿ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى ﴾ (١) ؟ .

﴿ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ * فَبَأَى آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ (٢) .
﴿ مُتَكَنِّينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ * فَبَأَى آلاءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴾ (٣) .

* هذه أربع آيات جاءت فيها كلمة « رب » مضافة إلى ضمير المثني المخاطب « ربكما » ، وفي سورة الرحمن تسعة وعشرون آية غير الآيتين اللتين ذكرناهما من السورة . تسعة وعشرون آية أخرى ذكرت فيها « ربكما » مضافة إلى ضمير المثني المخاطب ، لم نذكرها خشية الإطالة ، واكتفينا بذكر أول آية وآخر آية فيها وردت فيها « ربكما » .

* والمثنى الذى أضيفت إليه « رب » فى هذه الآيات جميعاً ، ما ذكرناه وما لم نذكره . هذا المثنى نوعان :

الأول : مثنى فى اللفظ والمعنى ، وهو ما عدا آيات سورة الرحمن ؛ لأن المراد فيها :

آدم وحواء - موسى وهارون .

الثانى : مثنى لفظاً ، وهو من حيث المعنى جمع ضخيم يشمل أفراد الإنس والجن كيفما ومتى وجدوا .

وقد جاءت الآية ﴿ فَبَأَى آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ فى سورة الرحمن إحدى وثلاثين مرة ، تعقيباً على معان وآيات كونية وخلقية حلقت بها السورة فى أرجاء الكون كله سماء وأرضاً ، وما بين السماء والأرض .

واستأثرت كلمة « رب » بالمواضع كلها دون غيرها من أسماء الله وصفاته الحسنى ؛ لأن فى « رب » من الدقائق التى تناسب المقام ما ليس فى غيرها

(١) طه : ٤٩ (٢) الرحمن : ١٢ ، ١٣ (٣) الرحمن : ٧٦ ، ٧٧

من الأسماء والصفات الحسنى . فمن كلمة « رب » تشع معانى التربية والإنعام والتدبير والرعاية ، والمقام فى « الرحمن » مقام تذكير وامتنان ، وفى كلمة « رب » من روح التودد والتلطف وإلانة الخطاب ما جعلها « ربة » الموقف فى هذا المقام العطوف الودود .

وقد جاء « رب » فى غير « الرحمن » مرفوعاً على الفاعلية مرة ، وعلى الخبرية مرة واحدة .

أما فى « الرحمن » فقد لزم الجر بالإضافة فى الإحدى والثلاثين مرة . وما زلنا نذكر بما سبق ملاحظته من لزوم كلمة « رب » فى القرآن للإضافة . هذه ملاحظة عامة .

أما الخاصة فهى مجيء « رب » مضافاً إلى المخاطب المثنى على النحو الذى تقدم .

* *

● الإضافة إلى المخاطب الجمع :

● التمثيل : (م هـ) :

- ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ .. ﴾ (١)
- ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ .. ﴾ (٢)
- ﴿ فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ، كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ .. ﴾ (٣)
- ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ .. ﴾ (٤)
- ﴿ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ .. ﴾ (٥)
- ﴿ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ ، فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقُّ إِلَّا الضَّلَالُ ﴾ (٦)

(٣) الأنعام : ٥٤

(٢) النساء : ١

(١) البقرة : ٢١

(٦) يونس : ٣٢

(٥) الأنعام : ١٠٢

(٤) غافر : ٦٠

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ ... ﴾ (١)
 ﴿ اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ... ﴾ (٢)
 ﴿ قَالَ بِشْمًا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي ، أَعْجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ... ﴾ (٣)
 ﴿ ... يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾ (٤)

تشارك هذه المجموعة من الآيات فى سمة واحدة مما نحن بصددده ، وهى إضافة « رب » إلى ضمير المخاطبين الجمع « كم » وهى صورة من عدة صور جاءت عليها إضافة « رب » فى القرآن .

ويغلب على ضمير المخاطبين - فيها العموم ، أى جميع الناس ، مؤمنهم وكافرهم ؛ لأن الحقائق التى تثبتها الآيات حقائق عامة مثل :

الخلق - الربوبية . وفى بعض المواضع أريد الخصوص دون العموم كقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ لأن الله لا يستجيب دعاء الكافرين .

وكقول موسى - عليه السلام - لبنى إسرائيل .

﴿ أَعْجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ﴾ ؟ .

ومما يلاحظ أن آية « الأنعام : ١٠٢ » وآية « يونس : ٣٢ » جمع فيها بين « الله » و« رب » فقد جاءت « رب » صفة لـ « الله » أو خبراً ثانياً لـ « ذلكم » .

وسر الجمع بينهما - فيما نرى - أن كلا من الآيتين اللتين جُمعَ فيهما بين « الله » و« رب » وردتا تأكيداً لعقيدة التوحيد بعد منازعة فيها أشير إليها فيما تقدم الآيتين :

ففى الأنعام أشير إلى ضلال اليهود والنصارى بادعائهم ولدًا لله سبحانه :
 ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ، وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ

(٢) الأعراف : ٣

(١) يونس : ٥٧

(٤) الرعد : ٢

(٣) الأعراف : ١٥٠

عَلِمَ ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ * بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، أَنَّى
يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ ، وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً ، وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ
عَلِيمٌ * ذَلِكَُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ .. ﴿ (١) 》 .

وفى يونس :

﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ
يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ
فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ، فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ * فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ .. ﴿ (٢) 》 .

فجاء الخطاب مفخماً بالتأكيدات واسم الإشارة « ذلك » الدال على علو
الرتبة في مواجهة ما ادعوه من نقائص التوحيد ، وأفاد الجمع بينهما أمرين :

الأول : الهيمنة الإلهية على جميع المخلوقات « الله » .

الثاني : الرعاية والتدبير « ربكم » .

أما من حيث حركات الإعراب ، فقد حرصنا على التمثيل لها جميعاً :
الرفع ، النصب ، الجر ، مع اختلاف أسبابها كما يبدو من النظر فى الآيات .

* *

● الإضافة إلى ضمير الغائب المفرد :

● التمثيل : (م و) :

﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ ، وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا .. ﴿ (٣) 》 .

﴿ وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ .. ﴿ (٤) 》 .

﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمِ .. ﴿ (٥) 》 .

(٢) يونس : ٣١ ، ٣٢

(١) الانعام : ١٠٠ - ١٠٢

(٥) البقرة : ١٣١

(٤) البقرة : ١٢٤

(٣) آل عمران : ٣٧

- ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ... ﴾ (١) .
- ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبُّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي ... ﴾ (٢) .
- ﴿ ... فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ ﴾ (٣) .
- ﴿ إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴾ (٤) .
- ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ (٥) .
- ﴿ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ ... ﴾ (٦) .
- ﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ ... ﴾ (٧) .
- ﴿ ... وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴾ (٨) .
- ﴿ ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ ، فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَثَابًا ﴾ (٩) .

وتمثل هذه الآيات صورة أخرى لإضافة كلمة « رب » في القرآن :

فقد أضيفت من قبل إلى الأسماء الظاهرة ، ثم إلى الضمائر على اختلافها .

وهنا تضاف كلمة « رب » إلى ضمير الغائب المفرد - مذكراً ومؤنثاً - مع غلبة الإضافة - بالطبع - إلى ضمير المذكر ، وإضافة « رب » إلى كلٍ من الظاهر والمضمر لها دلالات بلاغية إعجازية عميقة ، ندخِر الحديث عنها الآن إلى ما بعد الفراغ من التمثيل لصور الإضافة كلها .

وغير خاف أن الإضافة في المجموعة (و) شملت كلمة « رب » في حالات :

(١) الأعراف : ١٤٣	(٢) هود : ٤٥	(٣) البقرة : ٢٨٢
(٤) طه : ٧٤	(٥) الأنبياء : ٨٣	(٦) الأعراف : ٥٨
(٧) طه : ١٢٧	(٨) الفرقان : ٥٥	(٩) النبا : ٣٩

الرفع ، والنصب ، والجر ، على أن ما ذكرناه إنما هو مجرد تمثيل لهذه السمات الأسلوبية لا استقصاء لها .

وغير خاف - كذلك - أن هذه انتظمها الأسلوب الخبرى (الحكاية) إلا آية واحدة جاءت على الأسلوب الإنشائي التشريعى :

﴿ فَلْيَكْتُبْ وَلْيَمْلِكِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ ، وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ .. ﴾ .

وقد جمعت هذه الآية بين « الله » و « رب » ، ولهذا الجمع - فيما نرى - داع بلاغى غير الداعى الذى جمع بينهما فى الآيتين السابقتين فى المجموعة (هـ) وخلاصته :

أن المقام مقام تشريع وارد لحفظ الحقوق المالية فى معاملات الناس ، والتشريع - عموماً - تجب رعايته والامثال له .

وعنصر الترهيب والترغيب هما الوسيلتان اللتان تكفلان حماية التشريع من الإهمال ، وتحملان المكلف على إنفاذه ؛ لذلك - والله أعلم - جمع فى الآية بين الاسمين الكريمين :

الله ، ورب ، ف « الله » هو عنوان الرهبة ، و « رب » هو عنوان الرغبة ، هذا هو الداعى البلاغى للجمع هنا ، فيما هُدينا إليه ، وإنَّا له لطمثون .

* *

● الإضافة إلى ضمير الغائب المثنى :

● التمثيل : (م ز) :

﴿ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنهَكُمَا عَنْ تِلْكَمَا الشَّجَرَةِ .. ﴾ ؟ (١) .

﴿ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ (٢) .

(٢) الأعراف : ١٨٩

(١) الأعراف : ٢٢

﴿ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴾ (١) .

ليس فى القرآن كلمة « رب » مضافة إلى ضمير الغائب المثنى إلا هذه الآيات الثلاث :

الأولى والثالثة جاءت فيهما « ربهما » مرفوعاً على الفاعلية ، وفى الثانية جاءت منصوبة على « الوصفية » .

واللافت للنظر أن الآية الثانية جمعت بين « الله » ، و« رب » بينما أفردت الأولى والثالثة كلمة « رب » فهل لهذا من تفسير مقبول ؟ .

إننا نعود إلى ما سبق قوله عن آيتى الأنعام ويونس اللتين جُمع فيهما بين « الله » ، و« رب » من أن ذلك الجمع كان سببه - فيما رأينا - المنازعة فى عقيدة التوحيد . هذا الذى قلناه من قبل هناك نقوله - هنا - ؛ لأن المقام - هنا - جاء فيه صراحة ما يناقض عقيدة التوحيد ، وهذا فى الآية التالية للآية المذكورة :

﴿ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِي مَا آتَاهُمَا ، فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (٢) .

كل ما فى الأمر أن المنازعة هنا مؤخرة عن آية الجمع ، وهناك مقدمة ، لكن المقام واحد فى الآيات الثلاث .

* *

● الإضافة إلى ضمير الغائب الجمع :

● التمثيل : (م ح) :

﴿ .. فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ .. ﴾ (٣) .
﴿ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴾ (٤) .

(٢) الأعراف : ١٩٠

(١) الكهف : ٨١

(٤) التوبة : ٢١

(٣) آل عمران : ١٩٥

- ﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴾ (١) .
 ﴿ فَدَمَدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴾ (٢) .
 ﴿ لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ... ﴾ (٣) .
 ﴿ وَلَا تَطْرُدُ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ ... ﴾ (٤) .
 ﴿ إِلَّا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ، إِلَّا بَعْدًا لَّعَادِ قَوْمِ هُودَ ﴾ (٥) .
 ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ (٦) .
 ﴿ إِنَّهُمْ فَتِيَّةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾ (٧) .
 ﴿ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴾ (٨) .
 ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ... ﴾ (٩) .
 ﴿ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ ﴾ (١٠) .

وهذه الآيات تمثل ضرباً من ضروب إضافة « رب » إلى الضمائر ، وهي -
 جميعاً - جاءت فيها كلمة « رب » مضافة إلى ضمير الغائبين الجمع « هم -
 هم » سواء كانت مرفوعة أو منصوبة أو مجرورة ، وعوامل الإعراب فيها
 مختلفة كما ترى ، والضمير المضافة هي إليه عائد على نوعي العباد :
 الصالحين والطالحين . المؤمنين والكافرين . فهو - سبحانه - رب كل شيء .
 واللافت للنظر - هنا - خلو القرآن من إضافة « رب » إلى ضمير
 الإناث « نون النسوة » كما خلا من قبل . وسنعود لهذا فيما بعد بإذن الله .

* *

● الإضافة إلى ضمير المتكلم المفرد في غير النداء :

● التمثيل : (م ط) :

- ﴿ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ... ﴾ (١١) .

(١) إبراهيم : ١٣	(٢) الشمس : ١٤	(٣) آل عمران : ١٩٨
(٤) الأنعام : ٥٢	(٥) هود : ٦٠	(٦) النحل : ٥٠
(٧) الكهف : ١٣	(٨) الشورى : ٢٢	(٩) السجدة : ١٢
(١٠) الأنبياء : ٤٢	(١١) البقرة : ٢٥٨	

- ﴿ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴾ (١) .
- ﴿ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ (٢) .
- ﴿ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ (٣) .
- ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ (٤) .
- ﴿ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ ﴾ (٥) .
- ﴿ وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ﴾ (٦) .
- ﴿ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (٧) .
- ﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ (٨) .
- ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ، هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ (٩) .

أضيفت كلمة « رب » في هذه الآيات إلى ضمير المتكلم المفرد « الياء » مرفوعة ومنصوبة ومجرورة .

وفي أكثر هذه الآيات - وكذلك ما لم نذكره - استقلت « رب » بالدلالة ، مثل :

﴿ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ .

وفي بعضها جُمع بينها وبين الله تعالى مع تقديم اسم الجلالة وتأخير « رب » وذلك في آيتي الشورى والزخرف .

وسبب هذا الجمع كما قلنا من قبل هو تفخيم الخبر لإزالة المنازعة في عقيدة التوحيد .

(١) المائدة : ٧٢	(٢) الأنعام : ١٥	(٣) الأنعام : ٨٠
(٤) الأعراف : ٣٣	(٥) يوسف : ١٠٠	(٦) الكهف : ٣٦
(٧) الإسراء : ٨٥	(٨) الشورى : ١٠	(٩) الزخرف : ٦٤

ففى الشورى سُبِقَتُ الآية المذكورة بقوله تعالى ناعياً الإِشراك به :

﴿ أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ، فَأَلَّهُ هُوَ الْوَكِيلُ .. ﴾ (١)

وفى الزخرف ، سبق الآية المذكورة هذه (رقم ٦٤) حديث طويل عن ادعاء فرعون الألوهية ، ثم مناظرة مشركى العرب بين آلهتهم وعيسى - عليه السلام - ، ثم التحذير من كيد الشيطان ، وتزيينه الكفر بالله ثم جاءت آيتنا هذه محكمة على لسان عيسى - عليه السلام - مبطلاً عقائد الشرك والوثنية ، ولاهجاً بكلمة التوحيد :

﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ .. ﴾

وقد حفلت هذه العبارة بعناصر التوكيد :

إن - اسمية الجملة - ضمير الفصل - وإفراد الله بالعبادة ، ومن قبل ظهر تفخيم الخبر فى آية الشورى :

اسم الإشارة : « ذلك » للدلالة على علو رتبة الخالق ، واسمية الجملة ، وقصر التوكل عليه ، وقصر الإنابة إليه .

وفى الجمع بين « الله » و « رب » معنى آخر أراه جديراً بأن نشير إليه هنا . فقد علمنا من قبل أن « الله » هو عنوان القوة والقهر وسعة السلطان ، وأن « رب » توحى بمعانى التفضل على العباد ، والتدبير ، والرعاية .

وقد وُجِدَ من الناس بعد نزول القرآن من يؤمن بالله خالقاً ولا يؤمن به مصرفاً أحوال الخلق « مُدَبِّرًا » فقد رفع الله يده عن الكون بعد أن خلقه عند هؤلاء الحمقى .

هكذا شاع عند بعض الفلاسفة . وبخاصة فى أوروبا خلال ما يسمى بـ « عصر النهضة » .

(١) الشورى : ٩

ونرى أن في الجمع بين « الله » ، و « رب » تنبيهاً سبق أوانه على ضلال هذا
المعتقد الذي أشرنا إليه ، فالله الذي خلق الكون وما فيه ، هو المالك زمام
الأمر في كل صغيرة وكبيرة تقع في الكون .

﴿ يَدْبِرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾ (١) .

وهكذا نجد في لغة القرآن دلالات متنوعة بتنوع الأساليب .

* *

● الإضافة إلى ضمير المتكلم الجمع :

● التمثيل : (م ي) :

﴿ .. رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نُسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ، رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا
إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا ، رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ
لَنَا بِهِ .. ﴾ (٢) .

﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا .. ﴾ (٣) .

﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ .. ﴾ (٤) .

﴿ .. يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ (٥) .

﴿ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ
الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴾ (٦) .

﴿ .. إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ .. ﴾ (٧) .

﴿ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ (٨) .

(٣) آل عمران : ٨

(٢) البقرة : ٢٨٦

(١) الرعد : ٢

(٦) المائدة : ٨٤

(٥) المائدة : ٨٣

(٤) آل عمران : ٩

(٨) الأنبياء : ١١٢

(٧) الكهف : ١٤

﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا . . ﴾ (١)

﴿ قُلْ أَنُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ . . ﴾ (٢)
﴿ ثُمَّ لَمْ يَكُنْ فَتْنُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبُّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ (٣)
﴿ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ، وَنُودُوا أَنْ تِلْكَ الْجَنَّةُ أَوْرَثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٤)

﴿ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴾ (٥)
﴿ قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴾ (٦)
﴿ وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا . . ﴾ (٧)
﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا . . ﴾ (٨)

بذكر هذه الآيات تكتمل صور إضافة « رب » في القرآن الكريم وهي -
جميعاً - تمثل سمة أسلوبية واحدة ، وهي إضافة كلمة « رب » إلى ضمير
جماعة المتكلمين « نا » وجرياً على المنهج الذي اختططناه في هذه الدراسة ،
فقد مثلنا في هذه المجموعة (ي) لكل حالات الإعراب مع اختلاف الأسباب
المختلفة للإعراب :

الرفع ، والنصب ، والجر .

وقبل أن نلخص منهج القرآن في كلمة « رب » في جميع صورها نقف وقفة
قصيرة مع هذه المجموعة ، نستكشف ما عساه أن يكون وارداً فيها :

(١) الأعراف : ٤٤	(٢) البقرة : ١٣٩	(٣) الأنعام : ٢٣
(٤) الأعراف : ٤٣	(٥) الإسراء : ١٠٨	(٦) الشعراء : ٥٠
(٧) الأعراف : ٨٩	(٨) آل عمران : ٧	

* إن كلمة « رَبَّنَا » مضافة في حالة النصب إلى ضمير المتكلمين « الجمع » تلى في الكثرة « رَبَّنَا » المجرورة ، كما أنها تختص بمواضع النداء .
وفي هذه الحالة أُطْرِدَ معها حذف أداة النداء « يا » ولم تذكر قط .

وهذا ما لحظناه من قبل مع كلمة « رَبُّ » في جميع المواضع التي وردت فيها منادى مضافاً إلى « ياء » المتكلم « ما عدا موضعين ذكرت فيهما ، وقد مرَّ الحديث عنهما فيما قبل .

ف « رَبَّنَا » منادى تشترك مع « رَبُّ » المنادى المضاف إلى ضمير المتكلم ، تشترك معها في حذف أداة النداء تيسيراً وتخفيفاً على الداعين ، لكثرة حاجة « الخلق » إلى دعاء الخالق . أما من حيث الضمير المضاف إليه ، وهما :
ياء المتكلم المفرد مذكراً ومؤنثاً .

و « ناء » الجماعة المتكلمين ذكوراً وإناثاً ، أو ذكوراً فقط ، وإناثاً فقط ، فلا يمكن حذفها ، ولا جرت لغة العرب هذا المجرى في غير القرآن ، أي أن في « رَبُّ » حذفين ، وفي « رَبَّنَا » حذفاً واحداً ، وهي مع عدم الحذف فيها من الخفة والسهولة في النطق ما في « رَبُّ » بحذف الياء .

و لم ترد كلمة « رب » مضافة إلى « نون النسوة » لا مخاطباً ولا غائباً .

فليس في القرآن « رَبِّكُنَّ » ولا « رَبَّهِنَّ » لا رَفْعاً ولا نصباً ولا جرّاً .

وليس معنى هذا أن خطاب النسوة أو الحديث عنهن بـ « رب » مهملاً في القرآن ، كلا . وإنما هن داخلات في خطاب الذكور أو الحديث عنهم في الأمور العامة بين الرجال والإناث .

فقوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ (١) .

(١) الحج : ١

ليس خطاباً خاصاً بالرجال ، بل الكاف فى قوله : « ربكم » خطاب للرجال والنساء معاً ؛ لأن اتقاء الله مطلوب من الجميع .
وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴾ (١) .

ليس حديثاً عن الرجال فحسب - بل هو حديث يشمل الرجال والنساء ، وكون الضمير المذكر فى الموضعين : « ربكم - بهم » شاملاً للرجال والنساء ، أو الذكور والإناث معاً . فإن البلاغة تسمى هذا « الدمج » تغليباً ؛ أى تغليب جانب الذكورة على جانب الأنوثة ، وهو أسلوب بليغ وشائع فى كلام العرب ، وفى آيات الكتاب العزيز .

ولماذا الذكورة ؟

وقد يقول قائل : وَلِمَ لَمْ يُغْلَبْ جانب الأنوثة على الذكورة ؟ أليس فى هذا هضم للإناث ؟ .

وجوابنا على هذا التساؤل :

أن تغليب جانب الإناث على جانب الذكورة لم تجربه اللغة العربية قبل نزول القرآن ، بل الذى ورد فيها تغليب جانب الذكورة على الأنوثة خطاباً وغيبة ، وذلك فى المواضع التى يستوى فيها الجانبان فى الغرض المسوق له الكلام .

فإذا كان المقام خاصاً بالنساء جيئ بنون النسوة حيثئذ خطاباً وغيبة .

* *

● ففى الذكر الحكيم :

﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ .. ﴾ (٢) .

ف « نون النسوة » لحقت بالكلمات الثلاث فى الآية الحكيمة ، لأن الأمر يخص النساء .

(٢) الأحزاب : ٣٣

(١) العاديات : ١١

فنون النسوة له دلالة خاصة لا يدخل فيها الرجال بحال من الأحوال والأصل فى خطاب الناس عامة ، أو الحديث عنهم ، أن يساق الحديث ، أو يجرى الخطاب مجرى التذكير دون التأنيث ، والقرائن هى التى تعين المراد .

ومرة أخرى : فإن قوله تعالى :

﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ وَقَدْ تقدم الاستشهاد به . هذا القول وإن سيق مساق التذكير فإن المعنى شامل للذكور والإناث ؛ لأن الله رب الجميع . والنساء - كما يقول الأصوليون - شقائق الرجال إلا ما خص ^(١) .

فليست المسألة مسألة محاباة لفريق وهضم لفريق آخر ، بل مسألة بيان لغوى له طرائقه فى الإفصاح والتعبير .

* *

● لماذا الإضافة :

* وردت كلمة « رب » فى القرآن تسعمائة مرة وخمسا وثمانين مرة .

وفى كل هذه المرات وردت مضافة إلى الظاهر وإلى الضمائر المختلفة على الأنساق التى مرّ عرضها مفصلاً ، إلا فى موضعين جاءت فيهما مقطوعة عن الإضافة ، مع اتباعها بوصف يقوم مقام الإضافة كما تقدم .

وأكثر ما أضيفت إليه هو « الضمائر » باختلاف أنواعها : التكلم والخطاب والغيبة .

* وبكل ثقة واطمئنان نستطيع أن نقول إن إضافتها شملت جميع الضمائر إلا « نون النسوة » لم تأت مضافة إليه قط ، وقد عاجلنا هذه المسألة بما فيه الكفاية من قبل .

* أما إضافتها إلى الأسماء الظاهرة ، فقد جاءت على ضربين :

(١) أى ما خص نوعاً منهما فيبقى على خصوصه . وما يقوله الأصوليون - هنا - أصله حديث شريف .

الأول : إضافتها إلى أسماء ظاهرة خاصة الدلالة ، مثل السموات والأرض ، والعرش ، والشعري ، والناس ، والفلق ، والمشرق ، والمغرب . . إلخ .

الثاني : إضافتها إلى اسم يشمل كل المخلوقات « رب كل شيء » ، وهذه العبارة من جوامع الكلم القرآنية ، حيث حَوّت على قصرها كل ما تفرق من الأسماء الظاهرة والضمائر معاً في المرات التي ذكرناها آنفاً . وهذا أشبه ما يكون بما يسميه البلاغيون به « الجمع بعد التفريق » ؛ لأن « كل شيء » جمع كل ما تفرق في المرات الأربع والثمانين والتسعمائة .

وعلى هذا تكون الإضافة في كلمة « رب » قد أسندت إلى الله كل المخلوقات ، لا يند منها مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، ولا في ما بين الأرض والسماء .

هذا الذي قدمناه - هنا - جزء من الإجابة على السؤال الذي صدرنا به هذه السطور ، والذي كان : ولماذا الإضافة ؟

ومُضياً مع استكمال الإجابة نقول :

إن إضافة « رب » في البيان القرآني المعجز تؤدي - فوق ما تقدم - مهمة جليلة الشأن في مجال الدعوة ، وإذا كان البلاغيون يقولون : إن الكناية أبلغ من التصريح لاقتراح الدعوى فيها بالدليل ، فإننا إذا استعرنا قول البلاغيين في الكناية إلى كلمة « رب » أصبنا عين الصواب .

تأمل قوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴾ (١) .

انظر إلى لطافة المعنى في إضافة « رب » إلى ضمير المخاطب ، فإن في هذه الإضافة تذكيراً للمخاطب بجلال النعم التي تفيض من « الربوبية » على

(١) الانفطار : ٦

« المربوب » والرعاية التي تحيط به من كل جانب وحسن التدبير ، ومن كان هذا شأنه فمن سوء السلوك أن تُجحدَ نعمه ، ويُكفر إحسانه .

ويظهر الفرق جلياً إذا نظرنا العبارة القرآنية بقولنا :

« مَا غَرَّكَ بِاللَّهِ » مثلاً . فجو التذكير بالإنعام والإحسان في « بربك » يشع من جهة العقل ، ومن جهة اللفظ معاً . أما في عبارتنا نحن « بالله » فإن التذكير يشع من جهة العقل وحده . لأن اسم الجلالة لا يمكن إضافته إلى المخاطب ، فبقيت الدلالة فيه عقلية صرفة .

أما « بربك » فإن الإضافة تفيد ذلك المعنى من جهة العقل واللفظ معاً للنص الظاهر على صلة « رب » بالمخاطب ، وصلة المخاطب بـ « رب » . لهذا قلنا إن الإضافة إلى الظاهر أو إلى الضمير في كلمة « رب » تقتزن فيها الدعوى بدليلها كالكناية .

ويتجلى هذا المعنى بكل قوة حين تضاف كلمة « رب » إلى ضمائر المكلفين لترقيق الكلام مع « المؤمنين » فيسارعون إلى الامتثال والطاعة . فإذا كان الحديث مع غير المؤمنين كان فيه من إقامة الحجة عليهم ما لا يخفى على ذي بصيرة .

وهذه المعاني اللطيفة لا يخلو منها موضع من مواضع إضافة « رب » إلى ما تضاف إليه وفي كل مقام سيق من أجله الكلام .

ونخذ إليك - مثلاً آخر - نداء نوح ربه في لحظة من لحظات الشدة البالغة ، والألم الموجه ، لحظة أدرك نوح أن ابنه يتعرض للغرق والهلاك من الطوفان الجارف والخطب المدلهم :

﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي .. ﴾ .

فقد ناداه بـ « رب » ؛ لأنه يطمع في الإحسان إليه بإنجاء ابنه من الهلاك المحقق . ولكأنه يقول له : أنت ولي الإحسان والإنعام فأحسن على وأنعم ونجّ ابني مما ينتظره من الضياع .

ولهذه المعانى كثر الدعاء بـ « رب » دون غيره من الأسماء والصفات الحسنى لما فى هذه الكلمة « رب » من خاصية إلهية لا توجد فى سواء بالقدر الذى يوجد فيها .

من أجل هذا - وغيره - لزمت كلمة « رب » الإضافة « فى هذا البيان المعجز الحكيم .

* وبعد ما تقدم ، نستطيع أن نقول فى كل ثقة واطمئنان ، أن كلمة « رب » مراداً بها الله ، لم تأت فى القرآن إلا معرفة - ما عدا الموضعين اللذين قام فيهما الوصف المخصص مقام الإضافة - وأن أداة التعريف فيها الإضافة وحدها ، فلم تأت معرفة بـ « أل » قط ؛ لأنه لو جاءت معرفة بـ « أل » لامتنت الإضافة فيها . ولو امتنت الإضافة فيها ترتب على ذلك أمران خطيران :

الأول : ذهاب تلك المعانى اللطيفة التى تشع من إضافة « رب » إلى كل ما أضيفت إليه من أسماء ظاهرة أو ضمائر ، ولأطفت تسعمائة وخمس وثمانون « شعلة » مضيئة فى التنزيل الحكيم .

الثانى : تعطيل الاسم الكريم « رب » عما يعلّق به من آلاء الله ومربوباته التى يتكون منها « كونه العظيم الصنع » لأن كلمة « الرب » هكذا تبدو مجرد اسم لا يعلّق به شىء ، ولا يعلّق هو بشىء .

وأين تكون كلمة « الرب » إذا قارناها بقوله تعالى :

﴿ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴾ (١) .

وهجر القرآن لتعريف « رب » بالالف واللام « الرب » دليل قاطع على « جفاف » هذا التعريف ، وبعده عن روح التنزيل الحكيم ، ومراميه البيانية المعجزة .

(١) سورة ص : ٦٦

﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ، مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا
الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ، وَإِنَّكَ لَتَهْدَى إِلَى
صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (١) .

* *

● منهج القرآن في « رب » :

أولاً : كثرة استعماله لها بما يقارب الألف مرة .

ثانياً : إطراد إضافتها في كل المواضع ما عدا موضعين وُصِفَا وَصِفَا يقوم
مقام تلك الإضافة المطردة .

ثالثاً : شملت الإضافة فيها جميع الضمائر إلا « نون النسوة » خطاباً
وغيبة .

رابعاً : في مواضع منها جُمِعَ بينها وبين اسم الجلالة « الله » لدواعٍ بلاغية
أشرنا إليها في مواضعها من هذه الدراسة .

خامساً : أدت إضافتها سواء إلى الأسماء الظاهرة أو الضمائر معاني
وأغراضاً بيانية لها شأن عظيم في حقل الدعوة .

سادساً : ما أضيف منها إلى ضمير المتكلم المفرد ، أو « نا » الجماعة أكثره
ورد في مقام الدعاء والتضرع لجلب منفعة ، أو دفع مضرة ، أو شكر
وعرفان .

سابعاً : ما أضيف منها إلى ضمير المتكلم المفرد « ي » إن كان في غير
مقام « النداء » بقى المضاف إليه دائماً « ربي » ، وإذا كان في مقام « النداء »
التزم فيه حذفان :

(أ) حذف المضاف إليه دائماً .

(١) الشورى : ٥٢

(ب) حذف أداة النداء « يا » إلا فى موضعين ذكرت فيهما أداة النداء
لداغى بلاغى اقتضى ذلك الذكر .

ثامناً : أكثر مواضع المضاف إلى « كاف » الخطاب المفرد كان الخطاب فيه
موجهاً إلى خاتم الرسل ﷺ ؛ لأن القرآن عليه نزل .

تاسعاً : وردت « رب » فى لغة القرآن معرفة بالإضافة إلا فى موضعين
خصصا بالوصف القائم مقام الإضافة ، ولم تأت معرفة بالألف واللام
« الرب » قط ؛ لأن فى تعريفها بالألف واللام تعطيلاً لوظائفها البيانية المعجزة ،
وإضاعة لمعانيها اللطيفة التى لها شأن ، وأى شأن ، فى البلاغ الإلهى للناس
أجمعين .

عاشراً : إن استعمال كلمة « رب » فى القرآن على الأنساق التى أبنّاها ما
ظهر لنا منها هو ركيزة عظيمة فى صرح الإعجاز البيانى اللغوى ، ودليل «
عملى تطبيقى » على أن القرآن إنما أنزل بعلم الله .

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ، قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلَهُ مُفْتَرِيَاتٍ وَاَدْعُوا مَنْ
اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا
أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿ (١) .

* * *

(١) هود : ١٣ ، ١٤

النُّورُ وَالْكَتَبُ السَّماوِية

أرسل الله رسلاً لهداية العباد ، لا يعلم عددهم إلا هو ، ذلك لأن القرآن أعلمنا في خطاب رسوله أنه قص عليه بعضاً من الرسل ، ولم يقصص عليه بعضاً آخر منهم ، والرسل المعروفون بأسمائهم خمسة وعشرون رسولاً ، منهم ثمانية عشر ورد ذكرهم في سورة « الأنعام » في آية : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ .. ﴾ والآيات التي جاءت بعدها .. والمعروف من الكتب السماوية - الآن - التوراة والزبور وصحف إبراهيم ، والإنجيل ، ثم القرآن المنزل على خاتم الرسل ﷺ .

فصحف إبراهيم ، وزبور داود - عليهما السلام - لم يفصل القرآن القول فيهما ، وإنما حكى قصة إبراهيم عدة مرات ، وكذلك نبذاً موجزة عن داود . أما التوراة والإنجيل ، فقد نوه القرآن بفضلهما كثيراً ، ولكن على الصفة التي أنزلهما الله عليها ، لا كما هما الآن في أيدي اليهود والنصارى . ولما كانت هذه الكتب الثلاثة :

التوراة والإنجيل والقرآن ، نازلة لهداية الناس إلى صراط الله المستقيم ، وإلى العمل الصالح الحميد العقبي في الدنيا والآخرة . لما كانت هذه الكتب بهذه الصفة ، وصفها الله في كتابه العزيز بالنور الذي يبدد الظلام ، ويهدي إلى سبيل الرشاد .

ووصف الكتب الثلاثة بـ « النور » لم يأت على وتيرة واحدة ، بل نجد تفاوتاً بينها في هذا الوصف ، تفاوتاً نلاحظه من جهتين لا من جهة واحدة :

* من جهة « الكم » أو عدد المرات .

* ومن جهة « الكيف » أو الصياغة الأسلوبية ، وهذا يتضح لنا بيقين من التمثيل الآتى :

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ، يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا
لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ
شُهَدَاءَ . . ﴾ (١)

﴿ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ ﴾ (٢) .
﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ ،
وَأَتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى
وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (٣) .

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنْتُمْ
تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ ، قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ
مُبِينٌ ﴾ (٤) .

﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي
التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ
الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ
عَلَيْهِمْ ، فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ
أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٥) .

﴿ فَاٰمَنُوا بِاللّٰهِ وَرَسُوْلِهِ وَالنُّوْرَ الَّذِیْ اُنْزَلْنَا ، وَاللّٰهُ بِمَا تَعْمَلُوْنَ خَبِيْرٌ ﴾ (٦) .
﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا ﴾ (٧) .
﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا ، مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا

(٣) المائدة : ٤٦

(٢) الأنعام : ٩١

(١) المائدة : ٤٤

(٦) التغابن : ٨

(٥) الأعراف : ١٥٧

(٤) المائدة : ١٥

(٧) النساء : ١٧٤

الإيمان ، ولكن جعلناه نورا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ، وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١﴾ .

﴿ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِّنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴾ (٢) .

﴿ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴾ (٣) .

الكتب السماوية التي وُصِفَتْ (٤) بـ « النور » وبعض مشتقاته في الآيات المذكورة ، أربعة أنواع تفصيلاً ، ونوعان إجمالاً ، فهي إما كتب مسماة باسمها ، وهي على ترتيب النزول :

١ - التوراة . ٢ - الإنجيل . ٣ - القرآن .

وإما غير مسماة ، وهي المذكورة - إجمالاً - في آيتي آل عمران وفاطر :
(الْكِتَابُ الْمُنِيرُ) ، فهو - وإن كان مفرداً - المراد به ما أنزله الله على رسله قبل القرآن ، وتدخل فيها التوراة ، والإنجيل وصحف إبراهيم .

* *

● التفاوت من حيث « الكم » :

لم يجر وصف الكتب السماوية المذكورة بـ « النور » على وتيرة واحدة من حيث الكم :

فالتوراة وصفت بالنور مرتين :

في الآية (٩١) من سورة « الأنعام » وفي الآية (٤٤) من سورة « المائدة » .

(١) الشورى : ٥٢ (٢) آل عمران : ١٨٤ (٣) فاطر : ٢٥
(٤) ليس المراد بالوصف - هنا - « النعت » النحوي ، بل نسبة النور إلى الكتاب على أي نحو كان .

والإنجيل وُصِفَ بالنور مرة واحدة فى الآية (٤٦) من سورة « المائدة » .
أما الكتب المذكورة إجمالاً فى الآية (١٨٤) من سورة « آل عمران » ،
والآية (٢٥) من سورة « فاطر » فقد وصفت بالنور مرتين فى الآيتين المشار
إليهما .

أما القرآن الكريم فقد وصف بالنور خمس مرات :
فى الآية (١٥) من سورة : « المائدة » .
والآية (١٥٧) من سورة : « الأعراف » .
والآية (٢٥) من سورة : « فاطر » .
وفى الآية (٥٢) من سورة : « الشورى » .
وفى الآية (٨) من سورة : « التغابن » .
هذا هو التفاوت من حيث « الكم » حيث احتل القرآن المرتبة الاولى .
والتوراة المرتبة الثانية ، ومثلها الكتب المشار إليها إجمالاً ، أما الإنجيل فقد
كان فى المرتبة الثالثة (الأخيرة) .

* *

● التفاوت من حيث « الكيف » :

أما التفاوت من حيث « الكيف » ونعنى به : كيفية الصياغة الأسلوبية فى
نسبة « النور » إلى الكتاب ، فنلاحظ فى غير القرآن أن الصياغة كانت هكذا :
﴿ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ﴾ - ﴿ نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ ﴾ بالنسبة للتوراة .
﴿ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ ﴾ بالنسبة للإنجيل .
﴿ الْكِتَابُ الْمُنِيرُ ﴾ بالنسبة للكتب التى أشير إليها إجمالاً .
أما بالنسبة للقرآن الحكيم فقد كانت الصياغة هكذا :

﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ .. ﴾ .
 ﴿ النُّورُ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ .. ﴾ أى مع محمد ﷺ .
 ﴿ .. وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا .. ﴾
 ﴿ .. وَالنُّورُ الَّذِي أُنْزَلْنَا .. ﴾
 ﴿ .. جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ .

* *

● الفروق بين الصياغات البيانية :

فى غير القرآن جرى الوصف بـ « النور » على موصوف ، فكان الموصوف شيئاً ، والوصف شيئاً آخر (١) .

وفى القرآن لم يجر الوصف على موصوف ، بل جعل القرآن نفسه هو « النور » على سبيل الاستعارة التى يحل فيها المشبه به ، وهو هنا النور ، محل المشبه ، وهو القرآن ، وهذا يفيد قوة النسبة بين المشبه والمشبه به ، وصيرورة المشبه هو المشبه به نفسه ، فلا فرق بينهما .

اللهم إلا فى آية « الشورى » ، فقد جرى الوصف بـ « النور » على موصوف ، وهو الهاء فى « جَعَلْنَاهُ » أى صَيَّرْنَا القرآن نوراً ، وهذا أكد فى الدلالة من « فيها هدى ونور » ، و« فيه هدى ونور » ، و« الكتاب المنير » أى الهادى ، والوصف بالمصدر « نور » أكد من الوصف باسم الفاعل « المنير » كقولك : رجل عادل ، ورجل عدل ، حيث صار الرجل فى العبارة الثانية هو : العدل نفسه لتمكن هذا الوصف فيه تمكناً غلب على كل صفات الرجل .
 فالقرآن كما احتل المرتبة الأولى فى نسبة « النور » إليه من حيث الكم -

(١) ﴿ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ﴾ - ﴿ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ ﴾ - ﴿ الْكِتَابُ الْمُنِيرُ ﴾ فى هذه الصياغات جُمِعَ بين الوصف والموصوف كما ترى .

- عدد المرات - ومن حيث « الكيف » طريقة التعبير ، وتأتى التوراة فى المرتبة الثانية من حيث « الكم » أما من حيث الكيف فهى والإنجيل فى مرتبة واحدة .

ويتميز « الإنجيل » عن الكتب المجمل ذكرها من حيث الكيف : الوصف بالمصدر « نور » .

وتتقدم هى عليه من حيث « الكم » بنسبة ٢ : ١

* *

● لماذا هذا التفاوت :

أما بالنسبة لتفاوت التوراة على الإنجيل ، فلأن التوراة أول كتاب ينزل على أكبر رسول من رسلهم - موسى عليه السلام - ولأن « الإنجيل » جرى فى « فلك التوراة » وذكر بها لأنها الأصل الذى جاء « الإنجيل » مخففاً لبعض ما قسا فيها من التشريعات ، ولم ينسخ كل ما جاء فيها من أحكام ، فهو فصول مضافة إلى ما جاء به موسى - عليه السلام .

وما قيل فى تفاوت التوراة على الإنجيل يقال فى الكتب المجمل ذكرها ، لأن فترتها الزمنية واقعة بين التوراة والإنجيل قطعاً .

* *

● تفاوت القرآن على ما عداه :

وأما تفاوت القرآن على ما عداه من كتب سماوية سابقة فلأسباب الآتية :
أولاً : لأنه كلمة « الله » الأخيرة للإنس والجن لم تتقيد بزمان ولا مكان ولا جنس . فلا هدى بعد هداه ، ولا نور يعقب نوره ، ولا الحياة فى حاجة إلى كتاب سواه ، ولا هى فى غنى عن شىء فيه ﴿ .. وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ .. ﴾ (١) .

(١) النحل : ٤٤

ثانيًا : لأنه أقر ما جاء به الرسل من قبل ، وشهد لهم بالصدق ، وجعل الإيمان بهم وبما أنزل إليهم مثل الإيمان بخاتم الرسل والأنبياء :

﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ ، وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ ، لَا تَفْرُقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (١) .

ثالثًا : لأنه جمع ما تفرق على السنة الرسل من الدعوة إلى التوحيد ، وأمهاات الفضائل ، والإيمان بالحياة الآخرة .

﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ .. ﴾ (٢) .

رابعًا : اشتماله على المبادئ والأسس التي تنظم كل شئون الحياة ، وتحقيق سعادتي الدنيا والآخرة .

خامسًا : لأنه « الوثيقة الإلهية الوحيدة » التي حُفِظَتْ كما أنزلها الله بلا تحريف ولا تبديل ، وستظل محفوظة حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (٣) .

أما غيره فقد حُرِّفَ وبُدِّلَ ، وذهبت ثقة المؤمنين فيه .

سادسًا : إنه المعجزة الإيمانية الخالدة ، الشاهدة بصحة الرسالات وصدق الرسل جميعًا ، وقع التحدى بها فى الماضى ، ويقع الآن ، ويقع فى كل جيل وعصر حتى قيام الساعة .

لهذا - وغيره - عَظُمَتْ نسبة « النور » فى القرآن للقرآن :

﴿ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ (٤) .

* *

(٢) المائدة : ٤٨

(١) البقرة : ٣٦

(٤) الجمعة : ٤

(٣) الحجر : ٩

● منهج القرآن في وصف الكتب « السماوية » بـ « النور » :

من المعلوم أن « النور » في القرآن أوسع دائرة من وروده وصفاً للكتب « السماوية »
فله - فيه - شئون أخرى - وحديثنا عنه كان مقصوراً على مجيئه في سياق
الحديث عن الكتب الموحاة ، وحديثنا عن منهجه مقصور - كذلك - على
هذا الجانب .

أولاً : استعمل القرآن « النور » في الحديث عن الكتب السماوية حسب
قيمة كل كتاب ، والأدوار التي أدتها أو تؤديها في مجال الدعوة والإرشاد .

ثانياً : التفاوت بين الكتب السماوية في نسبة « النور » إليها من جهتين :

* جهة « الكم » أو عدد المرات .

* جهة « كيف » أو أفخمية الصياغة .

ثالثاً : تميز القرآن في نسبة « النور » إليه على ما عداه من جهتي « الكم »
و« كيف » معاً لخصائص موضوعية لا وجود لها فيما عداه .

رابعاً : العلاقة الملحوظة بين « النور » وتلك « الكتب » هي علاقة
« المشابهة » - أي الهداية في كلا الطرفين - سواء كان « النور » مستعاراً ، أو
غير مستعار .

* * *

العمى - العمه

تتفق هاتان الكلمتان فى أصل المعنى المراد منهما ، وتتفق لفظاً فى الأصلين الأول والثانى :

العين- الميم . وتختلفان - لفظاً - فى الأصل الثالث ، أو ما يسمى - صرفياً - بـ « اللام » :

فهو فى الأولى « العمى » ألف مقصورة . وفى الثانية « العمه » : هاء .

أما اختلافهما فى دقائق المعنى ، فهذا يتضح من النظر فى الآيات الآتية :

● التمثيل : (العمى) :

﴿ قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ ، فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ ، وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيفٍ ﴾ (١) .

﴿ وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةً فَعَمُوا وَصَمُوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ ، وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ (٢) .

﴿ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ (٣)

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ، فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ (٤) .

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ ﴾ (٥) .

(٣) القصص : ٦٦

(٢) المائدة : ٧١

(١) الأنعام : ١٠٤

(٥) محمد : ٢٣

(٤) الحج : ٤٦

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِهِ ،
فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنْزِلْ مَكُتُوبَهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ﴾ (١) .

﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ . . ﴾ (٢) .

﴿ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمَىٰ . . ﴾ (٣) .

﴿ بَلِ أَدَارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ ، بَلِ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا ، بَلِ هُمْ مِّنْهَا
عَمُونَ ﴾ (٤) .

﴿ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَى وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ ، هَلْ يَسْتَوِيَانِ
مَثَلًا ، أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (٥) .

﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى ، إِنَّمَا
يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ (٦) .

﴿ وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ (٧) .

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
أَعْمَىٰ * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ
آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا ، وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَىٰ ﴾ (٨) .

﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ
حَرَجٌ . . ﴾ (٩) .

﴿ صُمُّ بَكْمٌ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ (١٠) .

(٣) فصلت : ٤٤

(٢) فصلت : ١٧

(١) هود : ٢٨

(٦) الرعد : ١٩

(٥) هود : ٢٤

(٤) النمل : ٦٦

(٩) الفتح : ١٧

(٨) طه : ١٢٤ - ١٢٦

(٧) الإسراء : ٧٢

(١٠) البقرة : ١٨

﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِيًَّا وَيُكْمَلُ وَصْمًا .. ﴾ (١) .
﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى .. ﴾ (٢) .

* فى هذه الآيات : تواردت معانى المادة (ع . م . ي) على محورين :
(أ) محور المعانى اللغوية الوضعية .

(ب) محور المعانى المجازية :

وقد وردت المعانى الحقيقية فيما يحدث فى الدنيا على مجال التشريع والإخبار القصصى ، ونفى المساواة بين المؤمن والكافر ، وفى مجال التشريع استعملت المادة فى نفي الحرج عمن فقد بصره فى بعض التكاليف ، كالجهاد .
﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ ﴾ .

وفى مجال الإخبار القصصى استعملت المادة فى ما حدث من صاحب الدعوة ﷺ مع عبد الله بن أم مكتوم : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ﴾ .

وفى مجال نفي المساواة بين المؤمن والكافر استعملت المادة فى تشبيه الكافر بالأعمى والمؤمن بالبصير .

* أما ورودها فى المعانى المجازية فقد ترددت المادة بين الإشارة إلى ضلال المعتقد ، والجهل وعدم الإدراك ، وبين الإخفاء والتغطية ، ثم الرعيد .
* إن لغة القرآن تستعمل « عمى » وما تصرف منها فى طمس الأبصار حقيقة .

ثم تستعيرها لمعان مجازية تربط بينها وبين معناها الحقيقى علاقة وثيقة :
فعمى القلوب عدم إدراكها للدلائل الحق ، وتمكن الجهل فيها - أى عمى البصيرة - فهى لا تحس ولا تفقه شيئاً .

(٢) عبس : ١ ، ٢

(١) الإسراء : ٩٧

وينعى القرآن - فى مواضع - على الضالين ضلالهم ، ويقبح حالهم ، فلا يكتفى بوصف قلوبهم بالعمى ، حتى يجمع إلى « عماها » زوال سمعهم وشلل ألسنتهم ، فهم لا يرون ، ولا يسمعون ، ولا يتكلمون ، أنهم كالدمى جموداً وتحجراً ، وإن كان لهم سميت آدميين : ﴿ أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ، أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ (١) أنهم - بسبب عماهم - معزولون عن العالم الخارجى ، لا توقظهم موعظة ، ولا تثمر فيهم حجة ، ولا يخيفهم إنذار ، فكيفما كانوا فالعمى ملاحقهم :

عُمى ، وَعَمُونَ ، وَعَمِينَ ، وهو عليهم عَمَى ، بل وأموات غير أحياء ، وأكثر ما يرمز به القرآن إلى الضلال والجهل والكفر هو العمى ، لأن الأعمى لا يدرك شيئاً مما حوله .

لذلك كثرت تصرفات المادة فى القرآن ، فجاء منها الفعل الماضى مرات ، والمضارع ، والوصف والاسم فى صور مختلفة .

* *

● التمثيل : (أَلَمَهُ) :

- ﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ، وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ (٢) .
- ﴿ وَتَقَلَّبُ أَفْتَدَتُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَنذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ (٣) .
- ﴿ مَنْ يَضِلِّ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ ، وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ (٤) .
- ﴿ ... فَتَنذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ (٥) .
- ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ (٦) .

(٣) الأنعام : ١١٠

(٢) البقرة : ١٥

(١) الأعراف : ١٧٩

(٦) الحجر : ٧٢

(٥) يونس : ١١

(٤) الأعراف : ١٨٦

﴿ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَّجُوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾^(١) .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴾^(٢) .

هذه الآيات السبع جاءت فيها مادة : العين والميم والهاء ، فعلاً مضارعاً سبع مرات . والمراد منها الحيرة ، والتردد والارتباك ، واشتقاق عمه من الأرض العمهاء ، وهى التى لا تكون بها علامات للنجاة من الهلاك أو سلامة السير .

ومعنى هذا أن معنى عمه : ضل وتحيّر ضلالاً مهلكاً ، أو دخل فى حيرة لا خروج منها .

فالعمى حقيقة فى فقد البصر ، ويستعار لضلال المذهب ، والرأى . والعمه حقيقة فى السير فى الأرض الواسعة التى لا يرى السائر فيها طريقاً يطمئن إليه للخروج منها ، ويستعار للحيرة والتردد النفسى بين أمور لا يعرف الضار منها من النافع .

وهذا يكشف لنا عن السر البيانى فى اقتصار القرآن على الفعل المضارع « يعمهون » فى سياق الحديث عن الكفر وأهله ؛ لأن فى هذا الفعل تصويراً لأنغماسهم فى القلق ، وتماديهم فى الباطل ، بلا هاد يهديهم ، ولا مغيث يغيثهم ، ولا منقذ يخرجهم مما هم فيه .

وقد ضاعف من تكثيف ظلال الحيرة والتردد الفعل « نذرهم » ، وحرف الجر « فى » الذى صيّر حيرتهم التى هم فيها باحتواء « الظرف » على « المظروف » ، فهم لا يرون بصيصاً من أمل ، ولا منفذاً للخروج ، وقد استعار القرآن « يعمهون » لطمس القلوب وعدم الإحساس ، وهذا أشد خطراً . وأوخم عقبى ، وأسوأ مصيراً من « عمى البصر » . وأعمى البصر - إذا كان بصير البصيرة - زاك عند الله وعند الناس ، وابن لم مكتوم كان أعمى البصر ،

(٢) النمل : ٤

(١) المؤمنون : ٧٥

ولكرامته عند الله - لأنه بصير البصيرة - عاتب فيه أكرم خلقه ﷺ ، وزكّاه وشهد له بالخير ، وفي القرآن الحكيم آية لا ترى في فقد البصر مسبة كما تراها في فقد البصيرة وعمى القلب :

﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ ، وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ (١).

والمراد بـ « عمى القلوب » هنا : العمه ؛ لأنه منهج القرآن في التفرقة بين فقد البصر المحسوس . وفقد البصيرة العقلية .

ودراستنا لهاتين المادتين : (عمى - عمه) كانت من أجل أن نبين تفرقة القرآن بينهما في دقائق المعنى ، بعد اشتراكهما في أصل المعنى العام ، وهو عدم الإدراك .

إن العمى في القرآن خاص بفقد البصر ، وفقد البصر ليس دائماً مسبة ولا نقصاً .

والعمه في القرآن مستعار لضلال القلوب وفسادها ، وهو مسبة ونقص دائماً .

فاستعمل القرآن « العمى » في فقد البصر لخفة المصيبة فيه .

واستعمل « العمه » في فقد البصيرة لعظم المصيبة فيه .

وإذا فحصنا البنية « الصرفية » لكل من « العمى » و « العمه » وجدنا بنية « العمه » أكثر تحجراً وجموداً ، وأصلب عوداً من « العمى » .

لأن « العمى » لأمه حرف علة لا يثبت في بعض الأحوال ، وفي القرآن جاء محذوفاً في :

« عمون - عمين » . وأحياناً يحذف نطقاً وإن بقي خطاً كما في قوله تعالى :

﴿ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمَى ﴾ ، وفي غير القرآن يقال : « عمى » في أعمى ، أما « عمه » فاصوله الثلاثة : الفاء والعين واللام ، باقية في كل حال .

(١) الحج : ٤٦

لذلك - والله أعلم - استعمل القرآن : الثقيل « عمه » فى « الثقيل » فقد البصيرة .

واستعمل الخفيف « عمى » فى الخفيف « فقد البصر » وهذا من التناسب العجيب بين الألفاظ ومعانيها ، وفى القرآن نفسه نظائر أخرى لهذه « اللطائف » مثل :

القارعة - الطامة - يدع - يدعون - صرصر - تهوى به الريح . . وهكذا .

* * *

● منهج القرآن فى « العمى - العمه » :

أولاً : كلتا الكلمتين مستعملتان فى فقد الإدراك ، وهو أصل الدلالة فيهما .

ثانياً : استعمال « العمى » حقيقة فى فقد البصر ، ومجازاً فى الضلال والإخفاء والتغطية والوعيد ، على سبيل الاستعارة التصريحية .

ثالثاً : قصر « العمه » على المعانى المجازية ، واستعارته لضلال المذهب والرأى وسوء المصير ، على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية .

رابعاً : كثرة التصرف « الصرفى » فى « العمى » وقصره على الفعل المضارع فى « العمه » مع وقوعه فى فواصل الآى دائماً .

خامساً : شدة التناسب بين كل من « العمى » ، و « العمه » وبين المعنى المدلول عليه بكل منهما :

الثقيل فى الثقيل ، والخفيف فى الخفيف على النحو الذى سبق بيانه .

سادساً : اختصاص « العمى » فى نفى المساواة بين المؤمن والكافر .

سابعاً : اختصاص « العمى » الحقيقى بمقام التشريع والإنذار القصصى .

ثامناً : اقتران « العمى » أحياناً بأفات أخرى مذمومة كالبيكم والصمم ، ثم المناظرة بينه وبين الإبصار فى مواضع أخرى .

* * *

الصوم - الصيام

لا تفرق كتب اللغة بين الصوم والصيام ، كلاهما بمعنى واحد عند أئمة اللغة ، حتى الذين وضعوا مصنفات فى مفردات القرآن يوردون الصوم والصيام بمعنى واحد ، هو مطلق الإمساك عن الفعل طعامًا كان أو غير طعام ، وتوسع بعض الشعراء فأطلق على الخيل التى أمسكت عن السير بأنها « صيام » . قال النابغة الذبياني :

خيل صيام وخيل غير صائمة تحت العجاج ، وأخرى تعلق اللُجُما
يقصد بالخيل الصيام المسكات عن السير ، وبغير الصائمات السائرات .
أما القرآن ، فالوضع فيه مختلف بالنسبة لدلالة كل من هاتين الكلمتين ، وليس معنى هذا أن الاستعمال الذى شاع فى اللغة خارج القرآن ، غير صواب . وإنما الذى نقوله - وقد قلناه من قبل :

أن القرآن الحكيم الذى نزل بعلم الله يستعمل مفردات اللغة استعمالاً أمثل ، ويوظف كل « كلمة » توظيفاً حكيماً ودقيقاً لا يُعْلَى عليه ، وذلك هو الإعجاز اللغوى الذى نرسم خطاه ، ونزيع اللثام - بقدر طاقتنا المتواضعة - عن ملامحه وقسماته الوضيئة .

وكما عودنا القارئ الكريم منذ البداية فى هذا العمل ، فإننا نذكر أولاً الآيات التى وودت فيها هاتان الكلمتان : الصوم والصيام ، ثم ننظر فيها لنستجلي التفرقة القرآنية بين الصوم والصيام ، فهيا إلى التمثيل والنظر :

● التمثيل :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (١) .

(١) البقرة : ١٨٣

﴿ أَحَلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ ... ﴾ (١)

﴿ وَأَتَمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ، فَإِنْ أُخْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ، وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ ، فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ، فَإِذَا أَمْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ ، وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ، تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ... ﴾ (٢)

﴿ ... وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فِدْيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ ... ﴾ (٣)

﴿ ... فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ... ﴾ (٤)

﴿ ... فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسًا ... ﴾ (٥)

﴿ ... لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ ، وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ ، أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ ... ﴾ (٦)

﴿ فَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَاقْرَأُوا عَيْنًا ، فَإِمَّا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنَّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًا ﴾ (٧)

(٣) النساء : ٩٢

(٢) البقرة : ١٩٦

(١) البقرة : ١٨٧

(٦) المائدة : ٩٥

(٥) المجادلة : ٤

(٤) المائدة : ٨٩

(٧) مريم : ٢٦

فى هذه الآيات وردت كلمة « الصيام - صيام - صياماً » ثمانى مرات ، أما « صوماً » فقد ورد مرة واحدة .

وظاهر ظهور الشمس فى منتصف النهار أن القرآن استعمل « الصيام » وصوره الأخرى مراداً منه معنى خاص غير المعنى الذى أُريد من « صوماً » .
الصيام أُريد منه تلك العبادة المخصوصة التى لا تتحقق إلا بالإمساك عن الطعام والشراب والاتصال الجنسى بنية من طلوع الفجر إلى غروب الشمس .
وقد تكررت كلمة « الصيام » مراداً بها ما يأتى :

- * صيام شهر رمضان .
 - * صيام كفارة الظهار .
 - * صيام كفارة اليمين .
 - * صيام جزاء الصيد .
 - * صيام كفارة القتل الخطأ .
 - * صيام التمتع بالعمرة إلى الحج .
 - * صيام الفدية للمحرم بالحج إذا ارتكب مخالفة لا تفسد الحج .
- هذه « الصيامات » كلها لا بد فيها من الكف عن المفطرات طيلة النهار .
وهذا لا خلاف فيه .

أما « صوماً » الواردة فى سورة مريم آية (٢٦) فالمراد منها الكف عن الكلام فحسب ، بدليل ما جاء بعدها مباشرة : ﴿ فَلَنْ أَكَلَّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ﴾ .
إذا فليس معنى الصيام هو معنى الصوم ، ولا معنى الصوم هو معنى الصيام ، كما يفهم كثير من الناس ، وحتى أهل العلم منهم ، ولو كان « الصوم » يؤدى معنى « الصيام » لجاء ذكره فى القرآن ، ولو مرة ، بدلاً من « الصيام » الوارد فى القرآن ثمانى مرات .

والتزام القرآن ذكر الصيام فى المرات الثمانى دليل على أن هذه الكلمة لا تؤدى معناها كلمة « الصوم » وإلا لما كان لهذا الالتزام القرآنى معنى .

* *

● ولماذا هذا الالتزام ؟

لا نزاع أن الإمساك عن شهوتى البطن والفرج أمر شاق على النفس ، شتاء وصيفاً ، أما شتاء فللإحساس بالجوع ، وأما صيفاً فللإحساس الشديد بالعطش مع أطولية النهار على الليل .

أما الإمساك عن الكلام فأمره يسير ، ولا مشقة فيه ، بل ربما كان فيه راحة للنفس ومتعة .

لذلك التزم القرآن « الصيام » فى التكليف الشاقة ، وخص الصوم بالأمر السهل ، وزيادة المبنى تدل على زيادة المعنى . والصيام أكثر حروفاً من الصوم . فناسب كل منهما معناه المراد منه ، الصيام للتكليف الشاق ، والصوم للصمت السهل .

* *

● منهج القرآن فى « الصوم - الصيام » :

أولاً : يفرق القرآن بين الصوم والصيام من حيث المراد من كل منهما :
فالصوم - ولم يرد فى القرآن إلا مرة واحدة - معناه الإمساك عن الكلام -
أى الصمت - :

﴿ فَقُولِ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا ؛ فَلَنْ أَكَلَّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًا ﴾ .

أما الصيام فمعناه : الإمساك عن شهوتى البطن والفرج بنية من طلوع الفجر إلى غروب الشمس .

ثانيًا : ورد الصيام فى لغة القرآن مقصودًا به العبادة المعروفة ثمانى مرات
معرفًا بـ « أل » مرتين ، ومعرفًا أو مخصصًا بالإضافة أربع مرات . ومقطوعًا
عن الإضافة والتعريف مرتين .

ثالثًا : اختصاص « الصيام » بالتكاليف الشاقة ، والصوم بالكف عن
الكلام ، وهو أمر يسير ، وفى هذا مناسبة حميمة بين اللفظ والمعنى فى كل
منهما ، لأن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى غالبًا .

رابعًا : عذم إحلال « الصوم » محل « الصيام » ولو مرة واحدة فى
المواضع الثمانية ، دليل قاطع على عدم صلاحية « الصوم » لغة وبيانًا للدلالة
المرادة من « الصيام » فلا ترادف إذا بين الكلمتين قطعًا .

* * *

ذَاقَ - ذُقْ

للقرآن فى استعمال المواد اللغوية منهج عام مطرد فى كل المواد التى شرفت بورودها فى القرآن . وهذا المنهج العام يدور حول ثلاثة أقطاب :

* فَبَعْضُ الْمَوَادِّ يَسْتَعْمَلُهَا الْقُرْآنُ فى كل صنفها فى المعانى الوضعية اللغوية ، أو المعانى الحقيقية ، التى أرادها واضع اللغة .

* وبعض المواد يستعملها فى المعانى المجازية فى جميع صورها .

* وبعض المواد يستعملها أحياناً فى معانيها الوضعية الحقيقية ، ويستعملها أحياناً أخرى فى معانٍ مجازية . أى أن المادة فيه مادة حقيقة ومجاز . وفى هذا « النوع » كثيراً ما تجدد للقرآن منهجاً داخلياً خاصاً بالمادة نفسها . أى أنه يستعمل بعضاً من صورها حقيقة . وبعضاً مجازاً مع التزام هذا المنهج الداخلى فيما تستعمل فيه بعض صور المادة حقيقة ، وبعضها مجازاً .

وهذا ينبئ عن نظام دقيق للغاية فى استخدام اللغة ، لا يتجلى إلا من خلال الدرس الواعى ، والنظر الفاحص ، والتأمل العميق .

والآن نضع بين يدى القارئ دراسة شاملة لمادة « ذاق » فى القرآن ، تطبيقاً لهذا المنهج الذى أُلحنا إليه ، ثم ننظر إلى أى الأقطاب الثلاثة تنتمى هذه المادة .

ولنسر سيرتنا التى سرناها فى هذه الدراسة بادئين بـ « التمثيل » .

● التمثيل :

﴿ .. فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴾ (١) .

(١) الطلاق : ٩

- ﴿ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ ﴾ (١) .
- ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ ﴾ (٢) .
- ﴿ .. أَوْ عَذْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ ﴾ (٣) .
- ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَّاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ ﴾ (٤) .
- ﴿ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا ﴾ (٥) .
- ﴿ .. أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ (٦) .
- ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴾ (٧) .
- ﴿ ذُوقُوا فَتَتَكَّمُّ هَذَا الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ (٨) .
- ﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴾ (٩) .
- ﴿ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ ﴾ (١٠) .
- ﴿ فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ (١١) .
- ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ، وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ (١٢) .
- ﴿ وَلَئِنْ أَدَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكُونُ مِنْكُمْ كَفُورٌ ﴾ (١٣) .
- ﴿ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوَاتُهُمَا ﴾ (١٤) .
- ﴿ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴾ (١٥) .

(١) الحشر : ١٥	(٢) التغابن : ٥	(٣) المائدة : ٩٥
(٤) الروم : ٤٦	(٥) الأنعام : ١٤٨	(٦) الأنعام : ٦٥
(٧) النبا : ٢٤	(٨) الذاريات : ١٤	(٩) القمر : ٤٨
(١٠) النحل : ١١٢	(١١) الزمر : ٢٦	(١٢) آل عمران : ١٨٥
(١٣) هود : ٩	(١٤) الأعراف : ٢٢	(١٥) الحج : ٢٥

﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ
يَرْجِعُونَ ﴾ (١)

﴿ فَلَنُذِيقَنَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا . . ﴾ (٢)

﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾ (٣)

حرصنا في هذا التمثيل أن نذكر أمثلة أو مثالا لكل ما وقعت عليه الإذاقة أو الذوق ؛ لأن تحديد الجهة التي تنتمي إليها هذه المادة من الحقيقة والمجاز إنما تُعرف بذكر مفعولها ، وأكثر ما وقع مفعولا لها هو العذاب موصوفاً وغير موصوف ، وبعض الآيات جاءت بعض صيغ المادة الفعلية محذوفة المفعول ، ولكن المقام يدل عليه ، بل ويحدده ، وإذا استعرنا من علماء أصول الفقه القاعدة المشهورة عندهم : أن المطلق يُحمل على المقيد ، فإن ما لم يذكر مفعوله من صور مادتنا هذه تحمل على ما ذكر مفعوله ، وهو العذاب ، والمفاعيل التي وقع عليها الذوق أو الإذاقة في الآيات المتقدم ذكرها ، والتي لم نذكرها هي :

الوبال - الرحمة - النعماء - البأس - السوء - البرد - الشراب - الفتنة - المس المضاف إلى سقر - يعنى جهنم - اللباس المضاف إلى الجوع والخوف - الخزي - الموت - الشجرة - العذاب - الحميم والفساق - العمل - الكسب - بعض العمل - الكثر .

وقد عبّر عن الأربعة الأخيرة بالاسم الموصول ، وصلته ما ذكرناه مثل :

﴿ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا . . ﴾ (٤)

وهذه - كلها - لا يسوغ أن تكون « مفعولا » للذوق من غير صرف عن الظاهر ، إلا موضعان سنقف معهما وقفة كاشفة ، لأن الذوق لغة هو :

(٢) فصلت : ٢٧

(٤) الروم : ٤١

(١) السجدة : ٢١

(٣) الدخان : ٤٩

« وجود الطعم فى الفم » .

وهذا لا يكون إلا لما يُشرب ، وهو الأغلب - أو لما يُؤكل ، ولا شىء مما تقدم - إلا الموضعان المشار إليهما - طعام ولا شراب . لذلك وجب الصرف عن الظاهر ليتبين المراد .

وللصرف عن الظاهر - هنا - طريقتان :

أما أولاهما : فتكون بصرف « الذوق » عن حقيقته اللغوية ، فيكون استعارة للإحساس بالنعمة أو العذاب .

والجامع بين الذوق - المشبه به - وبين الإحساس - المشبه - هو « قوة الوجدان » أو « شدة الإحساس » ، وبعض العلماء فسّر العلاقة هنا بـ « التجربة » أو « حصول المعرفة » ومع وجاهة هذا التفسير فإنه لا يطرد فى كل موضع من مواضع استعمال « الذوق » فى الآيات المذكورة .

فهو سائغ - مثلاً - فى قوله تعالى : ﴿ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴾ ، أى : جربوا ألم النار .

وليس سائغاً - مثلاً آخر - فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا أذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً .. ﴾ .

إذ لا يستساغ حمله على : إذا جربنا الإنسان منا رحمة .. والصواب أن يقال : إذا خولنا الإنسان ، وهذا من تفسير القرآن بالقرآن .

فقد ورد هذا فى قوله تعالى :

﴿ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ ﴾ (١) .

والتخويل : الإعطاء ، أى إذا أعطاه نعمة ، ويكون التعبير عن هذه المعانى بـ « الإذاقة » إشارة إلى تمكُّن الإنسان من النعمة والرحمة تمكُّناً جعله شديد الإحساس بها فى شئون حياته .

(١) الزمر : ٨

والإذاقة فى المطعومات كالمس فى المحسوسات ، كلتاهما مستعارتان لشدة الإحساس وقوة الوجدان ، والاستعارة فىهما تصريحية تبعية .

والمس مستعار فى لغة القرآن للإصابة ، فقله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضَرْبٌ ﴾ (١) ، أى : أصابه إصابة موجعة يجد أثرها فى نفسه ويحس بها إحساساً شديداً .

وطريقة الاستعارة التصريحية أقرب إلى بيان المراد من الذوق والإذاقة من أى توجيه آخر .

أما الطريقة الثانية فهى جواز الحمل على الاستعارة المكنية ، فيشبه العذاب - مثلاً - بمطعوم أو مشروب . ثم يقدر المشبه به محذوقاً ، ويكون « الذوق » أو « الإذاقة » موقعةً على العذاب هى قرينته المكنية .

هذا فى « المكروهات » كالعذاب والوبال والفتنة والسوء ، أما فى المحبوبات كالرحمة والنعماء فيجرب فيها ما جرى فى المكروهات .

ويكون المغزى البلاغى فى المكروهات أن العذاب وأشباهه صار بمنزلة المطعوم والمشروب لهم : فى الملازمة والغدو والرواح فيه . وفى المعاناة من شدة وطأته .

أما فى المحبوبات فهو الإشارة إلى جلال النعمة وسهولة الانتفاع بها ، ولذة التمتع بتناولها .

* *

● الموضوعان المستثنيان :

سبقت الإشارة إلى استثناء موضعين من المواضع التى أوقعت الإذاقة أو الذوق فيها على « المفاعيل » التى وردت فى الآيات .

(١) الزمر : ٨

فقد قلنا من قبل إن هذه « المفاعيل » كالعذاب والبأس ليس مما يذاق لغة ،
وأنه لا بد من صرفها عن ظواهرها ليتبين المراد من الكلام . وحاولنا ذلك
الصرف عن الظاهر في بعض الأمثلة ليقاس عليها غيرها .

والموضعان اللذان أرجأنا الحديث عنهما هما قوله تعالى في سورة الأعراف :
﴿ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا ﴾ أي آدم وحواء ، وقوله
تعالى في سورة النبا :

﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴾ .

فذوق الشجرة مجاز من حيث أوقع « الذوق » عليها ، والمراد ثمرها لا
ذاتها ، والمجاز - هنا - مرسل علاقته إما المحلية لأن الشجرة محل الثمر .
وإما الكلية ، حيث أطلق الكل « الشجرة » وأريد الجزء : « الثمر » هذا
من جهة .

ومن جهة أخرى فإن فيه استعارة الذوق للأكل ، حيث ورد الأكل مصرحاً
به في قوله تعالى :

﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا .. ﴾ (١) .

والمغزى من استعارة « الذوق » لـ « الأكل » أن الذي حذرهما الله منه وقع
بمجرد أن ذاقا الشجرة ، فضلاً عن الأكل منها ، فكان الخير في امتثال أمر الله
. وإلا فإن يسير المخالفة موقع في الضرر .

وفي هذا إشارة إلى عظمة حكمة الله فيما ينهى عنه أو يأمر به ، وعلى أية
حال فإن « الذوق » هنا يكتنفه المجاز من كل جهة ، وإن بدا أمام النظر العابر
أنه حقيقة لغوية .

أما موضع « النبا » : ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴾ ، فإن « شراباً »

(١) طه : ١٢١

يصح أن يكون « مفعولاً لـ » يذوقون « على سبيل الحقيقة لا المجاز . لكن عطف « شراباً » على « برداً » وَجَعَلَ « برداً » مفعولاً بالأصالة لـ « يذوق » قد يميل بالفهم ميلاً آخر .

فباتفاق أن إيقاع « الذوق » على « برداً » مجاز لا حقيقة ، والبرد هنا معناه الروح التى تنفّس عنهم اختناق النار . . إذا فمعنى الذوق - هنا : الرؤية . كما قال تعالى فى نظير هذا : ﴿ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمَهْرِيرًا ﴾ (١) .

وعلى هذا فقد يكون المعنى فيه : لا يرون فيها برداً ، ويكون عطف « شراباً » عليه للمشاركة فى المعنى ؛ إذ من المعروف أن المعطوف يأخذ حكم المعطوف عليه ، أى : لا يرون برداً ولا يرون شراباً .

ويكون نفى الرؤية الواقعة على البرد والشراب كناية عن حرمان أهل النار من هاتين النعمتين . كما كان نفى الشمس والزمهرير كناية عن عدم التأذى بهما ، والتنعم بأضدادهما وهما الظل الظليل والنسيم المنعش .

وعلى هذا فإن حمل « الذوق » الواقع على الشراب على المجاز مسلك سائغ . بل وأرجح - فيما نرى - من الحمل على الحقيقة - لأن نفى الرؤية يستلزم نفى وجود الشيء ونفى وجود الشيء يستلزم نفى الانتفاع به .

وبهذا يمكن أن نقول :

إن مادة « ذاق » فى القرآن الكريم مادة مجاز ، لا مادة حقيقة ، ولا مادة حقيقة ومجاز .

* *

● الذوق والإذاقة :

جاءت المادة فى لغة القرآن متعدية لمفعول واحد : ذاق ، ومتعدية لمفعولين بالهمزة : أذاق .

(١) الإنسان : ١٣ .

بيد أننا لاحظنا أنها إذا استعملت في « المحبوبات » جاءت متعدية لمفعولين ، والفاعل هو الله .

وإذا استعملت في « المكروهات » ترددت بين الأمرين : التعدى لمفعول واحد ، والتعدى بالهمزة إلى مفعولين ، والفاعل هو الله كذلك ، وكون فاعل التعدى لمفعول واحد هو غير « الله » لأن الذوق من صفات الحوادث ، والله ليس كمثله شيء .

أما الإذاقة فإن فاعلها هو الله لا غيره ؛ لأنها إيقاع للذوق على غير الفاعل .

والسر - والله أعلم - في اختصاص « المحبوبات » بالإذاقة التي هي فعل الله ، أن المحبوبات نعم بمن الله بها - وحده - على من يشاء من غير استحقاق لأحد عليه ، لذلك أسندت إليه لأنه واهبها :

﴿ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ (١) .

أما تردد إسناد الذوق في المكروهات إلى غير الله ، والإذاقة إلى الله فللاشارة إلى أمرين :

الأول : كون الذين استحقوا ذوق العذاب ، ونظائره هم السبب فيما حل بهم ، وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون .

الثاني : أن مصيرهم المؤلم إنما هو قضاء الله فيهم بالعدل والحكمة ، جزاء وفاقاً .

هذا هو البيان القرآني المعجز ، ينتقى مفردات اللغة حسب علم الله المحيط ، ويصرفها تصريحاً بديعاً وفق نظام مذهل ، تراه وراء كل كلمة ، وكل جملة ، ومن أحسن من الله حديثاً ؟ لا أحد ، وصدق الله العظيم :

(١) النحل : ٥٣

﴿ وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (١)

* * *

● منهج القرآن فى « الذوق » :

أولاً : استعمل القرآن مادة « ذاق » فى المكروهات والمحبرات ، بيد أن استعماله إياها فى المكروهات أكثر .

ثانياً : مجئ المادة فيه متعدية لمفعول واحد ، والفاعل غير الله - ضرورة - ومتعدية لمفعولين والفاعل هو الله وحده .

ثالثاً : فى المحبرات التزم القرآن مجيئها متعدية لمفعولين والفاعل هو « الله وحده » ؛ لأن المحبرات نعمة : ﴿ وَمَا بِكُمْ مِنْ نُّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ .

رابعاً : وفى المكروهات فإن فاعل « الذوق » غير الله ؛ لأن الذوق من صفات الحوادث ، والله ليس كمثله شئ ، أما فاعل « الإذاقة » فهو « الله » لأنه القائم على كل نفس بما كسبت .

خامساً : إسناد « الذوق » إلى غير الله إشارة إلى استحقاقهم العقاب بما قدمته أيديهم .

وإسناد « الإذاقة » فى المكروهات إلى الله وحده ، لأنه هو الذى قضى عليهم بسوء المصير بما اكتسبوا وجنّوا جزاءً وفاقاً .

سادساً : مادة « ذاق » فى لغة القرآن مادة مجاز ، كيفما جاءت . سواء فى ذلك استعمالها فى « المحبرات » أو « المكروهات » .

وهى مستعارة فى القرآن لشدة الإحساس ، وقوة الوجدان .

* * *

الخاتمة

عزيزى القارئ الكريم ، بما ها أنتذا قد فرغت من قراءة هذه الدراسة ، ووقفت على شىء من أسرار الإعجاز القرآنى البلاغى اللغوى ، ورأيت الإعجاز القرآنى البلاغى اللغوى ، ورأيت كيف كان للمفردات القرآنية من دور عظيم فى استجلاء سمات الإعجاز فيه ، وكيف وقع اللفظ فيه موقعه من بلاغة الإعجاز وإعجاز البلاغة ، وإلى أى مدى استعمل القرآن الأدوات اللغوية استعمالاً أمثل هو الفيصل بين الأسلوب القرآنى المعجز ، وبين كلام البشر فى أرقى نماذجه وصوره ، وإننا لنحسب أن أبرز ما أسفرت عنه هذه التجربة أمران :

الأول : أن ظاهرة الترادف اللغوى تكاد تكون معدومة فى لغة القرآن ، أو هى كذلك فعلاً فى المواد اللغوية التى تناولتها الدراسة ، لأن لكل لفظ قرآنى خاصية فريدة ، ودلالة دقيقة لا توجد فى سواه من الألفاظ المشتركة معه فى أصل المعنى ، وقد مرت بنا عشرات الشواهد على هذا المسلك الإعجازى البديع .

الثانى : تلك المناهج التى رصدناها عقب الفراغ من كل مادة لغوية شرفت باستعمال القرآن له ، وقد أوجزت تلك المناهج التطبيقية طرائق القرآن فى توظيف اللغة ، وفى هذا إشارة إلى أن لكل مادة لغوية فى القرآن منهجاً خاصاً بها .

فقد رأينا - مثلاً - كيف وظّف القرآن مادة ختم ، ومادة طبع ، ومادة ربط ، مع أن هذه المواد الثلاث لها أصل دلالى واحد ، إلا أن القرآن وظف كلاً منها فى تادية معانى متباينة من مادة إلى أخرى ، ولم تخلُ مادة من المواد الثلاث من دواع ومقتضيات بلاغية ، خصصت معانيها بالمقام الذى استعملت

فيه ، وهكذا تفتح هذه الدراسة أبواباً جديدة فى مجال الإعجاز القرآنى
البلاغى اللغوى ، وهو الوجه المختار ، والمجمع عليه بين جميع الباحثين
قديماً وحديثاً ، من جملة وجوه الإعجاز الأخرى ، وإننا لنهيب بالباحثين فى
إعجاز القرآن أن ينهجوا هذا المنهج . أما نحن ، فبالإضافة إلى ما قدمناه هنا
فإن لدينا العزم على إعداد جزء ثان مكمل لهذا الجزء . نسأل الله تعالى أن
يعيننا على إخراجه ويسر لنا سبل السير فيه . راجين منه العفو عن الزلل ،
إنه رحيم ودود .

المؤلف عفا الله عنه

رقم الإيداع : ٩٨٨٨ / ٩٦

I. S. B. N: 977 - 19 - 1614 - 9

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
تقديم	٥	كفّر - غفر	١٤٦
مواد الدراسة	١١	مرض - مرضاً	١٥٧
الأب - الوالد (الأبوة -		المرأة - البعل	١٦٠
الوالدية)	١٣	ختم - مختوم	١٧٣
أقبل - تعال	٢٤	طبع - يطبع	١٨١
أصحاب - أولو	٣٤	ربط - يربط	١٨٦
الكره - الكره	٤١	سخر - مسخرات	١٩٠
النصر - الظفر	٤٤	سخر - يسخر	٢ ٣
قليل - كثير	٥٠	السكينة - الشجاعة	٢ ٨
الريح - الرياح	٥٧	الفوز - النجاح	٢١٤
الرشد - الهوى	٦٦	اللسان - اللغة	٢٢٦
فرق - فرّق	٧٢	صعد - يصعد	٢٣٤
الجسد - الجسم	٧٨	رفع - يرفع	٢٤٣
عرف - علم	٨١	الدعاء - النداء	٢٥٢
المس - اللمس	٨٦	النداء - الدعاء	٢٥٩
المطر - الغيث	٩٥	ربّ - رب كل شيء	٢٦٩
العمة - النعيم	٩٩	النور - والكتب السماوية	٢٩٩
الجمال - الحسن	١٠٤	العمى - العمه	٣ ٧
الميت - الميت	١١	الصوم - الصيام	٣١٤
مدّ - أمدّ	١٢٣	ذاق - ذقّ	٣١٩
العمل - الفعل	١٢٨	الخاتمة	٣٢٨
الجهاد - القتال	١٣٦	الفهرس	٣٣٠
المخطئ - الخاطئ	١٤٢		

كتب للمؤلف تنفرد بنشرها مكتبة وهبة

- المجاز في اللغة والقرآن الكريم بين الإجازة والمنع « جزآن »
- خصائص التعبير القرآني .. سماته البلاغية « مجلدين »
- المجاز عند الإمام ابن تيمية وتلاميذه .. بين الإنكار والإقرار
- سماحة الاسلام في الدعوة إلى الله والعلاقات الإنسانية .. منهاجاً وسيرة
- الفقه الاجتهادي الإسلامي .. بين عبقرية السلف .. ومآخذ ناقدية
- افتراءات المستشرقين على الإسلام .. عرض .. ونقد
- أوروبا في مواجهة الإسلام .. الوسائل والأهداف
- الإسلام في مواجهة الأيديولوجيات المعاصرة
- عقوبة الإرتداد عن الدين .. بين الأدلة الشرعية وشبهات المنكرين
- « جوانيات الرموز المستعارة لكبار « أولاد حارتنا » أو نقد التاريخ الديني النبوي
- مصادر الابداع بين الأصالة والتزوير
- الحداثة .. سرطان العصر .. أو ظاهرة الغموض في الشعر العربي الحديث
- لماذا لا بد من دين الله .. لدنيا الناس
- المسيحيون والمسلمون في تلمود اليهود « غرائب وعجائب »